نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض

أو

رحلة إلى أبعد مكان

جولات في أقصى جنوب المحيط الهادئ

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ

ⓗ محمد ناصر العبودي ، ١٤٢٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد ناصر

نظرة الى الوجه الآخر من الأرض .ـ الرياض .

... ص ، .. سم

ردمك : ٢-٥٣٥-٣٦-٩٩٦٠

١- العالم ـ وصف ورحلات   أ- العنوان

ديوي ٩١٠،٤١   ٢٠/٣١٥٥

رقم الإيداع : ٢٠/٣١٥٥

ردمــك : ٢-٥٣٥-٣٦-٩٩٦٠

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، رب أوزعني أن أشكر نعمتك لتي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ، وأن اعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذريتي.

وصلِّ اللهمَّ على نبي الهدى، الرسول المجتبى؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه مصابيح الدجى.

أما بعد؛ فإن من نعم الله عليَّ أن تتحقق أمنية عزيزة لديَّ، وهي السفر إلى الأماكن النائية في جنوب المحيط الهادئ، بعد أن كان السفر إلى الجزر الهادئة - نسبة إلى الهادئ - وهو المحيط الأعظم قد تحقق، وكتبت عن ذلك كتاباً أسميته: ((جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ)).

غير أنه كانت قد بقيت بقية من تلك الجزر ذاهبة جنوباً عما كنت زرته من قبل، منها مملكة تونغا التي دخلها الإسلام منذ سنتين حينما أسلم أحد أبنائها، وهو القس السابق الذي صار اسمه الإسلامي: (فياض مانو).

وقد دعا قومه إلى الإسلام، فاستجاب له منهم نفر ما لبثوا أن ألفوا منهم جمعية إسلامية هي الأولى في تلك المملكة؛ بل هي الأولى في تلك المنطقة حاشا جزيرة فيجي التي دخلها الإسلام قديماً، وما زال المسلمون من أهلها أقوياء في دينهم.

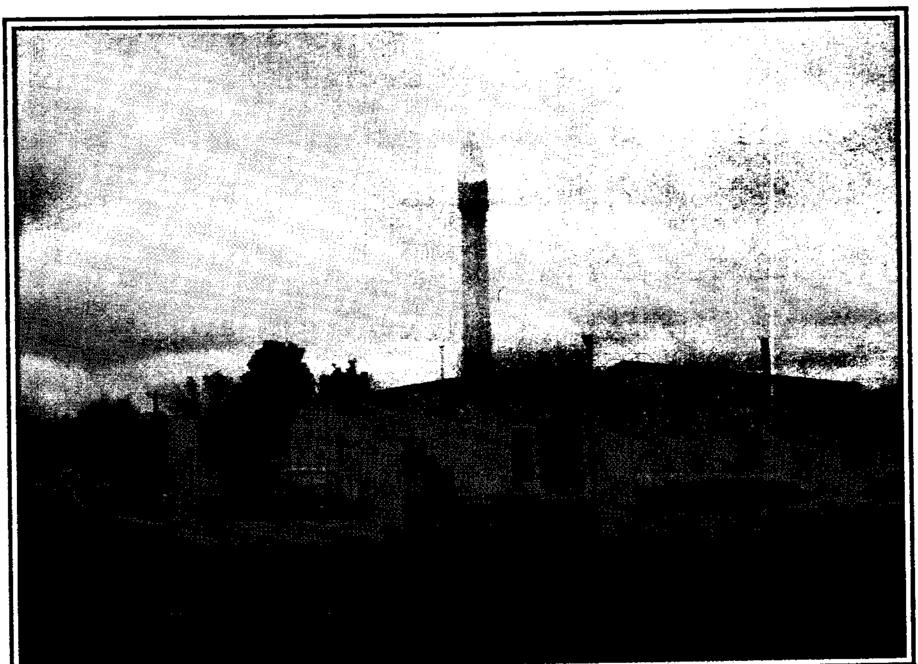
ومنها: جزر ساموا التي اشتهرت إبان الحرب العالمية الثانية.

ومنها: جزر (تاهيتي) المشهورة بجمال جوها، وغرائب العادات عند أهلها.

ولم يكن لمثلي أن يسافر لغرض السياحة؛ لأن ترك العمل من أجل

السياحة لا يفعله إلا من كان مرهقاً في عمله، أو من لا يستطيع أن يستغل وقته فيما يحبه. لذلك انتظرت فرصة تسنح لزيارة هذه الجزر النائية.

وجاءت الفرصة حينما دعاني الإخوة المسلمون القائمون على بناء مسجد (كرايست تشيرتش) في الجزيرة الجنوبية من نيوزلندا، وهو المسجد الذي كانت المملكة العربية السعودية قد قدمت من قبل إعانة مالية على بنائه بلغت ثمانمائة ألف ريال، أي أكثر قليلاً من مائتي ألف دولار أمريكي، وذلك بوساطة من رابطة العالم الإسلامي التي أتقلد الآن فيها وظيفة الأمين العام المساعد.



مسجد كرايست تشيرتش

كما أن وفداً من اتحاد الجمعيات الإسلامية في نيوزلندا كان قد زارني في مكتبي في مكة المكرمة، وأخبرني بقصة إسلام أولئك النفر من أهل تونغا، وطلب أن أزورهم، أو يزورهم أحد المسؤولين في رابطة العالم الإسلامي

تشجيعاً لهم، وتعاوناً معهم على الخير، وبخاصة أنهم قد استأجروا بيتاً اتخذوه مسجداً، ويحتاجون إلى معاونة على إجارته.

ثم تقدم الأخ (فياض مانو) نفسه بكتاب إلى رابطة العالم الإسلامي يطلب فيها مثل ذلك.

فتجمعت هذه الأمور، وصح العزم على السفر إلى نيوزلندا و(تونغا) في رحلة عمل، وبقي انتهاز الفرصة - كما اعتدت كثيراً - في زيارة الأماكن التي تستحق الزيارة إذا كانت قريبة من محل العمل؛ لا سيما إذا كانت في مناطق نائية مثل جزر ساموا، وجزر كوك، وتاهيتي.

وبينما كنت أتهيأ للسفر وردت إلى رابطة العالم الإسلامي برقية من السفارة الباكستانية في المملكة تبدي فيها رغبة الحكومة الباكستانية في أن يحضر الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي مؤتمر السيرة النبوية الذي سيقام في إسلام أباد يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وذلك لأن المؤتمر تقيمه وزارة الشؤون الدينية في باكستان، ومن المقرر أن يفتتحه الرئيس محمد ضياء الحق - رحمه الله - رئيس باكستان.

وقد سافرت بالفعل من الرياض إلى كراتشي صباح يوم السبت الحادي عشر من شهر ربيع الأول عام ١٤٠٦ هـ لحضور المؤتمر، وإلقاء كلمة فيه باسم رابطة العالم الإسلامي، غير أنني عرفت أن تقويمهم يتأخر عن تقويمنا، وأن معنى ذلك أن أضيع ثلاثة أيام غالية من وقت الرحلة، فكتبت كلمة أعطيتها لمدير مكتب الرابطة في إسلام أباد بالنيابة القاضي المتقاعد أفضل شيما ليلقيها بالنيابة.

وغادرت باكستان يوم الأحد ٢٥ نوفمبر ١٩٨٥م عن طريق كولومبو وسنغافورة إلى سيدني في أستراليا.

وكنت كما اعتدت في سائر رحلاتي أكتب مذكرات يومية عما

شاهدته، أو لاحظته، أو سمعت به مما يتعلق بذلك في البلدان التي أزورها، وذلك من النواحي التي يلاحظها السائح بوجه عام، ومن ناحية ما يتعلق بالمسلمين بوجه خاص.

وعندما رجعت إلى ما كتبته عن مدينة (كرايست تشيرتش) وافتتاح أول مسجد فيها؛ بل أول مسجد في الجزيرة الجنوبية من نيوزلندا، وجدته يؤلف مع ما كتبته عن الجزر الأخرى كتاباً يتحدث عن خواطر سائح عربي في بلاد نائية لا يكاد يصلها عربي؛ بل إن كثيراً من أهلها لم يروا عربياً من قبل إلا ما كان من أمر مدينة (كرايست تشيرتش) التي يوجد فيها عدد قليل من طلبة الدراسات العليا من البلدان العربية.

وكنت قبل ذلك كتبت كتاباً عن نيوزلندا وتسمانيا شمل الحديث عن مدينة أوكلاند؛ كبرى المدن في نيوزلندا، وعن ولينغتون عاصمة البلاد جعلت عنوانه: ((إطلالة على نهاية العالم الجنوبي)) ونشره النادي الأدبي في مكة المكرمة.

فرأيت أن أعنون هذا الكتاب بعنوان يدل على مضمونه، وإن كان فيه بعض الغرابة، وهو: ((نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض)) وذلك أن الأماكن التي زرتها وذكرتها فيه كلها واقعة في منطقة هي أبعد المناطق المأهولة على الإطلاق عن بلادنا، ودليل بعدها أنها إذا غربت الشمس فيها أشرقت عندنا وبالعكس، فبعدها هذا من حيث الوقت، وهو نهاية البعد.

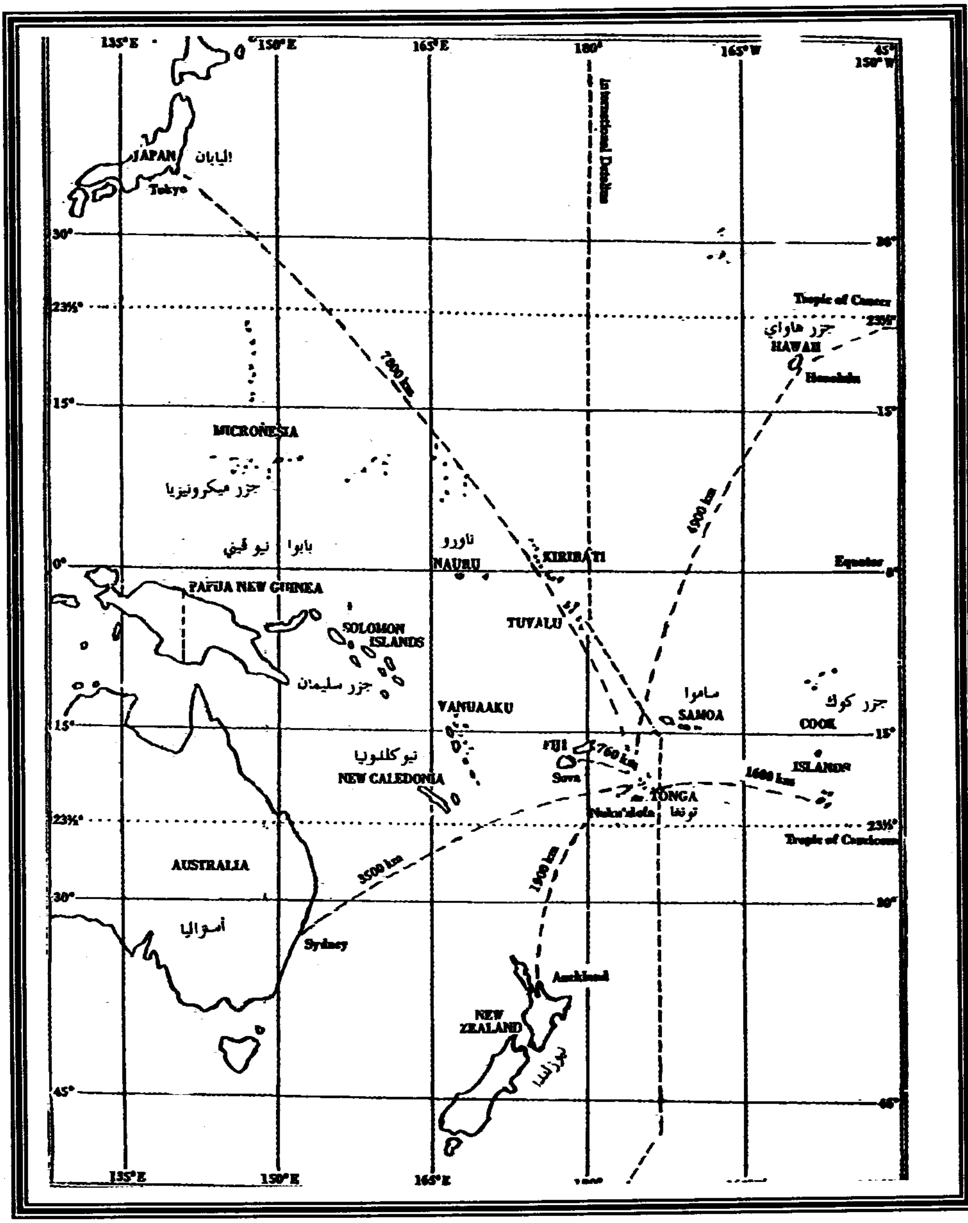
ولذلك كانت شركات الطيران تسأل في بعض الأماكن التي هي أقرب إلينا منها، وهي ليست منها ببعيدة مثل جزر فيجي، من يريد أن يسافر إلى مكة المكرمة: أيريد أن يذهب إليها من الشرق أو من الغرب؛ لأن قيمة التذكرة لا تختلف في أي الاتجاهين.

ولذلك أضفت للكتاب عنواناً آخر رديفاً، وهو: ((أو رحلة إلى أبعد

مكان)).

ولم يكن معي رفيق في هذه الرحلة بطولها كما كان الحال عندما زرت المنطقة التي تقع إلى الشمال منها لأول مرة عام ١٤٠١هـ؛ بل كنت وحدي، ومع ذلك فإنني لم أعدم ثرثاراً من أهل البلاد أستفيد من ثرثرته، أو فضولياً يحب أن يعرف عن الغرباء ما لم يكن يسمح به كثير منهم، أو غريباً وحيداً مثلي يود أن يجد من يتحدث إليه يبدد بذلك وحدته، ويؤنس وحشته، وكانت اللغة هنا - وهي الإنكليزية - خير معين على ذلك؛ حيث يفهم المرء ما يدور حوله، ويُفهِم الناس ما يريد أن يقوله لهم.

منطقة جنوب المحيط الهادئ



يوم الخميس ١٦/ ٣/ ١٤٠٦هـ، ٢٨/ ١١/ ١٩٨٥م.

مغادرة أستراليا:

لم تكن لي رغبة في البقاء في أستراليا؛ بل في دخولها في هذه المرة لأنني زرتها مرتين من قبل، وتجولت في مدنها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق، وكتبت في ذلك كتاباً أسميته: ((وراء العمل الإسلامي في القارة الأسترالية)) يقع في مجلدين.

ولكنني دخلتها من أجل الحصول على سمة الدخول إلى نيوزلندا؛ لأن السفارة النيوزلندية في الرياض طلبت إمهالها فترة من الوقت لم أستطع الصبر إلى انقضائها، وذلك بسبب غياب السفير ونائبه كما قال موظف في السفارة، وذكر أن الجواز السياسي – مثل جوازي – ينبغي أن يبت السفير فيه.

فسافرت من سيدني إلى العاصمة الأسترالية (كانبرا) بالطائرة، وحصلت على السمة في ساعة واحدة، وجددت عهداً بهذه العاصمة القصية، وكنت زرتها في المرة الأولى بالسيارة من سيدني، وعدنا في اليوم نفسه إلى سيدني.

كان موعد قيام الطائرة من سيدني إلى مدينة (كرايست تشيرتش) في نيوزلندا الساعة التاسعة من الصباح، فنزلت في السادسة والنصف، وقد أشرقت الشمس قبل قليل؛ لأن هذا الفصل عندهم هو آخر فصل الربيع الذي يسبق الصيف، وهو آخر الخريف في بلادنا، وسائر البلدان الشمالية، فوجدت المطعم مغلقاً.

ولم يفتحوه إلا في السابعة، فأسرعت وأنا مرتبك أتناول إفطاراً جاهزاً، وهم يجعلون الإفطار داخلاً في أجرة الغرفة، فاعترضني المسؤول عن الإفطار، وسألني عن رقم الغرفة، فلما أخبرته، وبحث عن اسمي جاء يسألني بالعربية عما أريد، فاستغربت معرفته العربية هنا، فقال: أنا مصري مهاجر إلى

أستراليا، وأعمل في هذا الفندق.

ثم أسرعت أسحب حقيبتي الكبيرة الثقيلة، وأعود لحمل حقيبتي الصغيرة، ووقفت فترة على الرصيف وأنا مشفق من فوات الوقت؛ لأن السير في شوارع سيدني عندما تشتد الحركة بطيء جداً بسبب إشارات المرور، وقلة عدد الجسور أو الأنفاق في الطرق السريعة.

وبعد طول انتظار جاءت سيارة الأجرة، وكدت أقول لسائقها ينزل ويرفع حقيبتي الثقيلة كما هي العادة الحميدة عندهم في مساعدة الراكب، ولكنني وجدت السائق امرأة فصدمت، ولم يكن بإمكاني أن أبحث عن غيرها لضيق الوقت، فحملت أنا أمتعتي بصعوبة وركبت، وسألتها عما إذا كانت الفتاة تقابل أية صعوبة في عملها سائقة لسيارة الأجرة؟ فنفت ذلك.

ولا شك في أن سببه أن المرأة هنا تعمل في كل الأعمال، وتقضي جزءاً كبيراً من وقتها خارج البيت، فهي لا تلاقي صعوبات في عملها هذا في السيارة أكثر من الأعمال الأخرى، ونقدتها الأجرة عشرة دولارات أسترالية، وتساوي سبعة دولارات أمريكية تقريباً؛ لأنني صرفت مائة دولار أمريكي بمائة واثنين وأربعين دولاراً أسترالياً، وكانت قيمة الدولار الأسترالي في أول سفراتي لأستراليا يزيد عن الأمريكي.

وصلت المطار وكان الوقت لا يزال فيه متسع، ووجدت الأخ الشيخ شفيق الرحمن عبد الله الداعية إلى الله في هذه البلاد الأسترالية، ومعه أحد الدعاة المبتعثين من رئاسة الإفتاء والدعوة في المملكة للدعوة في أستراليا.

وكان حجزي غير مؤكد، فلبثت في المقهاة والشيخ شفيق الرحمن عبد الله يسعى بالتذكرة حتى انتهينا من ذلك قبل قيام الطائرة بقليل، فأسرعت إلى الطائرة، ومع أن فحص أوراق المسافرين والقادمين يتم هنا كله بالحاسب الآلي (الكمبيوتر)، فإن ذلك لم يستغرق كثير وقت.

من سيدني إلى كرايست تشيرتش:

ركبنا مع طائرة للخطوط الجوية النيوزلندية من طراز (بوينج ٧٦٧)، وهو طراز جديد لم أركب فيه إلا مرتين، أولاهما مع طائرة لشركة (ترانس برازيل) البرازيلية من مدينة برازيليا العاصمة إلى مدينة (ماناوس) عاصمة ولاية الأمازون. والأخرى مع الشركة السنغافورية من سنغافورة إلى جاكرتا.

استقبلتنا مضيفات الشركة اللاتي هن الأوربيات لم يتغيرن، بل هن كسائر النيوزلنديين أحسن معاملة وألطف أخلاقاً من الإنكليز الذين يعيشون في مدينة لندن مثلاً مع أخلاط الناس في الوقت الحاضر.

لأن هؤلاء النيوزلنديين قد حافظوا على الأخلاق الإنكليزية في المعاملة التي كانت سائدة إبان عز الإنكليز في العالم، ولم يتغيروا بخلاف بني قومهم في العاصمة البريطانية.

وكانت الطائرة وهي كبيرة، مليئة بالركاب وهم الأوربيون وإن كانوا يعيشون في جنوب الأرض، ولم ير أكثرهم أوربا في حياته بخاصة منهم الجيل الجديد.

قامت الطائرة في التاسعة وعشر دقائق متأخرة عشر دقائق، وهي مدة لا تعتبر تأخيراً في العادة...

عندما تحركت الطائرة أداروا شريطاً مسجلاً عليه كيفية العمل في حالة النزول الاضطراري، وبخاصة فوق البحر.

وعندما ارتفعت الطائرة تكلم الطيار عن الرحلة، فذكر أن الطيران سيستغرق ساعتين ونصفاً، وأن الجو في كرايست تشيرتش صحو، ودرجة الحرارة هي خمس عشرة درجة، وهذه درجة نازلة بالنسبة إلى بلادنا، لأن الشتاء المعتاد عندنا تكون درجة الحرارة الكبرى فيه وسط النهار ما بين ١٥

إلى ٢٠ درجة.

ولكنها درجة من الدفء طيبة بالنسبة إلى هذه المدينة الجنوبية الباردة، ولفظة الجنوبية هنا ترادف لفظة الشمالية في بلادنا، وما كان عنها جهة الشمال في فصل الشتاء في المدلول، لأنه كلما أبعد الموقع جهة الجنوب في النصف الجنوبي من الأرض كان أشد برداً لكونه يقترب من القارة القطبية الجنوبية.

وقدموا وجبة غداء لا بأس بها، إلا أنني شككت في اللحم، فسألت المضيفة، فلم تعرف حاله، حتى ذهبت تسأل غيرها، ثم عادت لتقول: إنه من لحم البقر.

في مطار كرايست تشيرتش:

هبطت الطائرة فيه قبل أن تتم الساعة الثانية عشرة ظهراً بقليل بتوقيت سيدني التي خرجنا منها، ويساوي ذلك الساعة الثانية بتوقيت (كرايست تشيرتش)، فهو يتقدم توقيت سيدني وشرقي أستراليا بساعتين.

وجدت الإجراءات عند الدخول شديدة، ولكنها تتم بسرعة، ومن ذلك أنهم جعلوا الممر إلى مفتش الحجر الزراعي أولاً يمر بعدة ممرات منحنية بين أعمدة صغيرة وضعوها لهذا الغرض يمكن نقلها. فأنت ترى الموظف الذي تقصده أمامك، ولكن لا تصل إليه إلا بعد أن يتعرج سيرك يميناً ويساراً، وذلك من أجل إعطاء الموظفين المزيد من الوقت لمراقبة القادمين.

وأول من يصادف الركاب من الموظفين ضابط الحجر الزراعي، فيتصفح أوراق الركاب والاستمارات النيوزلندية التي ملأها الركاب، وهي معقدة وطويلة، وتقول فيما تقوله: إننا مستقلون تماماً، ولذلك نرجو أن تذكر لنا أي شيء تحمله من طعام، أو حيوان، أو ما استخرج من جلده أو شعره أو نحوه، وكذلك كل الفواكه المجففة.

وقد وضعوا أوعية خاصة بأغطية محكمة يلقون فيها ما يجدونه مع الركاب من ذلك؛ لأنهم كما أوضحوا في استماراتهم يقولون: إنهم يخشون على الثروة الزراعية والحيوانية من انتقال العدوى بالجراثيم إليها.

أما ضابط الجوازات فقد رحب بي بصفة خاصة حينما رأى جوازي سعودياً، وكتب على ورقة الجمرك شيئاً جعل ضابط الجمرك يقول لي وهو يحييني: يمكنك أن تتقدم يا سيدي، أي دون أن أقف في التفتيش.

وصرفت نقوداً في بنك المطار مائة دولار أمريكي بمائة واثنين وسبعين دولاراً نيوزلندية، وهذا سعر منخفض بالنسبة لقيمة عملتهم بالمقارنة إلى ما كانت عليه عندما وصلت نيوزيلندا أول مرة في عام ١٤٠١هـ-١٩٨١م إذ كنت صرفتها بـ: مائة وستة عشر دولاراً نيوزلندياً ونصف.

ومع ذلك فإن هذا لا يعتبر انخفاضاً شديداً إذا قورن بانخفاض العملات في دول كثيرة، وبخاصة في أمريكا الجنوبية، فعلى سبيل المثال عندما زرت البرازيل أول مرة في عام ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م كان سعر الدولار سبعة كروزيرات - وهي عملتهم - إلا ربعاً. وفي آخر زيارة لي للبرازيل قبل نحو شهرين من الآن كان سعر الدولار تسعة آلاف وتسعمائة كرويزرو، وكانت عملة الأرجنتين تحت حكم العسكريين قد انحطت أسوأ من هذا الانحطاط، وأسوأ من ذلك كله عملة بوليفيا التي صرفت الدولار فيها بمائتين وثمانية وعشرين ألف بيزو.

وجدت في الاستقبال طائفة من الإخوة الكرام على رأسهم الدكتور صالح السماحي الذي هتف به الشيخ شفيق الرحمن من أستراليا، وأخبره بموعد وصولي، وكنت طلبت منه ألا يفعل، وكان الأخ الدكتور السماحي قد اتصل بي هاتفياً في مكتبي في مكة المكرمة، وأخبرني أنهم حجزوا لي في فندق (تشاتو ريجنسي).

وفي المستقبلين رئيس الجمعية الإسلامية في كنتربري، وهي المقاطعة التي عاصمتها كرايست تشيرتش، والأخ (حكمت يوسف) وهو عراقي يحضر لشهادة الدكتوراه في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) .

في مدينة كرايست تشيرتش:

سارت السيارة في طريق جميل جداً قد أينعت أشجاره، وتفتحت أزهاره، فالفصل في هذه البلاد هو فصل الربيع رغم ما نحس به من برد، إذْ لا تكاد تكفي البزة (البدلة) الخفيفة للشخص.

ونزلت فندق (تشاتو ريجنسي)، وهو فاخر من فنادق الدرجة الفاخرة، وإن كانت هندسة البناء فيه غريبة، إذْ أقيم أعاليه من الأخشاب، ولكنها طليت بدهان لامع يجعلها تبدو وكأنها من غير الخشب، وحتى درجه والسلالم فيه فإنها مكسوة بالقماش الفاخر كلها حتى حيطانها.

قدمني الدكتور صالح السماحي إلى مدير الفندق وقال: هو أخ مسلم تركي الأصل، وقال لي المدير بعد أن رحب بي في فندقه: اسمي (هادمين جميل)، فسألته عما إذا كان يعرف معنى كلمة (جميل) بالعربية، فقال: لا، غير أنني أعرف أن (هادمين) كلمة تركية، و(جميل) عربية، فقلت: هو بيو تيفل، ثم قدمني لأعضاء من الجمعية الإسلامية هم:

منصور خواجا	عضو	محاسب باكستاني.
محمد يوسف	عضو	مشرف باكستاني
عبد الله يوسف	طالب	فلسطيني
د.خير جدعان	بروفسور	فلسطيني
عمر مهيار	طالب	فلسطيني

حسام الجبوري طالب عراقي

وذلك على مائدة للشاي والقهوة وقد عرفوني بأشخاصهم وأعمالهم هنا، وأكثرهم من الطلبة الذين يحضرون شهادات الدراسات العليا.

وقد أخبرتهم بسبب قدومي إلى هنا وهو الاستجابة لدعوتهم الكريمة لحضور افتتاح هذا المسجد الكريم الذي هو أول مسجد في الجزيرة الجنوبية من نيوزيلندا، ثم هو زيارة مملكة تونغا والاجتماع بالإخوة المسلمين الجدد من اهلها. وأخبرتهم أنني تركت حضور مؤتمر السيرة النبوية الذي سينعقد في باكستان من أجل حضور مؤتمرهم هذا لأنه أهم عندي من حضور ذلك المؤتمر الكبير.

ثم أطلعوني على برنامج الاحتفال بافتتاح المسجد، وتحدثوا إليّ عن أوضاعهم هناك.

هايد بارك في مدينة كرايست تشيرتش:



حديقة هاقلي بارك في كرايست تشيرتش

طلبت أن أقضي أصيل هذا اليوم في جولة أتعرف فيها على بعض نواحي مدينة كرايست تشيرتش المهمة.

فأرسلوا إليّ الأخ خير الدين بن علاء الدين، وهو من ماليزيا، وعضو في الجمعية الإسلامية يدرس القانون هنا.

ولكنني وجدته رغم مضي ثلاث سنوات على بقائه في هذه البلاد لا يعرف الكثير من أمورها لكونه غير فضولي، وعادتي أن أنتفع من الفضولي أكثر مما أنتفع من غيره، فقنعت بزيارة هذه الحديقة:

حديقة هاقلي بارك:

ويمكن أن تسمى (هايد بارك) كرايست تشيرتش، بل إن بعض الناس يسمونها بالفعل بذلك، فتصح التسمية ذلك بأنها واسعة تصل إليها من أكثر أنحاء المدينة القديمة، ويقال: إن مساحتها تساوي مساحة نصف المدينة، غير أنها أفخر من هايد بارك في لندن، وفيها أقسام مخصصة للنبات علمياً بمعنى أنهم يستنبتون فيها أنواع الزهور، وأنواع الأشجار، وليس لمجرد جمال الشكل وابتغاء الهواء النقي.

ولذلك سموا قسماً منها باسم: (هاقلي بارك أند بوتنغ قاردن) أي: منتزه وحديقة النبات.

دخلنا إليها من بوابة قريبة من فندقنا، فكان عند المدخل صف من الأشجار العتيقة الضخمة؛ بل الهائلة الجذوع، لا شك في أنهم وجدوها هكذا منذ غرست الحديقة إلا إذا كانوا غرسوها قبل مائة سنة، وهو ما لا أظنه حيث أكدوا أن تأسيسها كان في تاريخ أقدم من ذلك.

وربما كانت بعض هذه الأشجار موجودة قبل وصول الأوربيين الذين يلذ لبعض الناس أن يسميهم البيض، مع أن أهل البلاد الأصلاء من الماوريين

وبخاصة في هذه الجزيرة الجنوبية ليسوا من السود، ولكنهم من السمر، أو لنقل إنهم من الحمر حتى يكون قولنا أدق، وأقرب للصواب.



المؤلف عند شجرة ضخمة في حديقة هاقلي بارك في كرايست تشيرتش

وقد رأيت فيها من غرائب الأشجار ما لم أره من قبل على كثرة ما رأيت من ذلك في سائر قارات العالم، ومن ذلك واحدة ضخمة لها أوراق صغيرة تبدو كالأزهار، ولا تكون إلا في أعلاها بخلاف الأشجار التي أوراقها صفر، فهي موجودة هنا وفي كثير من أنحاء العالم. وأشجار أخرى غير عالية، بل في طول

قامة الرجل تقريباً، ولها أزهار كالسنابل الطويلة جداً، بل هي كالسلاسل اللينة.

ولاحظت أنه رغم ما أحس به من برودة الرياح الجنوبية هنا فإن بعض الناس قد تخففوا من ملابسهم، وبخاصة منهم من يمارسون الرياضة، وبعضهم يركضون وهم كذلك، وطائفة منهم من رجال ونساء يلعبون كرة المضرب أو الجولف في ملاعب الحديقة.

وبمناسبة برودة الجو قال لي الإخوة الكرام مجاملين: إنه على قدومكم طلعت الشمس في هذا اليوم، وإلا فإنه قد مضى عليهم أسبوع لم يروا فيه الشمس أصلاً، وإنما كان المطر المستمر مع البرد.

ووصلنا في تجوالنا في الحديقة إلى جسر على نهر ليس بالكبير اسمه (نهر إيفون)، وقد غرسوا على ضفتيه أشجاراً من أشجار الزينة، فيها أشجار الزهور التي فرشت الأرض بالأزهار الوردية التي تساقطت وما تزال الورود تجللها.

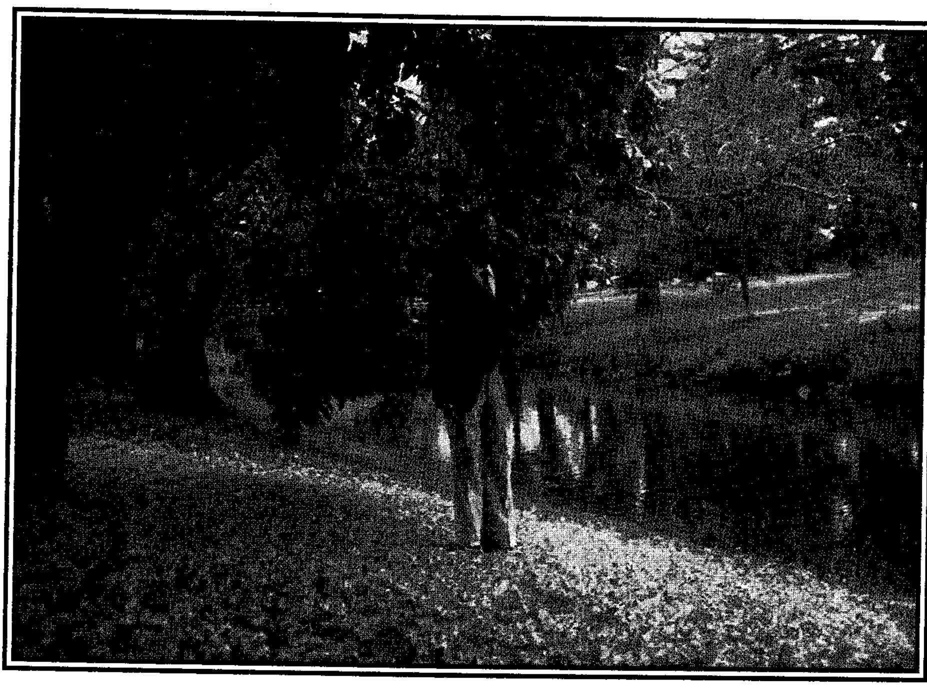
ومنها شجر ذو أغصان دقيقة كثة متدلية على الأرض كما تتدلى خصلات الشعر الكث من فرع الفتيات الفينان، وقد رأيتها قبل هذا في جزيرة (تسمانيا)، وصورتها في كتابي: ((إطلالة على نهاية العالم الجنوبي)) وأسميتها: (ذات الجدايل).

وتعيش ذات الجدايل على ضفاف الجداول لأنها تفضل الماء العذب النمير.

وسرنا نواصل التفرج في رؤية هذه الحديقة المنسقة، التي اجتمع فيها ابتغاء الفائدة والجمال، فأعجبني بساط وردي قد فرشته، أو لأقل افترشته شجرة من أشجار الزهور الوردية فالتقطت له صورة.

ووصلنا إلى حاجز آخر من مجرى النهر وهو يسير رويداً، بل هو

يتكاسل كما يتكاسل الربيع في هذه البلاد، فلا يصل إلى الناس إلا وقد هدهم البرد، وأتعبهم المطر.



المؤلف على بساط الزهور في حديقة كرايست تشيرتش

وفي النهر بط بري كثير، وإذا شئت الدقة في التعبير قلت: إنه وحشي، وإن كان لا يستوحش من الناس، فهو لا ينفر منك فضلاً عن أن يطير عنك إلا إذا كدت تلمسه، ولكنه وحشي لكونه لم تكن تربيته في منازل.

ولقد رأيته يتبختر في أماكن أخرى من الحديقة لا يكاد يبعد عن طريق الماشين إلا إذا قاربوا أن يطؤوه.

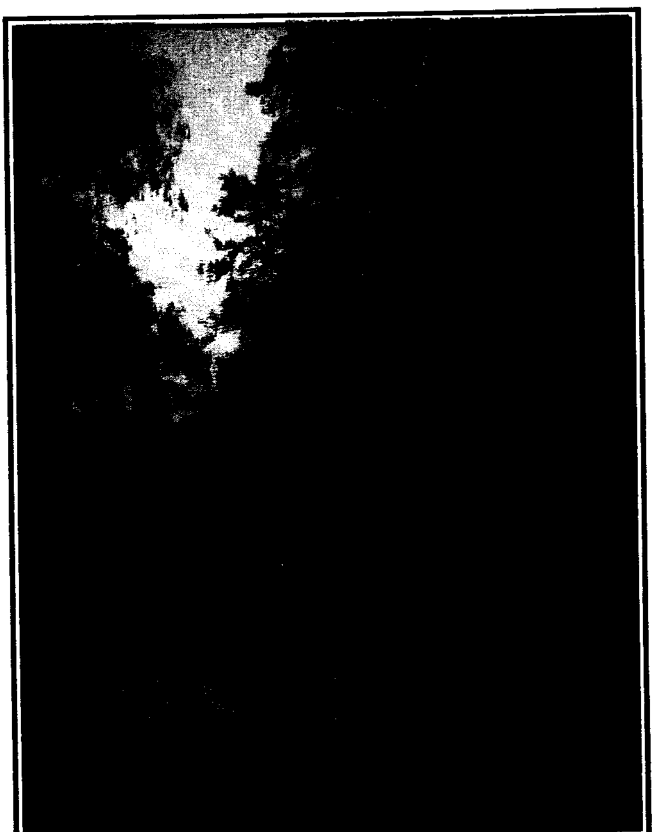
ومن النقص الظاهر في هذه الحديقة أنهم لا يكتبون أسماء الأشجار وتواريخ استنباتها أو غراسها إلا فيما ندر، وعلى ما كان منها ذا أصل غريب، أو منظر غير مألوف، فيكتبون على واحدة منها، ويهملون باقيها فلا يكاد

المرء يعرف عنها شيئاً.

ومن الأشجار التي كتبوا عليها تاريخها واحدة ضخمة ذكروا أن اسمها (باينس راديانا) وأن عمرها مائة سنة، ذكروا ذلك في تاريخ هذه خلاصته.

عبير الزهور:

وصلنا إلى قسم فيه عالم من الزهور المختلفة الألوان والروائح بحيث إذا أراد المرء أن يصف ألوانها فإن الألوان المعروفة لديه تنفد قبل أن يستطيع وصف ألوانها لكثرتها وتعدد وغرابة بعضها بحيث لا تستطيع أن تلحقه بلون معين معروف من الألوان.



داخل حديقة كرايست تشيرتش

وهي منسقة منظمة وفق ذوق سليم بحيث زادها رونقاً، وأضفى عليها منظراً خلاباً، بل أخّاذاً بالأبصار والبصائر. وقد كتبوا على أكثر أنواعها أسماءها وتآريخ استنباتها.

وقد أكثروا من غرس الأشجار ذات الأوراق الملونة بغير الخضرة التي تبدو أوراقها على البعد وكأنها الزهور البهيجة الألوان ما بين صفراء وأرجوانية وبنية الألوان.

ومن أعجب ما رأيته منها هي شجرة ضخمة جداً ذات أوراق دهم تضرب إلى اللون الأرجواني، ثم رأينا قسماً من الحديقة قد غرسوا فيه أنواعاً من الزهور بين الصخور، وهي صخور مجلوبة، ولكنهم جعلوها لكثرتها تبدو تماماً كما تبدو الصخور الطبيعية التي نبتت فيما بينها الأزهار البرية البهيجة.

وأعجب ما رأيته فيها شجرة تشبه بعض النبات الذي ينمو صغيراً في بلادنا كما ينمو الجرجير ونسميه الحرشاء لكون أوراقه خشنة، لأن الأحرش هو الخشن في الفصحى وفي عاميتنا، ولكنها وهي تشبه ذلك النبات كأنما نمت وكبرت مائة مرة أو أكثر من ذلك، فذكرت بذلك ما تخيلته عن الكنغرو حيوان أستراليا الشهير الذي يشبه اليربوع الصحراوي الذي قد عظم خلقه مائة مرة أو تزيد.

وقد قست عرض ورقة هذه الشجرة الغريبة فوجدتها تزيد على الذراعين.

ومرة أخرى لمست نقصاً في هذه الحديقة وهي قلة الجسور فوق نهر إيفون الذي يشقها لأننا ظللنا برهة من الوقت ونحن نسايره نبحث عن جسر نقطعه عليه لنخرج إلى حيث سيارتنا عند باب الحديقة.

وعلى ذكر الحديقة وما جره ذلك من حديث عن حديقة الحيوان التي لا أملك وقتاً لزيارتها أخبرني أهل هذه البلاد أنه لا يوجد في نيوزلندا حيّات سامّة، ولا أسود، أو ذئاب في الغابات، ولا يعرف أهلها هذه الوحوش إلا في

حديقة الحيوان.

جسر الادِّكار:

بجانب الحديقة جسر على نهر (إيفون) اسمه (إبرج أوف ريممبرانس) أي: جسر الادكار، وذلك أنهم أقاموا فوقه قوساً نقشوا عليه أنه لذكرى الذين قتلوا أثناء الحرب العالمية الثانية من أهل نيوزلندا في فلسطين، ومصر، و(جاليبولي).. و(مسروتاميا)، وفرنسا، وبلجيكا، وإن كانوا ذكروا أن هذا القوس أقيم قبل ذلك، وقد وضع الحجر الأساسي له في ٢٣ إبريل عام ١٩٢٣م.

ويقع هذا الجسر بين السوق الرئيسية، أو القلب التجاري للمدينة وبين الحديقة، وقلبه سوق تجاري مغلقة عن السيارات، ومخصصة للمشاة، وكانت قبل ذلك شارعاً معتاداً.

وقد غرسوا فيه أشجاراً من أشجار الظل، ونثروا فيه مقاعد من العصي - إن صح التعبير - لأنها شرائح من الخشب تشبه العصي، قد لويت على هيئة نصف دائرة ليجلس عليها من يتعبون من التسوق أو السير في هذا السوق، وهي ملتفة حول جذوع الأشجار.

ولم نجد أحداً في السوق لأن جميع الحوانيت فيه مغلقة رغم الوقت المبكر، ونحن الآن في السادسة عصراً، وهم يغلقون عادة في الخامسة رغم أنه يكون قد بقي على غروب الشمس هذا اليوم نحو أربع ساعات؛ إذ هي تغرب في نحو التاسعة.

وهذا يوضح موقع البلاد الذاهب بعيداً جهة الجنوب حيث يطول النهار جداً في الصيف، ويقصر جداً في الشتاء.

وأخبرونا أن من عادتهم أن تتناوب المدينة مع ضواحيها فتح الحوانيت، وسائرها تغلق في الخامسة، ولكن جهة من جهاتها تبقى الحوانيت فيها

مفتوحة حتى التاسعة لكي يجد فيها من يتسوقون متأخرين حاجتهم، وذلك في أيام من الأسبوع مقسومة فيما بينها.



المؤلف في قلب مدينة كرايست تشيرتش

وعندما رأيت رجال الشرطة يتمشون في هذا السوق الخالي من الناس، ذكرت رجال الشرطة في لندن، فلم أجد بينهم أي فرق في اللباس، ولا في الألوان، ولا حتى في المشية، حتى ليخيل للمرء أن المسافات بين جناحي الأرض الأبعدين: وهما الجنوب والشمال قد طويت حتى لامست نيوزلندا شواطئ الجزر البريطانية.

بل كدت أقول: إن نيوزلندا هذه هي جزر بريطانية أخرى في جنوب الأرض حافظت على عادات الإنكليز أكثر مما حافظ عليها سكان المدن الكبيرة في الجزر البريطانية الأوربية.

ونحن في وسط المدينة، ولم نتجول فيه لضيق الوقت إلا أن أكثر ما فيه ظهوراً هو كنيسة ذات برج عالٍ ضخم الأسفل، دقيق الأعلى يشبه شكل مخروط.

ورأيت حانوتاً كبيراً مليئاً من خلال واجهته الزجاجية بجلود الخراف النيوزلندية الشهيرة، وهي ذات شعر كالوبر أبيض ناعم، وليست على كل الخراف، ويتزود منها من يزورون نيوزلندا لأنها من الطرف التي تجلب منها.

لقد هان لحم الغزال:

كان موعد الفقرة التالية من برنامجنا هو تلبية دعوة الدكتور صالح السماحي على مائدة العشاء التي أقامها لنا في السابعة في هذا الفندق، ولا نقول من هذه الليلة؛ بل نقول من أصيل هذا اليوم؛ لأنه رغم بلوغ الساعة السابعة مساء فإنه قد بقيت من النهار بقية صالحة تصل إلى نحو الساعتين.

كانت المأدبة في مطعم الفندق نفسه (تشاتو ريجنسي) لأنه أفخر الأماكن في المدينة، ولذلك عندما أردنا الدخول سألتنا موظفة المطعم عما إذا كنا حاجزين، لأنه لا يستطيع أن يجد فيه مائدة إلا من حجزها مقدماً لشدة الإقبال عليه، مع أن الفندق فيه مطعمان.

وكان من الأشياء اللافتة للنظر في قائمة الطعام (لحم الغزال)، وبادرت بطلبه بطبيعة الحال لما في أذهاننا - نحن النجديين - عن لحم الغزال من طيب ونفاسة، وبخاصة إذا تذكرنا ما كان يبذله آباؤنا وأجدادنا من جهد ووقت في صيد الغزلان والظباء، وما ينظمون من أشعار في ذلك، وأذكر أن جدي عبد الرحمن العبودي كانت له أشعار عديدة في ذكر صيد الظباء، ذكرتها في كتاب: ((شعراء العامية في بريدة)) الذي لا يزال مخطوطاً.

ولكن عندما ذكر لنا الإخوة هنا أن الغزلان تربى في مزارع نيوزلندا، وقال أحدهم: إن الإحصائيات ذكرت أن لديهم مليون غزال للتربية، وقال

آخر: بل هي أكثر من ذلك، وهي من الغزلان ذوات القرون التي تقترب من الأيائل - جمع أيِّل -، ويربونها بقصد استغلال قرونها حيث يصدرونها إلى بلاد الشرق الأقصى: إلى سنغافورة مثلاً، وتصدر منها لاستعمالها دواء في البلدان الشرقية عن أوربا، ولو كانت بالنسبة إلى نيوزلندا بلاداً غربية أو شمالية غربية.

ولما استكثرت هذا الرقم الذي ذكروه للغزلان التي يربونها هنا ذكر الإخوة الرقم الرسمي لعدد الضأن في نيوزلندا، وهي الخروف والشاة عندهم وهو تسعون مليون رأس من الغنم، تضاءل عندي رقم المليون غزال.

ومع ذلك قلت في نفسي: لقد هان الغزال حينما أصبح لحمه يباع في المحالّ، ويعرض مع لحم الأبقار والحملان؛ بل هان عندهم حتى صار سعره فيما أخبرونا أقل من سعر لحم البقر الممتاز وإن كان أرفع من لحم الضأن، لأنه - فيما يقولون عنه - أكثر صلابة من لحم البقر.

ومع ذلك فإنهم عندما أحضروه لي وجدت له طعماً خاصاً، ووجدت - بالفعل - فيه صلابة؛ لكنها لم تفقده نكهته الخاصة؛ فضلاً عن النكهة التي أضفاها عليه الخيال.

حضر المأدبة طائفة من الإخوة أعضاء الجمعية الإسلامية، والأخ الدكتور مزمل حسين الصديقي رئيس المركز الإسلامي في لوس إنجلوس في ولاية كاليفورنيا الأمريكية، وهو من تلاميذي في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وكان من أوائل المتخرجين فيها، إذ كان ضمن الدفعة الأولى من الخريجين في عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

الصلاة في المسجد الجديد:

استغرقت المأدبة ساعتين إلا ربعاً، توجهنا بعد ذلك في التاسعة والربع إلى المسجد الذي يقع قريباً من الفندق، وأذنوا لصلاة المغرب في التاسعة إلا ثمان

دقائق، وصليت بهم في تمام التاسعة.

ثم قدمني الأخ الدكتور السماحي للمصلين الذين كان عددهم لا بأس به بالنسبة إلى قلة المسلمين في هذه البلاد، وقد حضر الصلاة طائفة من الإخوة الماليزيين الذين يطلبون العلم في هذه البلاد النيوزلندية، وذكروا لي من تمسكهم بدينهم، وحرصهم على أداء صلاة الجماعة في المسجد ما أعجبت به، وألقيت فيهم كلمة ترجمها الدكتور السماحي إلى الإنكليزية.

ثم عقدنا جلسة للمذاكرة في أمور الدين مع هؤلاء الإخوة الصالحين وهم الذين لم تلههم مشاغلهم عن العمل لأمور دينهم، وسوف أذكر في ختام الحديث عن الزيارة لمدينة (كرايست تشيرتش) كيف بدأت الحركة الإسلامية متأخرة فيها، ولكنها نمت حتى توجت ببناء هذا الصرح الشامخ.

وقد شملت المذاكرة استفتاءات وبحوثاً متعددة في شؤون من شؤون دينهم أهمهم أمرها، وأرادوا أن ينتهزوا فرصة وجود أخ لهم قادم من مكة المكرمة ليعرفوا الحكم الصحيح فيها.

واستمرت الجلسة إلى الساعة العاشرة، وعدت إلى الفندق قبل صلاة العشاء؛ حيث كانوا أخبروني أن وقتها عندهم يدخل في العاشرة والنصف، ولكنني أعتقد أنه يتأخر عن ذلك كثيراً؛ لأن الشفق في مثل هذه البلاد البعيدة عن خط الاستواء، أو إن شئت قلت: القريبة من القطب نسبياً؛ إذ هي تقع على خط العرض (٤٥) درجة جنوباً، يمتد وجوده فترة أطول منه في بلادنا وأمثالها غير البعيدة جداً عن خط الاستواء، والتي يكون متوسط وجود الشفق فيها بعد غروب الشمس نحو الساعة والنصف، أو ما يقل قليلاً عن ذلك، وذلك لكوني لم أنم ليلة كاملة في الفراش منذ مغادرة المملكة بسبب مواصلة السفر.

يوم الجمعة ١٧/ ٣ / ١٤٠٦هـ - ٢٩/ ١١ / ١٩٨٥م.

جولة في كرايست تشيرتش:

اسمها من اسم المسيح ﷺ، فكرايست: مسيح، وتشيرتش: كنيسة، فهي إذاً: مدينة كنيسة المسيح كما أسموها. ومع ذلك فإننا حضرنا لنفتتح فيها - ولله الحمد - مسجداً طاهراً اسمه (مسجد كرايست تشيرتش)، ولو ترجمنا العبارة ترجمة حرفية لصار اسمه: (مسجد كنيسة المسيح).

يبلغ سكان هذه المدينة مع ضواحيها ثلثمائة ألف نسمة، وتعتبر المدينة الأولى في الجزيرة الجنوبية التي تؤلف مع الجزيرة الشمالية دولة نيوزلندا إلى جانب بعض الجزر الأخرى الصغيرة التي ليست لها أهمية كبيرة.

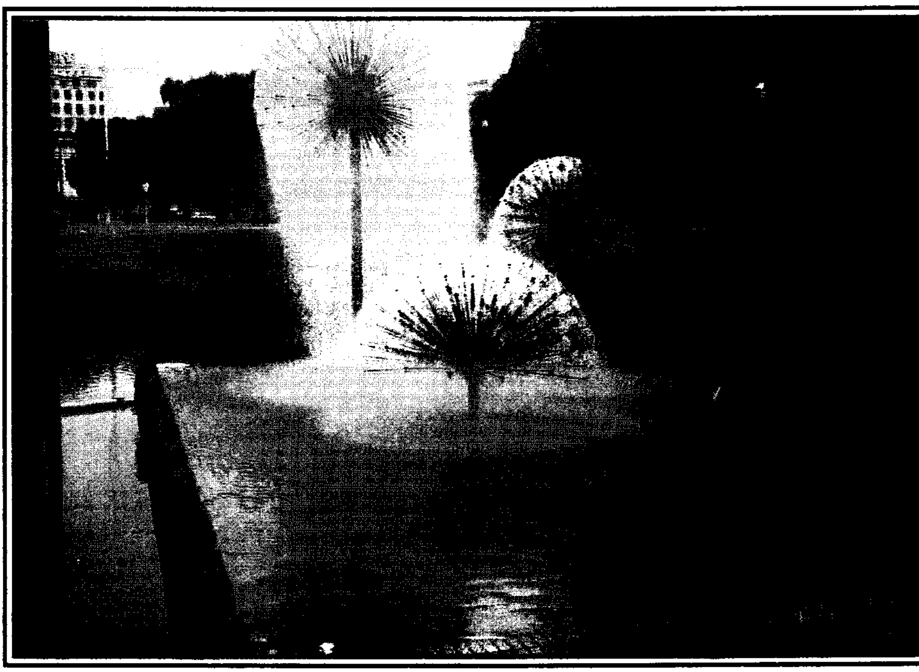
والجزيرة الشمالية فيها المدينتان المهمتان في نيوزلندا، وهما: (أوكلاند) أكبر مدنها، و(ويلنقتون) عاصمتها.

طلبت من الإخوة أن يغيروا مرافقي الأخ الصموت (خير الدين بن علاء الدين) بآخر يعرف المدينة أكثر، وبخاصة أنني سألت الأخ خير الدين البارحة عن هضبة كشمير الواقعة غير بعيدة من المدينة فذكر أنه لا يعرفها، وقد أرسلوا إليَّ الأخ النبيه (عمر مهيار) وهو فلسطيني يدرس الهندسة المدنية لما بعد الدراسة الجامعية على نفقته الخاصة.

وركب معنا الأخ الدكتور مزمل حسن الصديقي، فمررنا بأقسام من حديقة (هاقلي بارك) التي هي كهايد بارك التي يراها المرء ممتدة إلى عدة أحياء؛ بل أجزاء رئيسية من مدينة لندن.

وفي هذه الساعة من ساعات العمل، وهي التاسعة والنصف، كان عدد السيارات في شوارع المدينة متوسطاً، فهو ليس بالكثيف ولا بالقليل، وأكثر السيارات هنا يابانية مع أن القياس أن تكون بريطانية لروابطهم القوية ببريطانيا التي لا تزال ملكتها تعين حاكم نيوزلندا، وعملتهم حتى الآن تحمل

صورة ملكة بريطانيا ، ولكن بعض السيارات اليابانية تجمع أجزاؤها في هذه البلاد ، فتقل تكلفتها ، وإلا فإن السيارات غالية لارتفاع المكوس والضرائب عليها.



نافورة قاعة البلدية في كرايست تشيرتش

قصدنا تواً قلب المدينة ، فمررنا بقاعة البلدية التي يسمونها (تاون هول) ، وتقع على شاطئ نهر إيفون مباشرة ، وفي منطقة جميلة ومجملة ، من ذلك أنهم صنعوا في مقدمتها نافورة على شكل زهرة دوار الشمس.

الميدان الرئيسي :

وغير بعيد من ذلك يوجد الميدان الرئيسي للمدينة ، مخصص للمشاة ، وتدور حوله السيارات ، وفيه الكنيسة التاريخية الأولى في المدينة ، وكلمة تاريخية هذه لا تعني كثيراً بالنسبة إلى البلدان العريقة مثل بلادنا العربية ،

لأنه لم يمض قرن ونصف على ابتداء العمارة الحديثة؛ بل دخول المدنية إلى كل أنحاء البلاد.

فهذه الكنيسة بنيت في عام ١٨٨٤م، ومع ذلك يعتبرونها تاريخية من أقدم الأماكن فيها إن لم تكن أقدم الأبنية على الإطلاق.

قبل المسجد بمائة سنة:

وقد لطف أحد الإخوة المرافقين بقوله: إن هذا معناه أن المسجد بني بعد الكنيسة بمائة سنة. فقلنا: إن هذا يعتبر فتحاً لأن المسلمين الموجودين في هذه البلاد كلها، وبخاصة في كرايست تشيرتش هم قلة عددية لا تزيد على عشر الواحد في المائة، أو ٠١٠ ٪، ومع ذلك بنوا المسجد، ودخول الإسلام إلى هذه المدينة الذي معناه استيطان المسلمين فيها لم يمض عليه إلا سنوات معدودة، وقد جاء المسلمون مستوطنين وطلاباً للعلم بأعداد قليلة، وتحت ذمة أهل البلاد بموجب أذون للدخول؛ بخلاف دخول المسيحيين الذين جاؤوا إليها فاتحين بسلاحهم ورجالهم المدربين، وهم يمثلون إمبراطورية لم تكن تغيب عن ممتلكاتها الشمس، وقد حضر في كنفهم دعاة المسيحية، والمتفرغون لنشرها.

وإذا قسنا المستقبل بالحاضر فإننا نرجو أن يكون مستقبل الإسلام وضاء في هذه البلاد، وأن يهدي الله طائفة من أهلها للدين الحنيف.

هذا ويسمى الميدان (كرايست تشيرتش سكوير) أي: ميدان كرايست تشيرتش.

ذكروا أن من العادة أن يحضر الشعراء إلى هذا الميدان يتبارون في إنشاد أشعارهم.

وتذكر بعضنا بهذه المناسبة كثيراً من الكتّاب النيوزلنديين المشهورين

الذين هم في الحقيقة من البريطانيين ممن سكنوا هذه البلاد، وأقاموا فيها فترة، وتصورنا أن من أسباب إبداعهم في كتاباتهم هدوء هذه البلاد، وانعدام الاضطرابات السياسية فيها، وقلة المشكلات الأخرى فيها.

ومن ألطف المناظر في هذا الميدان منظر طيور النورس الجميلة وهي تمشي مشية القطا، وقد اختلطت وهي الطيور البحرية بالعصافير الدورية، فكانت الصورة جميلة أردت التقاطها لولا أن كلبين مرحين أفزعا الطيور فولت الذيول.

واستمرت الجولة في وسط المدينة، فمررنا بمبنى قديم ربما يرقى عمره إلى الثمانين سنة، وفيه مركز المعلومات لمقاطعة (كنتربري) التي عاصمتها هذه المدينة، ويلاحظ هنا أن اسم المقاطعة وعاصمتها منقولان كلاهما من تسميات في بريطانيا نفسها، وتقابله المكتبة العامة في مبنى جليل، ومظهر عظيم، وأخبرني الأخ عمر مهيار الذي هو أحد روادها بسبب حاجته إلى ذلك في الدراسة أنها حافلة بالمراجع المهمة في سائر العلوم، إلا أنه لاحظ أن الكتب التي تتحدث عن الإسلام والمسلمين فيها أكثرها مليء بالأغلاط؛ بل بالأكاذيب والافتراءات، وأن الأمر يحتاج إلى إيصال كميات من الكتب التي تبرز الإسلام على وجهه الصحيح، وبخاصة بالإنكليزية لغة البلاد.

ثم مررنا بمتحف يلوح القدم النسبي - أيضاً - على مبناه، ذكروا أنه متحف مهم، ولكن وقتنا لا يتسع لدخوله والاطلاع على ما فيه.

ثم سلكنا سوقاً تجارية في منطقة تسمى: (مانشستر) على اسم المدينة البريطانية مانشستر، والتسمية بالأسماء البريطانية هنا شائعة؛ بل كثيرة، ومن ذلك أن هنا مكاناً يسمى: (برايتون) على اسم المدينة المشهورة برايتون على ساحل بريطانيا.

وعندما كنت في حي مانشستر هذا لم أجد أي فرق ما بينه وبين

الأحياء المتوسطة في لندن، فالمتاجر واللافتات فوقها، والبيوت القريبة منها هي هي البريطانية اللندنية لم تتغير، وحتى الناس الذين فيها هم البريطانيون كما تتراءى أشكالهم للبصر.

إلا أنهم هنا ليس بينهم أخلاط من الناس، فلا تكاد تجد أسود واحداً، وإنما ترى بعض السمر على قلة، وهم من سكان البلاد الأصلاء الذين كانوا فيها قبل وصول البريطانيين واستيطانهم فيها، وهم كثرة في أوكلاند، وإن لم تكن لهم الأغلبية فيها، أما في (كرايست تشيرتش) فإن عددهم قليل، وربما كان ذلك بسبب برودة الجو.

وسكان الجزر الجنوبية من الماوري على قلتهم يغلب البياض على ألوانهم، أو لنقل تقل السمرة فيها، وذلك بسبب موقع الجزيرة البعيد عن خط الاستواء واختلاطهم أو بعضهم بالأوربيين بالتزاوج.

إلى المركز الإسلامي:

قالوا لي: سنذهب إلى المسجد القديم، ثم استدركوا قائلين: إننا سنذهب إلى المركز الإسلامي القديم، لأنه ليس مسجداً ذا منارة أو قبة، بل ليس فيه ما يميزه عن المنازل الأخرى المجاورة له.

ويقع في ضاحية من المدينة على شارع يسمى (توام) بيوتها كلها من طابق واحد ذات مقدمات من الحدائق.

وهو منزل معتاد اشتراه الإخوة المسلمون هناك أي بعد تأسيس الجمعية الإسلامية في كرايست تشيرتش.

وصاروا يصلون فيه إلى أن يسر الله لهم عمارة هذا المسجد الجديد الذي سيفتتحونه رسمياً في هذا اليوم.

وجدتهم كتبوا على باب المسجد معنى الآية الكريمة باللغة

الإنكليزية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ دون أن يذكروا نصها العربي.

ويقولون إنهم الآن سيبقونه في ممتلكات الجمعية الإسلامية حتى ينظروا في أمره إما بإبقائه لهم وتأجيره والانتفاع بأجرته للصرف على ما يحتاجه المسجد الجديد، أو يبيعونه، أو يبقونه مسجداً بحيث إذا كثر المسلمون في المنطقة واحتاجوا إلى مكان للصلاة وجدوه جاهزاً، وعلى كل حال فإن كل هذه الأمور جائزة، لأن المسجد يجوز نقله إلى مسجد آخر إذا ما هجره المصلون بحيث عطلت الصلاة فيه.

إلى هضبة كشمير:

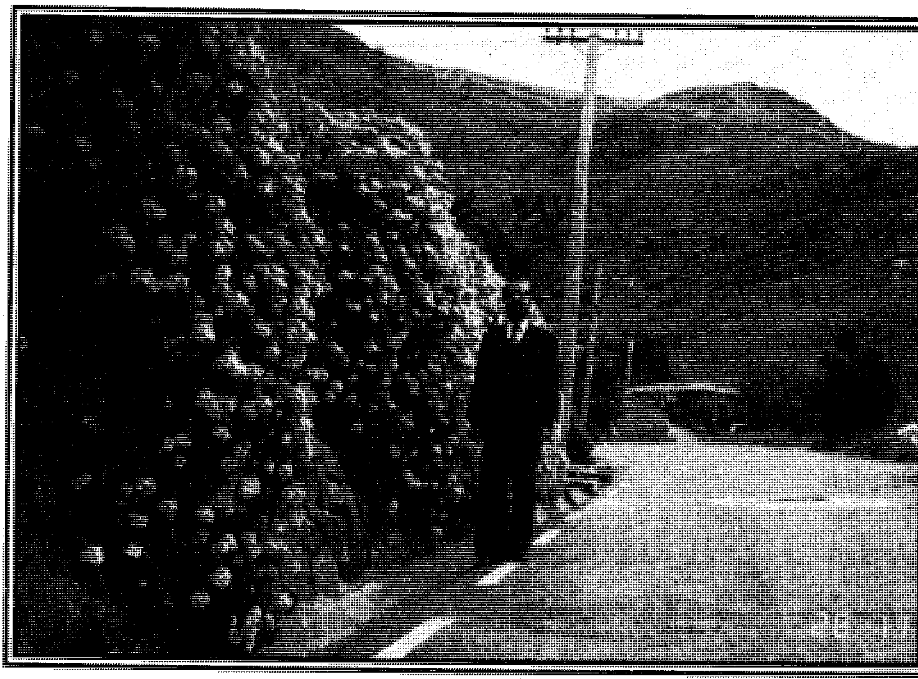
وإن شئنا الدقة في التعبير قلنا كما يقولون في لغتهم: إلى تلة كشمير، إذْ يسمونها بالإنكليزية: (كشمير هل).

ولكشمير منزلة خاصة في نفسي، فقد زرتها أكثر من مرة، وكتبت عن ذلك كتاباً بعنوان: ((سياحة في كشمير)) ورأيت أن تلك البلاد المسلمة الجميلة قد وقعت بين براثن الهنادكة المتعصبين، ففصلوها عن البلاد المسلمة الأخرى، واستغلوا الغفلة أو التغافل إن لم يكن التكاسل والركون إلى الدعة والسكون لدى زعماء المسلمين في العالم حتى ابتلعوها أو كادوا.

و(كشمير هل): ضاحية حديثة من ضواحي مدينة (كرايست تشيرتش) إلا أنها تكاد تكون منفصلة عنها إذ تفصلها ضواح ذات بيوت واطئة متباعدة، وتباعد البيوت في هذه الضواحي هو الأصل، إذْ يتملك المرء أرضاً واسعة هي في أصل خلقتها حديقة ملتفة، فيزينها - وقد زينها الله قبله - بزهور إضافية، وبتنسيق في أشجارها.

وأكثر هذه البيوت من الخشب، وذلك لرخص الأخشاب عندهم وسهولة

ترميمها، ولكنك إذا رأيتها على البعد لم تشك في أنها من الإسمنت، لأنها مدهونة بأدهنة كاملة مختلفة الألوان، ويغلب اللون الأبيض على الجدران الخارجية للبيت حتى يعطيها شبهاً بالأبنية الإسمنتية.



الطريق المزهر إلى هضبة كشمير

وصلنا إلى ضاحية كشمير، وهي جميلة الموقع، متفرقة البيوت، ومع ذلك فإن شوارعها الممتدة ذات أرصفة جيدة كما تكون الأرصفة في الأحياء المكتظة بالسكان، المتلاصقة المنازل، أو هي أحسن من ذلك، وشوارعها مكتملة في إشارات المرور البيض على أرض الشوارع وبيان الاتجاهات على اللوحات الإرشادية المنصوبة على مفارق الطرق.

وجميع شوارعها، بل جميع بيوتها محاطة بأشجار زاهية، ومزدانة بزهور بهيجة، لاسيما مع كون هذا الفصل هو فصل الربيع.

وتطل على هذه الضاحية تلال جبلية مجللة بالخضرة، وقد تفتحت أزهارها البرية إلى جانب الأزهار المستنبتة على أطرافها، وهذه التلة هي التي سميت الضاحية باسمها: (تلة كشمير)، وذلك لجمالها وشبهها ببعض التلال الكشميرية. والبيوت كلها من طابق واحد.

وتبعد أقصى نقطة فيه خمسة عشر كيلو متراً عن قلب مدينة (كرايست تشيرتش)، ومع ذلك تختلف طبيعتها من حيث كونها تلالاً خضراً على حين كون المدينة القديمة واقعة في أرض مستوية.

أعمال جليلة:

ولقد عجبت من عناية القوم بتجميل هذه الضاحية التي تقل فيها البيوت، وتتناثر متباعدة إلى مسافات بعيدة حتى إنك تجد بيتاً يفصله عن البيت المجاور له أكثر من مائتي متر، ومع ذلك قد خدموها خدمة عظيمة بسفلتة شوارعها وتزيينها بالزهور وأشجار الزينة، وإرشادات الطريق، والأرصفة الكاملة.

ولقد زاد من عجبي حينما خرجنا من هذه الضاحية مع طريق عريض جيد الزفلتة قادنا إلى نفق طويل تحت جبال مرتفعة، وامتد كيلو مترين كاملين أفضى بنا إلى البحر حيث يوجد مرفأ طبيعي رائع المنظر.

وقلت في نفسي: لو كان هذا النفق عند قوم يحسنون الفخر كما يحسنه نفر من بني قومنا، بل ربما لا يحسنون شيئاً مثل ما يحسنونه، لملؤوا الدنيا به فخراً، ولأشاعوا لذلك ذكراً.

على أنهم لن يشقوا مثله إلا في مدينة كبيرة، أو على موقع يشاهده من يذهب أو يجيء لكي يراه، ولا ينسى الفخر بمن بناه.

وأما هؤلاء القوم فإنهم شقوا هذا النفق، وأبدعوا ما شاء لهم الإبداع في

تزيين هذه الضاحية وتجميلها في منطقة نائية حتى عن قلب المدينة لا يصل إليها إلا من يكون له غرض فيها، ثم إن شاطئ البحر الذي أفضى إليه النفق هو محاط بتلال جبلية رائعة المناظر قد جللتها الأزهار، وظللتها الشجار، وتناثرت فيها البيوت حتى تكاد تقول إنه ليس فيها بيوت.

مرفا المدينة:



قرب مرفأ مدينة كرايست تشيرتش

ووقفنا فوق تلة من التلال التي تطيف بهذا المرفأ الطبيعي الذي فيه الميناء في شبه دائرة، وصرت أتأمل التلة وقد ارتدت متونها بزهور صفر برية جميلة، وهي برية وبريئة براءة الطفولة، أو هكذا خيل إليّ أنها تبتسم وهي تطل عليّ من أكتاف هذه التلال التي حباها الله من الجمال، ما يسر للإنسان المحب للجمال أن يتفنن في تجميلها، بل تكميلها.

ثم درنا مع سفوح هذه التلال الجميلة مع طريق إزفلتية غير واسعة تطيف

بالمرفأ الطبيعي، ونحن نتأمل جماله، ونستجلي أحواله، حتى وقفنا فوق ربوة منها تطل على مياه من البحر مليئة بقوارب النزهة قد ربطوها في هذه المياه كما تربط الخيل في الرياض.

والتقطت من هذه الصورة الجميلة حتى ظن رفقائي أنني قد أسرفت، وقد أشركتهم بالتصوير، وليس هذا عليهم بكثير.

إلى ناحية أخرى من الريف:

عدنا إلى ولوج النفق الطويل، ثم اخترقنا أطراف ضاحية كشمير حيث خرجنا إلى مناطق ريفية ذات بيوت قليلة متباعدة أشبه ببيوت الفلاحين لولا تباعدها أكثر من ذلك، وهي ذات أصباغ زاهية جميلة حتى لتنافس في جمال ألوانها ألوان الزهور، وقد ازدانت بعض سفوح التلال بزهور برية زاهية.



العجوز مع طفلها وهي تطعم طيور النورس

وقطعنا نهر (إيفون) من هذه الناحية، وهو نهر مدينة كرايست تشيرتش، ومررنا بمدرسة قد انتثر فيها أطفالها البيض بين الأعشاب كما انتثرت طيور النورس البيض على ضفة النهر.

وواصلنا السير إلى طريق في حضن جبل يطل على البحر، وهو غير الذي رأيناه من قبل، بل هو من ناحية أخرى، حتى أسهل الطريق مع الشاطئ، وهناك رأيت عجوزاً مع طفل صغير ربما كان حفيدها، أو حفيد أحد أقرانها، وهي تطعم طائفة من طيور النورس قطعاً من الخبز فتتطاير (النوارس) وتتسابق في اقتناص الفتات، فكانت صورة لطيفة التقطتها بسرعة.

ثم انصرفنا لرؤية صخرة واحدة منفردة على شاطئ البحر فيها عدة مغارات إحداها مما يلي أرض الشاطئ يخاض ماء البحر للدخول إليها، والبقية مغارات في عرض الصخرة نفسها. واسم المنطقة هذه (سمنر).



المؤلف ترفرف حوله طيور النورس على شاطئ البحر قرب مدينة كرايست تشيرتش

العودة إلى الفندق:

كان أحد الإخوة أخبرني أن صلاة الجمعة تكون هذا اليوم في الساعة الثانية على خلاف العادة؛ إذ كانوا يبدؤون الصلاة في الواحدة والنصف، ولكنهم سيؤخرونها نصف ساعة حتى يتمكن جميع الإخوة المسلمين من الحضور، وأن حفل افتتاح المسجد سيكون في الثانية والنصف.

وكانت عودتنا إلى الفندق في الواحدة، فوجدنا الوقت يتسع لتناول طعام الغداء في المطعم الفاخر في الفندق، فذهبت أنا والدكتور مزمل حسين الصديقي، ولكن الموظفة استقبلتنا هذا اليوم بما استقبلتنا به البارحة وهو قولها: هل لديكم حجز سابق في المطعم؟

فأخبرناها أننا من النزلاء في الفندق، وهم لا يطلبون منهم ان يحجزوا، فوجدت مائدة خالية بعد لأيٍ، وكان المطعم مليئاً بالفعل برواد كلهم من ذوي اللون الأبيض المشرق بسبب الجو البارد في هذه البلاد.

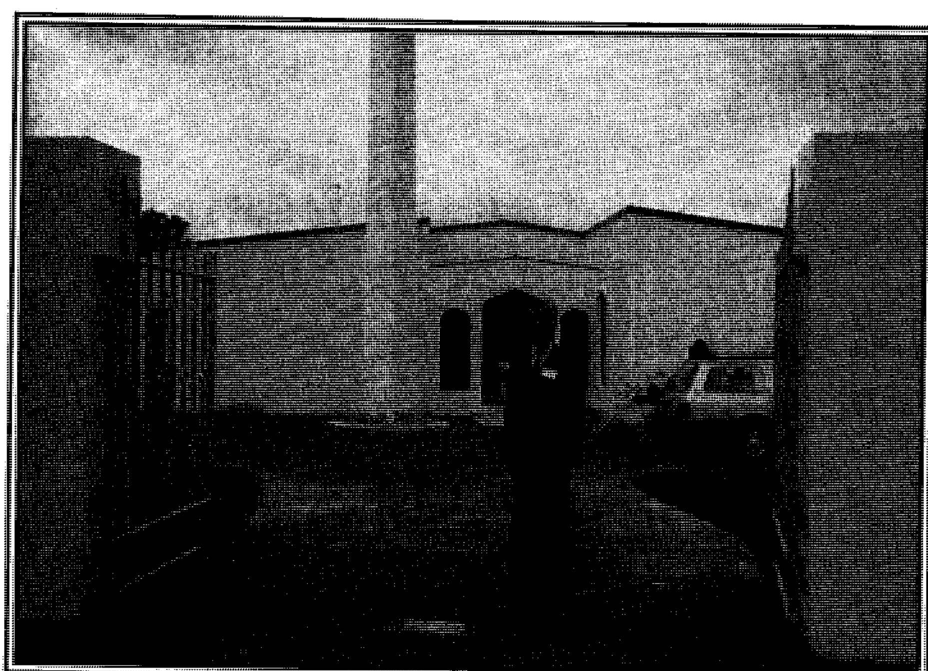
وجاؤوا بالغداء وفيراً فيه من شواء البقر المختار من لحمها ما يلذ منظره، ويهنأ مخبره.

وبينما كنا على وشك الانتهاء جاء الأخ (عمر مهيار) يقول لقد بدأ الرجل في الخطبة، وكانوا ذكروا لنا من قبل أمر رجل باكستاني يصر على أن يصلي بهم إماماً، وأن يكون هو الخطيب، وإذا صلى غيره لم يحضر الصلاة بحجة أنهم من العوام في أمور الدين، وإن كانوا من المتعلمين ذوي الشهادات، ولم يمتثل أمرهم بتأخير الصلاة، فأسرعنا ركضاً إلى المسجد، ولم أستطع أن أغير الملابس الإفرنجية بالعربية، وكنت قد أحضرتها معي وبخاصة العباءة، لا لشيء إلا لهذه المناسبة العزيزة عليَّ، ولكن خشية فوات الصلاة أنستني كل شيء إذْ كيف آتي من أقصى الدنيا لأؤدي صلاة الجمعة في هذا المسجد الجديد، في هذه الدنيا التي تكاد تكون جديدة، وتفوتني

صلاة الجمعة فيه؟

وأدركنا الإمام يخطب - هداه الله - ولم يكن أحد من أولي الأمر من المسلمين الذين يمثلهم أعضاء الجمعية براضٍ عن فعله؛ بل كنا قد اتفقنا معهم البارحة على أن يؤم الناس في صلاة الجمعة هذا اليوم الدكتور مزمل حسن الصديقي، وكانوا عرضوا عليَّ ذلك فأبيته لأن لي في برنامج الاحتفال نصيباً أكبر من غيري، إذ يشتمل على كلمة ومحاضرة لي، ولم أرغب في أن أضيف إليها إمامة الجمعة، والدكتور مزمل حسين الصديقي كان إماماً في المركز الإسلامي في واشنطن في فترة من الفترات، ومتخصص في الشريعة الإسلامية.

الجمعة المشهودة:



المؤلف في فناء مسجد كرايست تشيرتش

اجتمع لحضور صلاة الجمعة التي ستعقبها حفلة الافتتاح عدد من الإخوة

المسلمين، ربما لم يجتمع من قبل، ومعهم عدد - أيضاً - من الأخوات المسلمات جئن مع أزواجهن أو أقاربهن لحضور هذه المناسبة الكريمة، وأكثرهن من أصل هندي، وفيهن مسلمات جدد من أهل هذه البلاد، أي من ذوي الأصول الأوروبية، وقد بلغ عدد الذين صلوا الجمعة نحو المائة، وهو عدد كبير بالنسبة إلى عدد المسلمين في هذه المدينة، بل في مقاطعة كنتربري التي عاصمتها هذه.

ولم يحضر أحد مما وراء البحار غيري وغير الأخ الدكتور مزمل حسين الصديقي الذي حضر من مدينة لوس أنجلوس وهي أقرب الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه المنطقة، وقربها هذا نسبي، إذ يسافر منها إلى (هونولولو) فجزر فيجي، ثم مدينة أوكلاند حيث يغير الطائرة إلى مدينة كرايست تشيرتش هذه، ويستغرق الطيران كله نحو ثلاث عشرة ساعة، على حين أن الطيران من المملكة إليها يستغرق نحو ١٧ ساعة.

كما حضر من داخل نيوزلندا بعض رؤساء الجمعيات الإسلامية النيوزلندية الخمس، ورئيس الاتحاد الإسلامي النيوزلندي، والأمين العام للاتحاد.

وكانت خطبة الجمعة معتادة لم يتطرق فيها الخطيب إلى هذه المناسبة، ولا إلى كيفية بناء هذا المسجد، وقد أدركته وهو يخطب بالعربية التي لا يحسنها المواطنون، ولا الإخوة الذين هم من أصل هندي، ولهم الأكثرية بين المسلمين في نيوزلندا.

الاحتفال الرسمي:

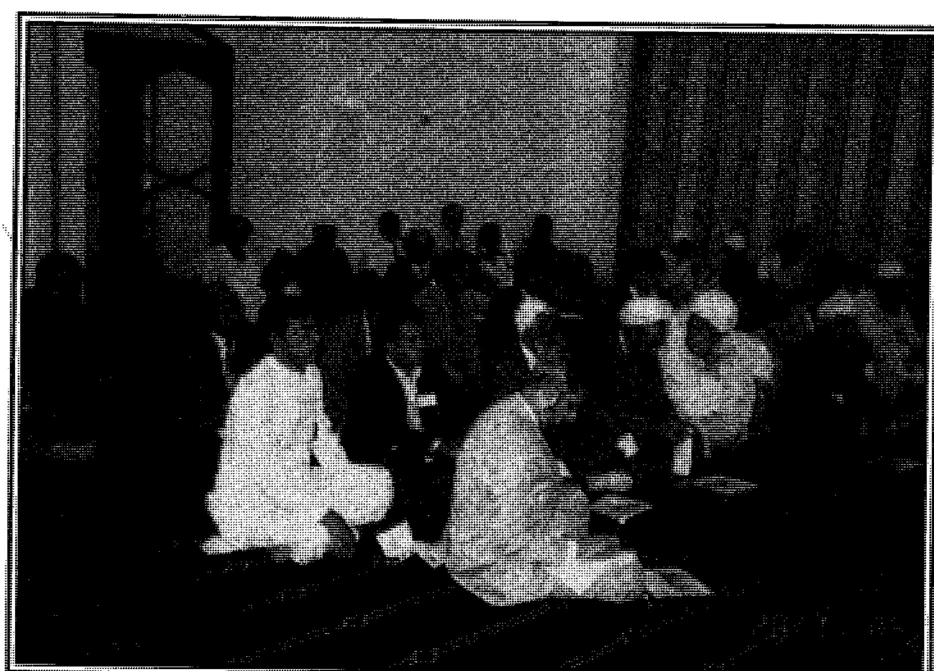
بدأ الاحتفال في الثانية والنصف كما كان مقرراً، وافتتحه الأخ عثمان وهو سوداني بتلاوة آيات مباركة من القرآن الكريم.

ثم ألقى رئيس الاتحاد الإسلامي النيوزلندي الأخ عبد الرحيم رشيد

كلمة الاتحاد ألقاها بالإنكليزية، وهي مختصرة تضمنت التنويه بهذا الحدث العظيم في تاريخ الإسلام والمسلمين في هذه البلاد النيوزلندية.

وبعد ذلك توالت الكلمات من رئيس الجمعية، والدكتور صالح السماحي عضو الجمعة

ثم جرى افتتاح المسجد رسمياً بالتكبير ثلاث مرات، والحمد لله تعالى على أن يسر هذا الخير العظيم الذي لم يكن أحد من المسلمين يحلم بأن يتحقق بهذه السرعة وهذه السهولة.



بعض المحتفلين بافتتاح مسجد كرايست تشيرتش
داخل المسجد بعد صلاة الجمعة

ولا شك في أن جهود الأخ الكريم الدكتور صالح السماحي لها أثر طيب في ذلك، فهو طبيب مبعوث من المملكة إلى هذه البلاد لكي يتمرن على دراسة بعض الأمراض في القلب، وقد نجح في ذلك، وحاز على زمالة الجراحين

الملكية كما قيل لي، ولذلك سمحوا له الآن بالمعالجة والجراحة في المستشفى الكبير الذي يتمرن فيه.

واجب المسلم في بلاد المهجر:

وكان هذا الموضوع هو الذي اقترحه عليّ الإخوة بأن ألقي فيه محاضرة، وأخبروني بذلك البارحة، ولم أكن أكتب محاضراتي أو كلماتي في العادة لذا ألقيت فيهم محاضرة مرتجلة لا تحتاج إلى تحضير، لأن هذه الأمور أصبحت هي الشغل الشاغل لي، وقد مرنت عليها، بل قتلتها خبراً.

وكانوا قد اقترحوا علي أن تستمر المحاضرة ساعة إلا ربعاً إلى ساعة واحدة، لأنه سيكون بعدها نقاش حول أسئلة كثيرة سيطرحها الحضور، ويطلبون سماع رأيي فيها.

وكان الدكتور صالح السماحي يترجم المحاضرة فقرة فقرة من العربية إلى الإنكليزية، وأما الأسئلة وأجوبتها فكان رئيس الجمعية الأخ (حكمت يوسف) هو الذي ينظم ذلك.

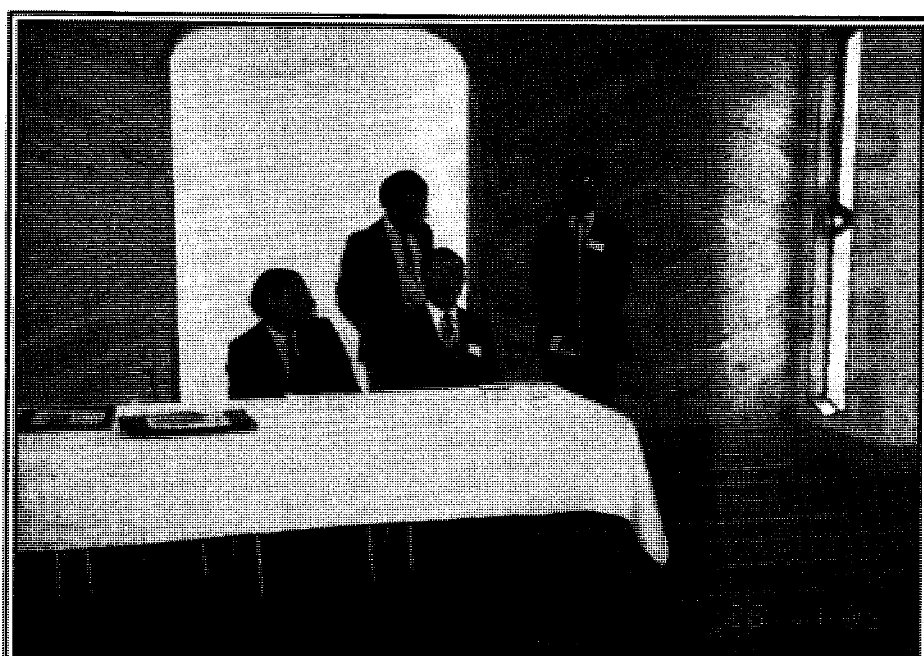
وقد تضمنت المحاضرة في أولها الحمد لله سبحانه وتعالى والشكر له على أن يسر لهؤلاء الإخوة الكرام بناء هذا البيت من بيوت الله في هذه البلاد البعيدة عن حواضر الإسلام التي لا يضرها ذلك؛ لأن الله تعالى معبود في كل مكان، قال تعالى: ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله... ﴾.

والحمد لله أيضاً حمداً مضاعفاً على أن يسر لي مشاركتكم في هذه الفرحة التي هي فتح مبين في تاريخ الإسلام والمسلمين في هذه البلاد، فكان أن أقيم هذا البيت الأول من بيوت الله الذي نسأل الله تعالى أن يجعله فاتحة خير، ومنطلق دعوة إلى ما وراء هذه البلاد من جهة الجنوب والشرق ليفتح به قلوباً غلفاً، ويهدي به نفوساً، وليجعل له دياراً، تصبح ديار إسلام فيما يأتي

من الأيام.

وأنتم أيها الإخوة الكرام الذين أسهمتم في الإعداد لإنشاء هذا المسجد العظيم، ثم عملتم حتى أصبح الحلم حقيقة، وصار المسجد ماثلاً للعيان، نسأل الله تعالى أن يجزيكم جزاء الصالحات من الأعمال، وأن يكتب لكم مثل أجر من صلى أو اعتكف في هذا المسجد من دون أن ينقص من أجره شيء على مدى السنوات الآتيات، وما يتلوها من الأوقات، إنه سميع مجيب.

ثم تحدثت عما ينبغي أن يكون عليه المسلم من خلق رفيع، ومعاملة كريمة، ومن صدق في القول، وإخلاص في العمل، وبخاصة في بلاد الأقليات المسلمة مثل هذه البلاد النيوزلندية، حتى يكون بعمله خير داع لدينه، وقدوة حسنة لكل من ينشد المثل العليا والحياة الفاضلة.



المؤلف أثناء إلقاء خطابه في جامع كرايست تشيرتش عند افتتاحه، وعلى يمينه الدكتور صالح السماحي واقفاً يترجم الكلمة

ووعدتهم بأننا في رابطة العالم الإسلامي سوف نتعاون معهم على أن يكون هذا المسجد بإذن الله منبر إشعاع روحي في هذه البلاد، فننظر في إرسال إمام داعية إليهم، ونرسل لهم شيئاً من المال للمساعدة على تسيير الأمور المالية فيه في المستقبل.

ثم أعلنت لهم في نهاية الكلمة عن تبرع رابطة العالم الإسلامي بعشرة آلاف دولار أمريكي إسهاماً منها في المساعدة على إكمال بقية مرافق المسجد.

وكانت هذه المحاضرة الرئيسية في هذا الاحتفال، وحضر أثناءها وبعدها قوم من المسلمين لم يستطيعوا الوصول وقت الصلاة لكونهم في بلاد أخرى، ولكن العدد كان لا يزال في جملته قليلاً بالنسبة إلى ما ينبغي أن يكون عليه في مثل هذه المناسبة السعيدة؛ غير أنه لم يلب دعوة الإخوة أحد من البلدان العربية غير رابطة العالم الإسلامي التي مثلت على مستوى عالٍ بالنسبة إليها، وذلك بحضور الأمين العام المساعد لها (كاتب هذه السطور)، وقد نوهوا بذلك، كما نوه الدكتور صالح السماحي بما ذكر أني قمت به لإيصال المعونة التي قررتها المملكة لهم، وهي ثمانمائة ألف ريال سعودي.

الأخت حليمة:

بعد أن انتهيت من المحاضرة أعلنوا فترة استراحة كانت مقررة في البرنامج لتناول الشاي.

وكانت فرصة للتعارف لم تسنح عند الدخول للمسجد لأن الخطيب كان عند ذاك يخطب، وقد قدموا لي أختاً كريمة هالني منظرها ومظهرها الخارجي، إذ هي متسترة كلياً، بل هي متحجبة ترخي الحجاب على جبهتها حتى لا يكاد يرى من وجهها إلا القليل.

وليس ذلك فحسب هو المهم - على أهميته في مثل هذه البلاد - وإنما

المهم أيضاً؛ بل الأهم أن هذه الأخت الكريمة كانت تخفض بصرها كما تفعل الفتاة العذراء عند الرجال الذين تحتشم منهم من أقاربها، فلا تكاد ترفع طرفها أو رأسها إذا كان أمامها رجل أجنبي مما لم أكن أرى له نظيراً عند المسلمات العريقات في إسلامهن، وفي البلدان الإسلامية نفسها، مع كونها نشأت مسيحية في بلاد متحررة، فنيوزلندا مثل أستراليا تعتبر المرأة فيها أكثر تحرراً من المرأة الإنكليزية التي تسكن خارج لندن.

فقد ذكرت أنها ولدت في بلدة (هاملتون) في نيوزلندا، ولقد ذكرتني ببعض النسوة المتحجبات المستحيات في مدينة بريدة، والشيء الأهم من هذا كله دلالة على صدق إسلامها، وعظيم إيمانها أنها وقد أسلمت على كبر، قد أخذت تتعلم العربية حتى استطاعت أن تقرأ القرآن من المصحف، وقد تلت عليّ من سورة النور، وكانت تضع أصبعها على الكلمات التي تتلوها تتابع التلاوة بذلك، فوجدت أنها تتقن معرفة الحروف وإن كان النطق ببعض الكلمات القرآنية يصعب عليها.

ثم أخذت المصحف منها، وفتحته من غير قصد لسورة معينة لأرى ما إذا كانت تقرأ عن معرفة بالحروف أو بطريقة الحفظ، فقرأت عليّ من سورة العنكبوت قراءة جيدة بالنسبة إليها مثل قراءتها الأولى.

والغريب الذي لاحظته أنها وهي تقرأ عليَّ في المصحف وأنا أستمع إليها لمجرد معرفة كيفية قراءة أخت مسلمة حديثة العهد بالإسلام كانت هي عكس ذلك تنتهز الفرصة لتسأل عن نطق بعض الحروف في مواقع معينة، وتتأكد من كيفية اللفظ بها، وتريد أن تستفيد من القراءة عليَّ.

وهذا عجب من العجب في كيفية الهداية لهذا الدين الإسلامي الحنيف الذي قصر أهله في الدعوة إليه، فقيض الله له جنوداً مجهولين عند الناس، مقربين من الله يهتدون إليه، ويدعون الناس إلى الإيمان به رغم قلة الأنصار،

ويعد الديار.

وذكر الإخوة - وهي تسمع - قصتها فقالوا: إنها ولدت مسيحية، ونشأت على ذلك، حتى إذا بلغت الرابعة عشرة من عمرها بدأت تشك في صحة الدين المسيحي، وتعتقد أنه لا يلائم العقل السليم، وظلت كذلك حتى بلغت الثامنة عشرة؛ حيث هداها الله إلى الإسلام، وأسلمت بالفعل، وذلك قبل ثلاث سنوات إذ عمرها الآن إحدى وعشرون سنة.

وأمنيتها الوحيدة أن تتمكن من الالتحاق بجامعة أم القرى في مكة المكرمة حتى تتفقه في الدين وتعمل - على ضوء ذلك - في الدعوة إلى الإسلام في هذه البلاد، وذكرت لي أنها هاتفت زوجة الدكتور عبد الله نصيف - الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي - أن تكلم زوجها الدكتور عبد الله عسى أن يعمل على إلحاقها بالجامعة في مكة المكرمة.

واسمها المسيحي (ديول بركات)، والاسم الإسلامي (حليمة بركات) وذكرت أن جدها مسيحي من لبنان.

أول مسلم ماوري:

وهذه القصة التي تهز الوجدان عن إسلام هذه الأخت المهتدية لها مثل آخر في أخ مسلم جديد قدمه لي الإخوة وسموه الأخ (مهدي) وقالوا: إنه أول مسلم هنا من الجنس (الماوري) وهم سكان نيوزلندا الأصلاء قبل أن يصلها الأوربيون، فهم هنا بالنسبة إلى هذه البلاد كالهنود الحمر بالنسبة إلى الولايات المتحدة غير أن الهنود الحمر كادوا ينقرضون لأنهم ذابوا في المجتمع بعد أن قضى المستوطنون ذوو الأصل الأوربي على قوتهم بالقوة.

أما الماوريون فإنهم لا يزالون موجودين، ولهم قبائلهم المعروفة ورؤساؤهم المعترف بهم.

والأخ الماوري المسلم (مهدي) هو أحمر اللون يميل إلى الشقرة، لأنه من الماورين الجنوبيين الذين يسكنون في الجزيرة الجنوبية من نيوزلندا وهي باردة الجو، يشبه جوها جو الجزر البريطانية، والماوريون فيها حمر الألوان يشبهون العرب الشماليين لولا أن لونهم الأحمر يميل إلى السمرة المشرقة بخلاف (الماوريين) من سكان الجزيرة الشمالية من نيوزلندا، وبخاصة في مدينة أوكلاند فإنهم سمر، أو دهم الألوان، وأكثرهم في لون العرب اليمانيين.

سألت الأخ المسلم الأول من الماوريين عن اسمه فأخذ ورقة كانت معي وكتبه كتابة جيدة باللغة العربية (مهدي)، فقلت له: -والكلام بالإنكليزية التي هي الآن لغة أهل هذه البلاد -: أريد أن أعرف اسمك قبل أن تسلم. فكتبه بالعربية أيضاً كتابة جيدة: (تيه هْوي هْيَو) وكان نطقه به نطقاً سريعاً غريباً، وتكررت الهاء في الكلمات الثلاث.

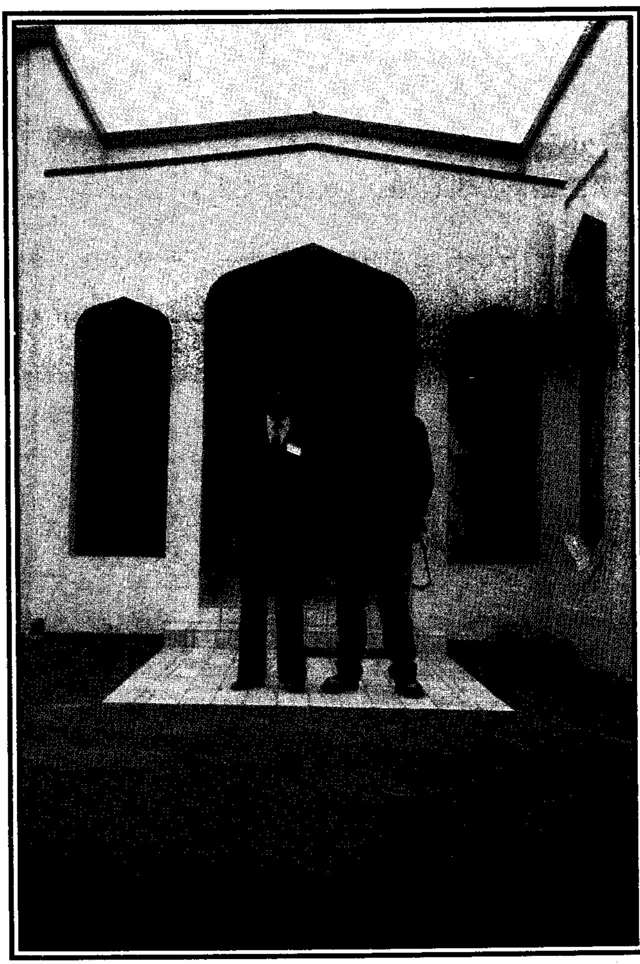
وقد تعلم الأخ (مهدي) العربية أيضاً حتى أتقن كتابة الحروف العربية، وما يزال يواصل التعلم مع بعض المهتدين الجدد إلى الإسلام من أهل البلاد، وفيهم بعض ذوي الأصول الأوربية.

وقلت له لأتأكد مما ذكروه لي عنه: أنت أول مسلم ماوري؟ فأجاب ممازحاً وهو يمد كتفيه ويرفعهما شأن من يزهو بقوته الجسدية: نعم، ولكنني كما ترى قوي، أعدل عشرة رجال. ثم عدل إلى الجد، وقال: نعم، أنا أول ماوري مسلم معروف في هذه الجزيرة الجنوبية.

ثم ذهب وذكرت أنه يستحسن أن ألتقط صورة معه، فوجدته يهم بركوب دراجة له نارية، وعلى رأسه القبعة التي يلبسها راكبو الدراجات في العادة، ويكون لها جزء أمامي يقي العين أشعة الشمس، وقطرات المطر أثناء القيادة، فكانت هذه الصورة له وهي عليه.

والواقع أنه يتوقع أن يستجيب عدد عديد من الماوريين إلى الإسلام إذا

وجد الدعاة الذين يحسنون مخاطبتهم لأنهم شعب أشبه بالمغلوب على أمره، وقد تلقوا الديانة المسيحية التي يعتنقونها الآن على أيدي المستعمرين الأوربيين الذين سهلوا للمنصرين القيام بعملهم، ومعنى ذلك أن أكثرهم قد يعتقد أنها ديانة غير أصيلة بالنسبة إليهم.



المؤلف مع الأخ مهدي أول مسلم ماوري

إلا أنه مما تنبغي ملاحظته أن بعض الماوريين، وبخاصة منهم سكان الجزيرة الجنوبية، قد اختلطوا بالأوربيين لكونهم يميلون للبياض، واعتنقوا

الديانة المسيحية.

وهذا بطبيعة الحال لا يمنع من توجيه الدعوة الإسلامية إليهم أسوة بالأوربيين الأقحاح في أوربا الذين أسلمت طوائف منهم، بل صاروا من الدعاة المخلصين للإسلام.

مأدبة العشاء:

بعد الاستراحة استمع القوم إلى محاضرة من أحد الموجودين استمرت بعض الوقت، ثم حان موعد العشاء في الساعة السابعة، وقد بقيت نحو ساعتين على غروب الشمس.

وكان جمع الإخوة يزيد من رجال ونساء، فكانوا عند العشاء أكثر وذلك بسبب إتاحة مزيد من الوقت لبعضهم للوصول.

وكانت الأيام السبعة التي سبقت وصولي إلى نيوزلندا كلها مطر وبرد لم يروا فيها الشمس إلا هذا اليوم كما ذكروا لي ذلك، ولهذا نصبوا خيمة كبيرة في فناء المسجد، ورصوا الموائد تحتها.

وتولت الأخوات المسلمات اللاتي أكثرهن من ذوات الأصول الهندية لأن المسلمين هنا أكثرهم من مسلمي الهند - في الأصل -، ونقول في الأصل لأن بعضهم لم يكن قدومهم إلى نيوزلندا من بلاد الهند مباشرة، وإنما كان عن طريق جزر فيجي؛ حيث يؤلف الهنود هناك نحو نصف السكان، منهم ٢٢ ٪ من المسلمين، أي من هذا النصف الهندي. و(فيجي) تعتبر نسبياً جارة لنيوزلندا لأنه لا يفصل بينهما إلاّ ما يزيد قليلاً عن مسافة ثلاث ساعات بالطائرة من مياه المحيط الهادئ.

ولكن الهنديات قد فارقتهن سمرة الهند المغبرة، وحلت محلها في هذه البلاد الباردة البعيدة عن خط الاستواء سمرة ندية إضافة إلى عيشهن وسط جو

نظيف في كل شيء.

إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يفارقهن هو محبة الفلفل الحار في الطعام، الذي رأيته يلاحق الأجيال من أهل الهند حتى في مهاجرهم، وإن يكن أقل مما هو معروف في الهند في الوقت الحاضر.

فقد كان طعام العشاء هندياً حاراً تصعب استساغة حرارته بالنسبة إليّ وأمثالي من الذين لم يتعودوا عليها... ولكنه كان شهياً لأنه مقام بمناسبة كريمة عزيزة على قلب كل مسلم، وهي مناسبة افتتاح هذا المسجد العظيم.

كان الشخص يضع في صحن من الورق المقوى ما يريده من الطعام اللذيذ الذي كان موجوداً في أوانٍ كبيرة متعددة من اللحم والخضرات والأسماك، ثم يذهب ناحية حيث شاء، فيأكله بيده حيث لا توجد ملاعق أو شوك، وهذا أيضاً مظهر من المظاهر الهندية إذْ لا يزال أهل الهند حتى المتعلمون منهم والمثقفون ثقافة عصرية، وحتى في مهاجرهم يتناولون طعامهم بأيديهم إلا في المطاعم الغربية.

والأمر الثاني أن العشاء الذي أنفقت عليه الجمعية الإسلامية وهي ذات موارد محدودة قد استعانت على صنعه ببعض الإخوة، ولم تستطع أن توفر موائد للطعام أو حتى مقاعد، فكان بعضهم يأكل وهو واقف كما هو المعتاد في الحفلات الغربية حينما يكون عدد المدعوين أكثر من الكراسي الموجودة. ولكن بعضهم آثر الجلوس على الأرض وأكل الطعام بالأيدي عليها.

وقد دعوا إلى حفلة العشاء عدداً إضافياً، وفيهم من كانوا عملوا في عمارة المسجد بمثابة المقاولين من غير المسلمين، ومنهم أخ مسلم من أصل أوربي قالوا إنه المهندس الذي صمم المسجد، ونسيت اسمه.

وكانت حفلة العشاء فرصة - أيضاً - لتجديد اللقاء بعدد من الإخوة الكرام من مسلمي نيوزلندا الذين كنت قابلتهم في الزيارتين السابقتين

للجزيرة الشمالية في نيوزلندا من أهل أوكلاند وويلنقتون العاصمة، وبعضهم كان قد زارني في مكتبي في الرياض أو في مكة المكرمة.

وعندما أخبرتهم بمناسبة الحديث في شؤون المسلمين في هذه البلاد أنني قد أتممت طبع الكتاب الذي ذكرت فيه نيوزلندا، وهو ((إطلالة على نهاية العالم الجنوبي)) وذكرت فيه أسماء بعضهم وصورهم أعجبهم ذلك وأعظموه، وقالوا: إن هذا من نعم الله علينا حتى يعرف بنا إخوتنا في الإسلام في البلدان العربية الذين وجدناهم لا يعرفون من أحوالنا شيئاً.

جلسة المباحثات:

ثم عقدت جلسة مباحثات رسمية مع أعضاء اتحاد الجمعيات الإسلامية في نيوزلندا، ورؤساء الجمعيات فيها، حضرها منهم أكثر الأشخاص العاملين في الحقل الإسلامي من خلال الاتحاد أو الجمعيات المنظمة إليه، ومنها الجمعية الإسلامية في هذه المدينة، فتكلموا كثيراً عن أحوال المسلمين في هذه البلاد، وقدموا مطالب ثلاثة رجوني العمل على تحقيقها:

الأول: إرسال إمام مختص متفرغ يؤم المسلمين في هذا المسجد، ويعلم صغارهم، ويرشد كبارهم.

والثاني: أنهم كرروا مطلباً لهم قديماً بأن تمتنع المملكة عن شراء اللحم من نيوزلندا إلا إذا كان مختوماً بخاتم اتحاد الجمعيات الإسلامية بأنه قد ذبح على الطريقة الإسلامية بعد أن يكون الاتحاد قد أشرف على ذبحه من خلال الجمعيات المنظمة إليه.

والثالث: استقبال وفد منهم في المملكة العربية السعودية، وأن تقوم الرابطة بتسهيل ذلك من الحصول على التأشيرات، واعتبار الوفد ضيفاً على الرابطة تجري الاتصالات مع الجهات الأخرى في المملكة بوساطتها، وتسهل

لها الرابطة التعرف عليها وتقدمها إليها.

فقلت لهم: إن الأمر الأخير أقول لكم إنني موافق عليه منذ الآن، وإذا أعطيتمونا الأسماء كتبنا للخارجية لمنحكم سمات الدخول من السفارة السعودية في أستراليا، وأما الأمران الأولان فإنني أعدكم بالعمل على تحقيقهما.

وقد تبادلت معهم الآراء حول أمور مختلفة تتعلق كلها بأمور دينهم، وما ينبغي أن يعملوه لذلك وبخاصة تجاه تنشئة أولادهم الذين سيعيشون وسط هذا المجتمع غير المسلم، وإذا لم تتيسر لهم التربية الإسلامية الصحيحة فإنهم ربما سيذوبون كما ذاب غيرهم من أولاد المسلمين الذين هاجروا منذ زمن إلى القارة الأمريكية الجنوبية.

وقد حضر الاجتماع منهم اثنا عشر شخصاً، وكان الاجتماع في قاعة الاجتماعات في المسجد.

ونذكر بهذه المناسبة أن مبنى المسجد الذي تحقق مؤلف من المسجد الذي هو المصلى الرئيسي، وله قسم جانبي يفصل بينه وبين المسجد ستارة تصلي فيه النساء يزيحونها قليلاً وقت الصلاة حتى يرين الإمام وبعض الذين خلفه من المصلين، وقاعة محاضرات جيدة، ومكتبة جيدة المكان إلا أن الكتب التي فيها ناقصة، وغرفة للاجتماعات، وغرفتين أخيرتين، ومطبخ، وحمامات خاصة بالرجال، وأخرى خاصة بالنساء، وكل ذلك في تجهيز جميل غالٍ، حتى إن المسجد وجميع أبنيته مفروش ببساط موحد غالٍ (موكيت) تحته كتان غليظ ليقي المصلين من شدة البرد خلال الشتاء الطويل.

كلمة عن جمعية كرايست تشيرتش:

إن عدد المسلمين في منطقة كانتربري حسب إحصائية عام ١٩٨١م هو ٢٤٩ شخصاً، لقد حصل شيء من الزيادة في العدد عن طريق الولادة، وقد زاد

العدد إلى ٣٠٠، ثم (٣٥٠) شخصاً.

يتألف المسلمون من الجنسيات التالية:

الهند - باكستان - بنقلاديش - فيجي - ماليزيا - عرب وأوربيون.

تأسيس الجمعية:

بدأ الكلام عن تأسيس جمعية إسلامية هناك عام ١٩٧٦م بعد مجيء عدد من الطلبة المسلمين من البلاد الإسلامية، وانتقال بعض المسلمين المقيمين في ويلنقتون وأوكلاند إلى كرايست تشيرتش، وقد سجلت الجمعية رسمياً عام ١٩٧٧م.

المذهب:

يمكن القول بأن أعضاء الجمعية سنيون، ولم تتأثر كثيراً أو قليلاً بالنشاط الشيعي، أو الدعوة إلى التشيع.

مركز الجمعية:

للجمعية في الوقت الحاضر مركزان:

المركز الأول: عنوانه: ٥٣٤ Tumst.

والمركز الثاني: ١٠١ Deans Ave وسيسمى مسجد النور.

وقد اشترت الجمعية بيتاً عام ١٩٨٠م وجمعت ذلك من التبرعات من المسلمين في نيوزلندا.

إدارة الجمعية:

الرئيس: منصور أحمد خواجه (باكستاني).

نائب الرئيس: الدكتور عبد الله الملحم (سعودي).

السكرتير: محمد فاروق فرنج (نيوزلندي).

أمين الصندوق: عبد الجليل خان (باكستاني).

أعضاء: الدكتور صالح السماحي (سعودي) - الدكتور قاضي (باكستاني).

وعدة أعضاء آخرين.

بعد ذلك قررت الجمعية شراء أرض، وبناء مسجد ومركز، وقد حصلوا على التبرعات من المملكة العربية السعودية.

مصادر تمويل المشروع:

الملك فهد بن عبد العزيز (٤٦٠) ألف دولار.

التجار السعوديون ١٥٠ ألف دولار.

مصادر شتى من الخليج: ١٥٠ ألف دولار.

مبلغ ٨٠٠ ألف ريال قام بتسليمه لهم سعادة السفير السعودي تبرعاً من حكومة المملكة العربية السعودية.

أهداف الجمعية:

نشر تعاليم الإسلام الصحيحة، وتقديم خدمات دينية إلى المسلمين، وتشجيعهم على أن يحيوا حياتهم طبقاً للإسلام.

النشاط:

١- تعليم الأطفال يوم الأحد في المركزين، ونشر تعاليم الدين الإسلامي.

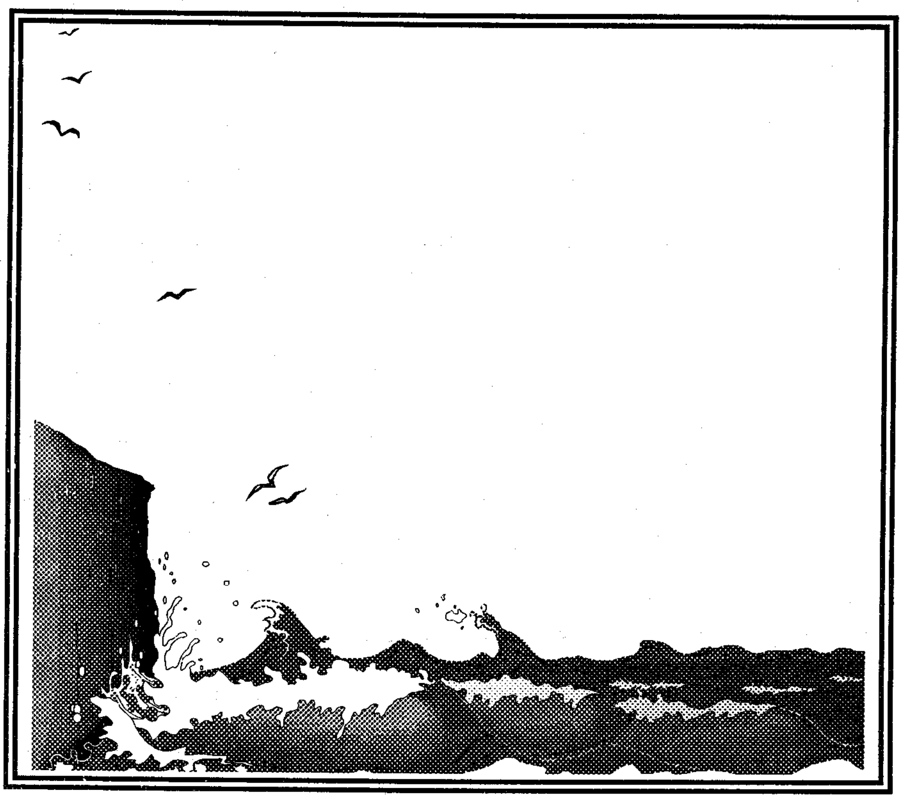
٢- حلقة قراءة القرآن للنساء تقوم بها نساء مسلمات.

٣-ترتيب الصلوات جماعة.

أعضاء اللجنة:

الرئيس: الدكتور محمد حنيف قاضي (باكستاني).

نائب الرئيس: محمد حكمت يوسف (عراقي).



مغادرة كرايست تشيرتش:

غادرت المسجد الذي هو في الحقيقة مركز إسلامي وليس مسجداً فقط في الثامنة عجلاً لأنه لم يبق على رحلتي إلى أوكلاند إلا ساعة واحدة، ومعي الدكتور صالح السماحي، والأخ عبد الرزاق أحد النشطين من أصل بنغالي، ويعمل الآن في ثلاث وظائف إلى جانب نشاطه الإسلامي، وكان قدم من أوكلاند ليحضر هذه المناسبة.

فمررنا بالفندق لأخذ الأمتعة، وأعطيت بعض الإخوة هدايا رمزية، وأردت الدفع للفندق فامتنع الإخوة أعضاء الجمعية وقالوا: أنت ضيف على الجمعية، فشكرتهم وأصررت على الدفع، فقال لي الأخ الدكتور السماحي سراً: إننا قد حصلنا على أجرة مخفضة لك لأننا جمعية خيرية، وإذا دفعت بنفسك لم يخفضوا لك، وإذا صممت على الدفع فينبغي أن تدفع ما تريده تبرعاً للجمعية.

فقلت: هذا صحيح، ودفعت تبرعاً للجمعية ثلثمائة دولار أمريكي، وأظن أن تكلفة إقامتي في الفندق لا تزيد على خمسين دولاراً أمريكياً لأنها ليلة واحدة وبضع ساعات، واعتذرت إليهم بأنني لا آمن الحاجة إلى النقود التي أحملها وأنا مسافر إلى بلاد بعيدة.

وأسرعنا للمطار وأنا أحثهم على المزيد من السرعة وهم يستمهلونني قائلين: إنها رحلة داخلية، وإذا وصل الراكب - هنا - إلى المطار قبل قيام الطائرة بربع ساعة أمكنه السفر.

وهكذا وصلنا قبل موعد قيامها بأكثر من ذلك وانتهى الأمر في دقائق مما وجدت معه الوقت لأتكلم مع أهل بيتي في الرياض.

وكان أحد الإخوة قد ذكر لموظف في المطار أنني أحمل جواز سفر (دبوماسياً) من أجل الدخول إلى قاعة كبار الزوار، فرفضت ذلك، غير أن

موظف المطار فتح لي غرفة خاصة لأتكلم منها بدلاً من التكلم من هاتف عام وأنا واقف.

وكلمت أم ناصر - زوجتي - قائلاً لها بعد السلام: مساء الخير، فردت علي قائلة: صباح الخير نحن الآن في الصبح. قلت: ونحن في التاسعة إلا ربعاً من المساء في بلاد لا تتصورين أنت وأمثالك بُعدها.

بقيت في المطار برهة مع الإخوة قبل قيام الطائرة، وشاركوني العجب من العناية التامة بأمره، حتى إن جميع أبهائه وممراته مفروشة بالسجاد الفاخر، إلى جانب المقاعد الوثيرة وما يلزم لذلك من وسائل خدمة الركاب، وهو لا يزيد على أن يكون مطار عاصمة إقليمية، وليس مطار عاصمة البلاد، وهو مثل على العناية الكاملة في الإدارة الموجودة في هذه البلاد التي يكرر الإخوة الموجودة هنا وصفها بأنها دولة متقدمة.

والأهم من ذلك حسن المعاملة للركاب والمراجعين، وسرعة الإجراءات وسهولتها، فقلت في نفسي: إن بعض الدول الكبيرة المتخلفة في الإدارة مثل الهند لو وجد مثل هذا المطار لديها لعدوه تحفة تستحق أن تزار لمجرد رؤيتها، وذلك لمدة قصيرة لأنه لا يلبث أن يفسد عندهم.

وأبدى الإخوة وأعادوا بهذه المناسبة شكرهم للمسؤولين في هذه البلاد على حسن معاملتهم للمسلمين، وعدم التفريق بينهم وبين غيرهم في الحقوق، حتى إن الجرائد كانت تتابع تشييد المسجد، وتكتب عنه، وأكثر ما تكتبه على كثرته هو الترحيب بوجوده لأول مرة في هذه المدينة كما كان قد قال مثل ذلك أو قريباً منه كثير من أعضاء الجمعية الإسلامية هنا، وقبلهم ذكر الإخوة المسلمون في أوكلاند وويلنقتون مثل ذلك.

من كرايست تشيرتش إلى أوكلاند:

قامت الطائرة النيوزلندية في التاسعة والدقيقة الثامنة مساءً متأخرة ثمان

دقائق، وهو لا يعد تأخيراً في عرف أهل الطيران، لأن تأخير عدة دقائق أو ربع ساعة عن الموعد المحدد في الأصل لقيام الطائرة يعتبر أمراً طبيعياً.

وهي من طراز بوينج ٧٣٧، ومليئة بالركاب ما عدا الكرسي الأمامي الذي وضعوني فيه، فليس فيه أحد، وكلها درجة سياحية، وليس فيها درجة أولى، وهو أمر عرفته من طائراتهم في الرحلات الداخلية قبل ذلك.

وجميع الركاب من ذوي اللون الأوروبي الأصيل، وإن شئت قلت: والشمالي، وإن كان أكثرهم لم يولد في أوروبا، بل ربما لم يكونوا قد رأوها حتى الآن. ولم أر بينهم من هو أسمر اللون غير راكبين من (الماوريين) أكثر ما يدل على أصلهما عدا السمرة في اللون الشعر الكث المنفوش على رأس كل واحد منهما.

أما المضيفات فهن كالركاب من الأوربيات ذوات اللون المشرق.

ولم يقدموا الضيافة في الطائرة إلا شطائر بينها جبن أصفر حسن المنظر، ولحم خنزير أغبر، وإن كان لونه أحمر يشبه لون الجرح الذي يكاد يتفجر. ولم تكن بي حاجة إلى الأكل، ولو كانت لما قربته من أجل قربه من هذا الخنزير الخبيث. وإنما شربت كأساً من الشاي كانوا قدموه معه، وقد عللوا عدم تقديم وجبة العشاء بكون وقت العشاء قد فات، مع أن قيام الطائرة كان بعد غروب الشمس بربع ساعة.

ولا شك أنهم بعد فترة قليلة من الزمن وحينما يكون نهار الصيف عندهم، وهو في ديسمبر ويناير في طوله فإن موعد العشاء يكون قد فات قبل أن تكون الشمس قد غربت.

وذلك لموقع بلادهم الموغل في الجنوب، فهي على خط العرض الخامس والأربعين جنوب خط الاستواء كما قدمت، وذكرني هذا بموقع في شمال رومانيا نصبوا عليه نصباً وكتبوا عليه رقم (٤٥) وقالوا: هنا خط العرض

الخامس والأربعون شمال خط الاستواء، وكنت آنذاك في رحلة إلى شرق أوربا، ومنها رومانيا قبل نحو أربعة أشهر.

ومن لطيف ما صنعوه في هذه الرحلة أن المضيفة الجميلة اختارت طفلة صغيرة جميلة في حدود الخامسة من عمرها وأعطتها إناء فيه الحلوى التي يوزعونها على الركاب عندما تهم الطائر بالهبوط، وليس عند الإقلاع، وأمسكت بيدها تساعدها، والطفلة توزع الحلوى على الركاب بديلة من المضيفة مع ابتسامات منها ومن المضيفة، تقابلها ابتسامات من الركاب لهذا المنظر البهيج.

وهم يوزعون عندما تهم الطائرة بالإقلاع المناشف المعطرة المبللة بالماء الحار.

في مطار أوكلاند:

حطت الطائرة في مطار (أوكلاند) في العاشرة والربع بعد أن استغرق طيرانها من كرايست تشيرتش ساعة وسبع دقائق.

ومن الغريب في أمر رحلاتهم الداخلية هذه أن المكان الذي فيه السيور المتحركة التي تحمل أمتعة الركاب وحقائبهم هو مفتوح على قاعات الترحيل التي هي مفتوحة إلى الخارج، فتجد المتفرجين أو المودعين يمشون بين السيور والأمتعة القادمة، ولا أحد يراقبهم، كما أنني لم أر أحداً يسأل عن حقائب الركاب، أو يتأكد من أن كل واحد منهم قد أخذ أمتعته وليست أمتعة غيره من المسافرين.

ولا شك في أن مرجع ذلك إلى الثقة بالسكان، وقلة إقدام الناس على أخذ متاع ليس لهم، ولو كان الأمر بخلاف ذلك لكانوا احتاطوا له ومنعوا غير المسافرين القادمين من الدخول إلى مكان وصول الأمتعة، ولكانوا يفعلون كما تفعل بعض الدول غير الآمنة من تخصيص موظف أو أكثر يقارن

بين أرقام الحقائب التي يحملها المسافرون وأرقام البطاقات التي يحملونها لحقائبهم.

ذهبت أبحث عن مكتب للفنادق أحجز منه غرفة لهذه الليلة التي سأغادر في صباحها أوكلاند، فدلوني على لوحة كهربائية مضيئة فيها أسماء نحو عشرين فندقاً، فسألت رجلاً يعمل في المطار عن القريب منها للمطار حتى أكلم أهله في الهاتف، فقال: كلها قريبة من المطار، وليس في هذه اللوحة من أسماء الفنادق الداخلية شيء.

فركبت مع سائق أجرة أبيض ودود، وأخبرته بقصدي، فطاف بي ستة فنادق كلها في منطقة المطار، ولكنها كلها كانت مشغولة، وكان إذا سأل واحداً دلوه على غيره حتى قالت امرأة في أحدها: إنك لن تجد غرفة في هذه الفنادق الرخيصة، فابحث عن غرفة في الفندق الكبير الغالي: (ترافيل لوج) ووصفت له مكانه.

وكانت الفنادق كلها ذات غرف منثورة نثراً، وأكثر النزلاء فيها معهم سياراتهم لأنني رأيتها مليئة بالسيارات الواقفة.

سألت موظفة شابة في الاستقبال في هذا الفندق الكبير عما إذا كانت توجد لديهم غرفة خالية، فنظرت إلى امرأة أكبر منها سناً، ويظهر أنها أقدم منها في العمل، فأشارت إشارة ذات معنى: أن نعم، فقالت الشابة لي: نعم، عندنا غرفة. ولا أدري تفسير ذلك، إلا أنني فرحت بوجود الغرفة، وسألت سائق الأجرة عن أجره، فقال: ثمانية دولارات وعُشر دولار، أي عشرة سنتيمات. فأعطيته عشرة دولارات مع الشكر له على صبره، وتحمله الطواف بي.

والدولارات النيوزلندية العشرة تساوي ستة دولارات أمريكية.

وانصرف السائق، وملأت بطاقة النزلاء كالعادة، ولما ناولتها للموظفة

طلبت مني أن أدفع الأجر مقدماً. فقلت: لمَ الدفع المقدم؟ فقالت: هذه عادتنا، ثم طلبت تسعين دولاراً، ولم يكن بيدي إلا أن أدفعها مع علمي بأنها كثيرة بالنسبة إلى أجور الفنادق في نيوزلندا، ولم تعطني إيصالاً بالمبلغ، ولا عندما خرجت في الصباح.

ويساوي المبلغ نحو (٥٥) دولاراً أمريكياً، والفندق من الدرجة الأولى واسع ممتد في دهاليز طويلة، كثير المرافق، ويقع في منطقة فسيحة، ولكن المبلغ أكثر مما يستحقه الفندق، وخاصة بالنسبة إليّ لأنني سأغادر بعد ست ساعات.

ولم يكن بإمكاني أن أجد سيارة أجرة إلا بأن يطلبوها بالهاتف من المدينة.

يوم السبت: ١٨/ ٢/ ١٤٠٦هـ - ٣٠/ ١١/ ١٩٨٥م.

مغادرة نيوزلندا:

غادرت الفندق في السادسة والربع على حافلة صغيرة له ملئت بالنزلاء الذين كانوا مثلي يريدون السفر مبكرين، ومن أجل ذلك ناموا في منطقة المطار، وقد ظل بعضهم واقفاً لأن كراسي الحافلة امتلأت، ومع ذلك طلبوا من كل واحد أن يدفع ثلاثة دولارات نيوزلندية أجرة إركابه إلى المطار مع أن كثيراً من الفنادق التي تقع في مناطق المطار تنقل النزلاء بالسيارة إلى المطار بالمجان.

ومن المطار كانت الإجراءات سهلة وميسرة مع الإتقان والدقة في العمل، كما عودنا هؤلاء النيوزلنديون.

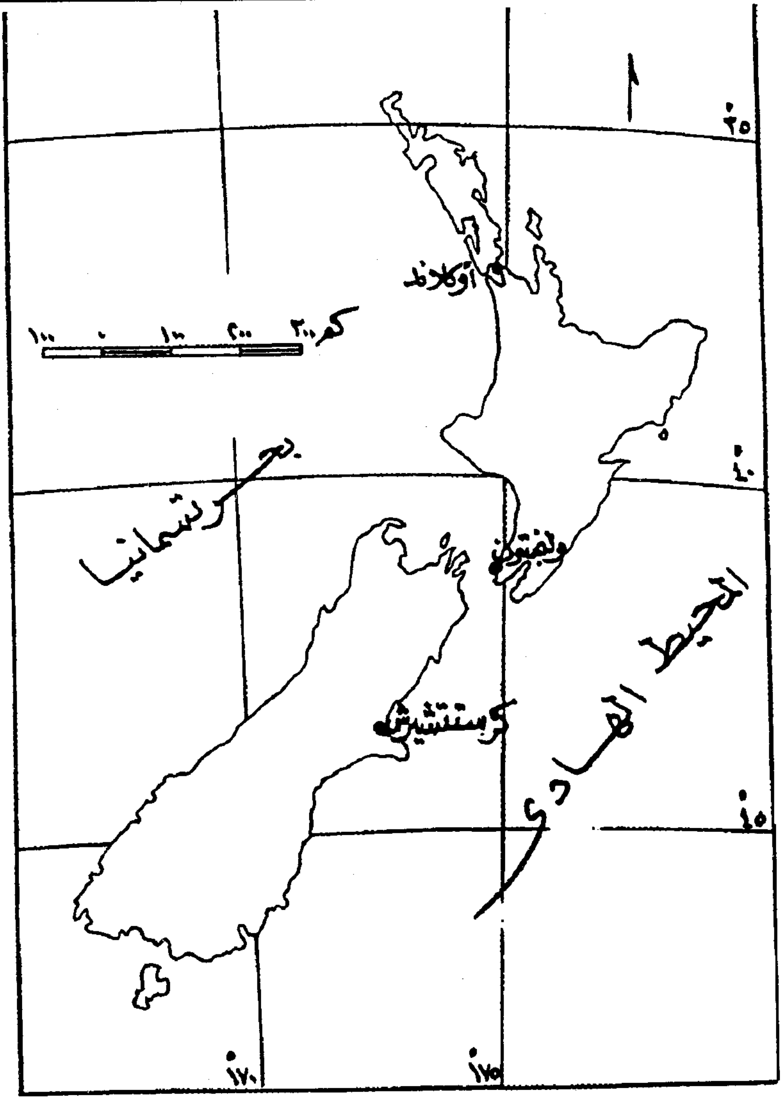
وعجبت من كثرة المسافرين وتعدد الرحلات في هذا البلد الذي لا يمر به من الركاب العابرين إلا قليل، فليس على طريق قارة من القارات إلى قارة

أخرى ما عدا أستراليا التي هي قارة، ولكن سكانها سكان دولة صغيرة؛ إذْ عددهم في حدود أربعة عشر مليوناً. ولا يمر بنيوزلندا من أهلها إلا من كان ذاهباً إلى الجنوب الشرقي، وأكثرهم لا يحتاج إلى ذلك.

ومع أن جواز سفري غريب هنا لقلة المسافرين السعوديين فإن المسؤولين كانوا يلاحظون ذلك، ويبدون احترامهم الزائد لي أكثر من بقية الركاب عندما يرون الجواز، ولكنهم لا يكثرون من الأسئلة الفضولية، أو يكررون النظر إليّ وإلى الجواز كما يفعل بعض الموظفين في الدول المتخلفة إذا رأى جوازاً غريباً.

قبل مفارقة نيوزلندا :

قلت في المقدمة: إنني سبق أن زرت نيوزلندا مرتين قبل هذه المرة، وكتبت عن الزيارتين مع زيارة أخرى لجزيرة تسمانيا التي تقع جنوب أستراليا كتاباً بعنوان: ((إطلالة على نهاية العالم الجنوبي))، وقد طبع، وكنت ذكرت فيه أحوال المسلمين في نيوزلندا ، ومعلومات متفرقة عنها ، ولذلك لا أرى إعادة الكتابة في الموضوع، وإنما أذكر هنا نشرة مستفادة من الإخوة في الاتحاد الإسلامي النيوزلندي تتعلق بموضوع المسلمين في هذه البلاد في الوقت الحاضر.


أوكلاند
ولنجتون
كرستتشيرش
بحر تسمانيا
المحيط الهادي
كم ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠ ١٠٠
٣٥°
٤٠°
٤٥°
١٧٠°
١٧٥°

نيوزلندا

أول من اكتشف أرض (نيوزلندا) البحار الهولندي العظيم (إبل تسمان) في شهر ديسمبر عام ١٦٤٢م، وأطلق عليها اسم (نيوزلندا) أي زيلندا الجديدة، و(زيلندا) هو اسم إحدى مقاطعات هولندا.

ثم طاف حولها الكابتن جيمس كوك الإنكليزي الشهير في عامي ١٧٦٩-١٧٧٠م.

وتتألف من جزيرتين هما:

الشمالية، وفيها مدينة (أوكلاند) أكبر مدن نيوزلندا، وفيها العاصمة ويلنغتون.

والجنوبية، وأكبر مدنها مدينة كرايست تشيرتش التي زرناها.

ويبلغ عدد سكان نيوزلندا ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف نسمة جلهم من الأوربيين الذين جاؤوا إليها من الجزر البريطانية، وفيهم فئة قليلة من السكان الأصلاء يسمون (الماوري) تبلغ نسبتهم في البلاد ٩ ٪.

والديانة الغالبة في (نيوزلندا) هي المسيحية، وقد فصلت بقية أمورها في كتاب: ((إطلالة على نهاية العالم الجنوبي)).

وأما المسلمون فيها فإن هذا تقرير حديث عن جمعياتهم ومراكزهم في نيوزلندا.

موجز عن المسلمين في نيوزلندا:

١- عدد المسلمين وأعمالهم وأعمارهم وأوطانهم الأصلية:

بدأ دخول المسلمين إلى نيوزلندا في أوائل السبعينات، ومع أنه لا توجد إحصاءات دقيقة عن عدد المسلمين في نيوزلندا غير أن عددهم يقارب أربعة

آلاف وتسعمائة (٤٩٠٠) نسمة، وهم متفرقون في المدن الكبرى والمدن الصغرى حسب طبيعة وظائفهم، وبحكم أعمالهم، فأغلبهم يسكنون في أوكلاند التي تعد أكبر مدينة في نيوزلندا، وجوها معتدل نسبياً، ويناسب سكان الجزر المجاورة والبلدان الآسيوية. كما أن أغلب المصانع والمؤسسات تقع في أوكلاند هذه مما يوفر فرصة العمل هناك، ولذا يوجد فيها أكبر تجمع إسلامي؛ إذ يبلغ عدد المسلمين فيها حوالي ثلاثة آلاف نسمة أغلبهم من فيجي الجزيرة المجاورة لنيوزلندا، وأصلهم من الهند.

وتليها مدينة ولنقتون عاصمة نيوزلندا، ويبلغ عدد المسلمين فيها نحو ستمائة نسمة، وأغلبهم من فيجي، ويوجد بينهم أصحاب مهن وحرف كما يوجد موظفون.

تليها مدينة (كرايست تشيرتش) عاصمة الجزيرة الجنوبية وأكبر مدنها، ويبلغ عدد المسلمين فيها حوالي ثلاثمئة وخمسين (٣٥٠) نسمة أغلبهم طلاب من البلدان المختلفة، ويليهم الأوربيون، ثم من البلدان الآسيوية.

أما المدن الأخرى مثل هملتون فلا يتجاوز عدد المسلمين فيها مائة وخمسين (١٥٠) نسمة من جنسيات مختلفة.

وكذلك مدينة بالمسترنورث وما جاورها من القرى لا يتجاوز عدد المسلمين فيها مائة (١٠٠) نسمة.

وكذلك مدينة (وتيدن) يقدر المسلمون فيها بحوالي خمسين (٥٠) مسلماً أغلبهم من الطلاب الأجانب.

وهناك عدد من المسلمين يشتغلون في المزارع وفي المدن الصغيرة والموانئ، وقد يصل عددهم إلى أربعين (٤٠) نسمة، وتوجد أسرة مسلمة في مدينة (تابوا)، وأسرتان في مدينة (روترو ا)، كما توجد أسرة مسلمة في (كاويرا)، وأخرى في (نيو بليموث)، وهؤلاء كلهم في الجزيرة الشمالية.

والجدير بالذكر أنه يوجد من المسلمين عدد لا بأس به من العلماء والأساتذة والمهندسين والمحامين والمدرسين وأصحاب المهن والحرف، وأن خمسين في المائة (٥٠٪) منهم من الأولاد، و٣٠ ٪ من الشبان، و٢٥ ٪ ما بين الأربعين والخمسين سنة، أما الخمسة في المائة (٥ ٪) الباقية فهم فوق الخمسين سنة.

٢- عدد المساجد والمراكز، مكان وتاريخ التأسيس، تقدير التكاليف:

يوجد في نيوزلندا كلها مسجدان:

(١) - المسجد الجامع في أوكلاند الذي يقع في حارة بونسون بي وسط المدينة وقريباً من السوق الرئيسي، وكان أولاً مركزاً إسلامياً معتاداً، ثم أسس المسجد الجامع في أواخر السبعينات، وقد تم بناؤه في أوائل الثمانينات، وهو أول مسجد أسس في نيوزلندا، وقد كلف بناؤه في ذلك الوقت نحو مائة وعشرين ألف دولار نيوزلندي، تبرع بأغلبية المبلغ أهل الخير والتقوى من الخارج، مثل البلاد العربية، وخاصة المملكة العربية السعودية التي تبرعت بأغلبية المبلغ.

وتلي المسجد قاعة للنساء أسست إلى جانب المسجد في أواسط الثمانينات، ولم تكمل بعد، وقد بلغت تكلفتها حتى الآن أكثر من ستمائة ألف دولار حيث إنها طويلة وعريضة تحتوي على الغرف للدراسة وأداء الصلوات ومرافق أخرى، وقد كانت التكلفة في بادئ الأمر مائة وخمسين ألف دولار، ثم زادت إلى ثلاثمائة ألف، ثم إلى خمسمائة ألف، وأخيراً إلى ستمائة ألف دولار نيوزلندي، وذلك بسبب عدم التدقيق في المشروع، وعدم الإتقان في التخطيط.

(٢) أما المسجد الثاني فهو في مدينة كرايست تشيرتش، أسس في أواسط الثمانينات، وقد بلغ تكليفه نحو نصف مليون دولار بل أكثر، وقد

تبرع ببنائه خادم الحرمين الشريفين وحكومته الرشيدة، وقد جاهد في سبيل إقامة هذا المسجد الأخ الدكتور صالح السماحي أحد الطلبة السعوديين جزاه الله خير الجزاء، وقد جاء هذا المسجد أنموذجاً حياً للإسلام في هذه الجزيرة، ومن ناحية أخرى هو آخر مسجد على وجه الأرض في جهة القطب الجنوبي، يزوره الزوار الأوربيون والأمريكيون يومياً، وهو قلعة الإسلام في المدينة من حيث المحتويات والمرفقات.

أما عدد المراكز الإسلامية: وهي عبارة عن مكان لأداء الصلوات والعبادات، وإقامة الفرائض والواجبات، واحتفال الأعياد والمناسبات، يجتمع المسلمون فيه ويتعرفون بعضهم على بعض، ويقضون حوائجهم الاجتماعية والثقافية، ويبلغ عدد هذه المراكز في مختلف مدن نيوزلندا ما يأتي:

(١) المركز الإسلامي في مانجري في أوكلاند الجنوبية، وتشرف عليه جمعية أوكلاند الجنوبية الإسلامية، وهو عبارة عن بيت متوسط يقع في حارة (مانجري) في جنوب أوكلاند، وقد اشترته جمعية نيوزلندا الإسلامية التي تشرف على المسجد الجامع في أوائل الثمانينات بحوالي سبعين ألف دولار، وقد أنشئت جمعية أوكلاند الجنوبية الإسلامية للإشراف على هذا المركز منذ ثلاثة أشهر فقط، وذلك بسبب الاختلاف السياسي والديني بين المسلمين المحليين.

(٢) المركز الإسلامي في مدينة هملتون تحت إشراف جمعية وكاتوبي أوف بلنتي الإسلامية، ويقع في مكان ممتاز في وسط مدينة هملتون على الطريق الرئيسي المؤدي إلى أوكلاند، وهو بيت كبير تحول إلى مركز إسلامي بعد الشراء، وقد اشترته الجمعية المذكورة في الثمانينات، وكلفها حوالي ثمانين ألف دولار حينذاك، وقد ساعد اتحاد الجمعيات الإسلامية في نيوزلندا في جمع التبرعات له من

الخارج، وكان نصيب السعودية من تلك التبرعات كبيراً.

(٣) المركز الإسلامي في مدينة (بالمستر نورث): وتشرف عليه جمعية (مانا واتو الإسلام)، وهو بيت ضخم يقع في وسط المدينة قريباً من السوق الرئيسي، وهو آخر مركز أقيم في نيوزلندا، وقد اشترته الجمعية المذكورة بخمسمائة وسبعين ألف دولار قبل ثلاثة أعوام، وقد ساعد الاتحاد الإسلامي النيوزلندي بتقديم جميع النفقات اللازمة بعد أن حصل عليها من الخارج، وكان أكبر مبالغ التبرعات له من المملكة العربية السعودية.

(٤) المركز الإسلامي في مدينة ولنقتون العاصمة النيوزلندية: وتشرف عليه الجمعية العالمية لمسلمي نيوزلندا المعروفة بإيمان، وهو بيت كبير يقع في حارة (نيو تاون) قريباً من السوق الرئيسي، وقد اشترته الجمعية المذكورة بثلاثين ألف دولار في أواخر السبعينات، ولكن تحويله إلى المركز الإسلامي الحالي كلفها عشرين ألف دولار أخرى، فبلغ مجموع التكاليف حوالي خمسين ألف دولار في ذلك الوقت، وأغلب التكاليف تبرعت بها المملكة العربية السعودية والبلدان العربية الأخرى.

(٥) المركز الإسلامي في مدينة (كرايست تشيرتش): وتشرف عليه جمعية كنتربري الإسلامية، وهو بيت عادي واقع على شارع (توام) المعروف في (كرايست تشيرتش)، اشترته الجمعية في أواخر السبعينات بحوالي أربعين ألف دولار، وبعد إكمال مسجد النور في أواسط الثمانينات أصبح شبه مهجور، غير أنه ما زال تحت تصرف الجمعية.

(٦) المركز الإسلامي في (بوريروا): إحدى مديريات ولنقتون: وتشرف

عليه الجمعية العالمية لمسلمي نيوزلندا المعروفة باسم إيمان. وهذا المركز لا يوجد له مقر، وقد تبرع أحد الإخوة بقطعة أرض اشتراها لبناء بيت للسكن، وقد سدد من قيمته النصف الأول، أما النصف الثاني فقد بقي غير مسدد، وقدره خمسة آلاف دولار على وجه التقريب، وقد قدم الأعضاء المحليون أن يتبرع كل بيت مسلم بثلاثمائة دولار حتى يسدد النصف الباقي من القيمة، ومن المحتمل بناء مركز إسلامي عليها تقدر التكاليف ما بين الثمانين والمائة ألف دولار.

(٧)المركز الإسلامي في مدينة (دنيدن) في الجزيرة الجنوبية: وتشرف عليه جمعية أوتاغو الإسلامية، ولا يوجد لهذا المركز مقر حيث إن عدد الأعضاء قليل جداً، وأغلبهم من الطلاب الأجانب الذين يدرسون في جامعة أوتاغو، أما عدد المسلمين القاطنين في مدينة دنيدن فلا يتجاوز عدد الأنامل في اليدين، غير أن المركز عضو في الاتحاد، ويرسل مندوباً إلى جلسات اتحاد الجمعيات الإسلامية.

٣- المشاريع الإسلامية القادمة وتقديرات تكاليفها:

بعد أن بدأ اتحاد الجمعيات الإسلامية في نيوزلندا نشاطه فيما بين أوائل وأواسط الثمانينات قرر أعضاؤه وهم المندوبون من قبل الجمعيات الإسلامية النيوزلندية أن لا يتصل أحد بالجهات الإسلامية بالخارج، وأن الاتحاد هو الممثل الوحيد للجمعيات الإسلامية في الخارج، وعليه فقد قرروا أن يقوم الاتحاد بحملة جمع التبرعات والأموال اللازمة لإكمال ما يلي:

أولاً: مشروع القاعة المتصلة بالمسجد الجامع في أوكلاند، غير أن هذا المشروع طال وقت تنفيذه أكثر مما كان يتصور، وهذا مما أدى إلى زيادة النفقات يوماً بعد يوم حتى وصلت إلى ستمائة ألف دولار بعد أن كانت في

البداية مائة وخمسين ألف دولار فقط، مما جعل الاتحاد ينظر إلى الانسحاب من مسؤولية جمع التبرعات له، غير أن مشروع القاعة هذا على وشك الانتهاء وذلك بجهود بعض الإخوة المخلصين في أوكلاند.

ثانياً: الجمعية العالمية لمسلمي نيوزلندا المعروفة باسم إيمان في العاصمة النيوزلندية تريد إقامة مجمع إسلامي كبير يحتوي على مسجد ومكاتب وصالات وغرف بالإضافة إلى مدرسة إسلامية لأولاد المسلمين، وكانوا يبحثون عن قطعة أرض كبيرة مناسبة لإقامة هذا المجمع الإسلامي الكبير، وأخيراً استطاعوا الحصول على قطعة أرض مناسبة مساحتها ألفان وثلاثمائة متر مربع، فاشترتها بثلاثمائة وثمانين ألف (٣٨٠,٠٠٠) دولار، وذلك قبل عام واحد تقريباً، وقد سددوا قيمتها كلها، وتقع فوق تل جميل، وإذا بني عليها مسجد فسيكون علماً من أعلام الإسلام في نيوزلندا بإذن الله.

ولكن البعض يرى أن هذه القطعة لا تكفي لإقامة مجمع إسلامي كبير، فلا بد أن تكون هناك قطعة أكبر منها، وما زال البحث جارياً في الموضوع.

ثالثاً: مشروع إقامة مدرسة إسلامية في المركز الإسلامي بمانجري في أوكلاند الجنوبية: إن جمعية أوكلاند الجنوبية الإسلامية وعلى رأسها الاتحاد تبحث عن إمكانية إنشاء مدرسة إسلامية كاملة مع جناح خاص لسكن الطلبة في هذا المركز بمعنى تجديد وتوسيع بنايات المركز، وتحويل المباني فيها لتكون غرفاً دراسية، وقاعة، ومكاتب، وغرفاً للسكن، وللمرافق الأخرى اللازمة.

رابعاً: مشروع إقامة مركز إسلامي في بوريروا: وهي إحدى المديريات الثلاث، وتقع على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً من المركز الإسلامي الحالي

في ولنقتون، وقد يجد المسلمون صعوبة في الذهاب والإياب لأداء صلاة الجمعة والصلوات الخمس، ولتوصيل الأولاد لتعلم الدين الإسلامي، فلذا بدؤوا يفكرون في إقامة مركز إسلامي في داخل بوريروا، وبالفعل قد أسسوا مركزاً إسلامياً قبل عامين (١٩٧٨م) تحت إشراف الجمعية العالمية لمسلمي نيوزلندا.

خامساً: مشروع إقامة مركز إسلامي في هيتنج وينيبر: وهاتان المدينتان تعدان مدينة واحدة بسبب قرب موقعهما، وتعد من المدن والموانئ المهمة في نيوزلندا لتصدير وشحن المنتوجات النيوزلندية من اللحوم والحيوانات والفواكه والثمرات إلى داخل نيوزلندا وخارجها، وهي تقع في الجزيرة الشمالية، ويوجد فيها عدد لا بأس به من الإخوة المسلمين العاملين في مجازرها ومعاملها ومصانعها ومزارعها، مع أن أغلبهم من العمال الساكنين فيها مؤقتاً، ولكن يوجد فيها حوالي عشر أسر مسلمة تقيم فيها بصفة دائمة منذ أعوام، مثل طبيب إفريقي جنوبي من أصل هندي، وعامل عربي من أصل سوري، وأوربي متقاعد متزوج من فيجية، بالإضافة إلى عائلات فيجية أخرى، ومن الممكن شراء بيت بحوالي ثمانين ألف دولار وتحويله إلى مركز إسلامي يستعمله أهل هذه المنطقة.

سادساً: إقامة مركز إسلامي في المستقبل في مدينة دنيدن: تعد دنيدن ثانية المدن في الجزيرة الجنوبية، وهي عاصمة مقاطعة أوتاغو، وتوجد فيها جامعة معروفة باسم جامعة أوتاغو، ويدرس فيها الطلاب المسلمون الأجانب من الجنسيات المختلفة أغلبهم من ماليزيا، والبعض الآخر من فيجي.

كما أن من أساتذتها مسلماً واحداً على الأقل من أصل عربي، أما في داخل مدينة دنيدن فتوجد عدة أسر مسلمة.

٤- احتياجات الجمعيات والمراكز الإسلامية:

(١) من أهم احتياجات المسلمين والجمعيات والمراكز الإسلامية تنظيم المنهج التعليمي الإسلامي ووضع منهج إسلامي نقي يساعد على نشر الرسالة الإسلامية والتوعية والتربية الإسلامية للجيل المسلم الناشئ؛ لأن البيئة النيوزلندية هي بيئة مسيحية لا تساعد على نشر الرسالة الإسلامية، ولا تتفق مع المبادئ الإسلامية.

ومن المفروض أن يكون بيت كل مسلم حصناً حصيناً، وقلعة منيعة من قلاع الإسلام، فإذا تربى فيه الولد المسلم فإنه يشعر بالشعور الإيماني، ويجد الراحة العقلانية مملوءة بالفرح والسرور والهدوء والطمأنينة، غير أن الأمر ليس كذلك، فإن بيوت أغلب المسلمين لا تختلف كثيراً عن بيت جار مسيحي أو ملحد أو قومي أو حزبي، فتجد أنه ليس له مجال لمعرفة الدين، والعقائد؛ بل إن الجو العام يساعده على الضياع والضلال في ازدحام تيارات الإلحاد والعلمانية - لا قدر الله -.

ولذا نرى أنه أهم من الجميع، ولكنه مهمل من قبل الأبوين والمسؤولين. وأخيراً أحس بعض الإخوة بخطورة الوضع بعد أن رأوا انحرافاً في بعض الأولاد والشباب، فاتفقوا على أن يقوم الاتحاد باتخاذ بعض الخطوات اللازمة لسد هذا الفراغ، وتوفير الأدوات اللازمة لتعليم الدين وقراءة القرآن، والإلمام باللغة العربية، والتمسك بالمبادئ الإسلامية.

ولهذا نرى

(١) تزويد الاتحاد بالكتب العربية والتربية الإسلامية.

(٢) وتأتي بعده مرحلة إقامة المراكز الإسلامية في المدن التي يسكن فيها عدد لا بأس به من المسلمين المقيمين، لأن التأخير في إقامة المركز معناه ضياع الحاضر والقادم لأنه إذا ضاع الجيل الحاضر يصعب منع جيل قادم من

الضياع؛ لأن الجيل القادم يتبع خطوات الجيل الماضي.

ثم إن المركز يكون بمثابة مجمع إسلامي حيث يقوم المسلمون فيه بأنواع الأنشطة الدينية والاجتماعية والثقافية، ويجتمعون فيه لإحياء المناسبات والأعياد الإسلامية، ثم لا ننسى أن من واجبنا مساعدة إخواننا المسلمين أينما وجدوا في إيجاد محل يقومون فيه بأداء الصلوات المفروضة، والعبادات المكتوبة.

(٣) وكذلك من احتياجات المسلمين إصدار مجلة شهرية أو نشرة أسبوعية تعالج القضايا الإسلامية المعاصرة، وتعطي المعلومات العامة عن الإسلام والمسلمين في العالم الإسلامي، وبقية العالم الآخر، وتزودهم بما يقوم به المسلمون في مجالات مختلفة من الأنشطة والإنجازات الإسلامية، وفي الوقت نفسه ترشدهم إلى ما يحتاجون إليه من معرفة دينهم وعقائدهم، والتصدي للبدع والخرافات والأفكار الهدامة، وهذا يحتاج إلى تنظيم دقيق وتنسيق قوي، واتخاذ خطوات صحيحة.

٥- الدعوة والتبليغ: عدد الأئمة والدعاة العاملين في نيوزلندا:

نحمد الله سبحانه وتعالى ونشكره على أن أعمال الدعوة وحركة التبليغ في داخل صفوف المسلمين تجري بين حين وآخر، حيث إن أغلب القائمين بالدعوة والتبليغ ليسوا متفرغين ولا متأهلين، لذا يصعب عليهم وضع خطة دقيقة للقيام ببعض الأنشطة الإسلامية، وعلى الاستمرار بزيارة الإخوان والتردد عليهم، وعلى إجراء اللقاءات الشخصية والأخوية، وذلك للوصول إلى إيجاد طريق إلى التعليم الإسلامي، ولتصحيح العقائد عن طريق الاجتماع الأسبوعي، أو الشهري، بالإضافة إلى إيجاد فرصة لأداء الصلوات في الجماعة، وتذكيرهم بالتمسك بالدين الإسلامي الحنيف، وعقيدة السلف الصالح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما القيام بالدعوة إلى الله في صفوف غير المسلمين فإنه يوجد بنسبة قليلة جداً، لأنه يشترط في الداعي أن يكون لبقاً في الكلام، ومحاوراً جيداً، بالإضافة إلى إعطاء المعلومات الصحيحة عن الدين الإسلامي والأديان الأخرى.

الدعاة والأئمة المتفرغون:

١- الشيخ خالد كمال عبد الحفيظ	مبعوث الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية.
٢- الشيخ هارون خوجا	مبعوث من رابطة العالم الإسلامي، ومدرس القرآن في أوكلاند.
٣- الشيخ محمد خليل الهندي	مدرس لأولاد المسلمين في أوكلاند.
٤- الشيخ نوري بن فايد	ليبي الأصل، وأسترالي الجنسية، كان متعاقداً مع جمعية الدعوة الإسلامية الليبية، وقد ألغى تعاقده مع الجمعية المذكورة بسبب الاختلاف في وجهات النظر حول النقاط الحساسة في العمل الإسلامي.

كما أن هناك بعض المشايخ في أوكلاند أصلهم من الهند غير أنهم ليسوا بمتفرغين، ولكن يقومون بخدمات إسلامية متطوعين مثل:

١- الشيخ موسى بتيل.

٢- الشيخ إسماعيل سيدات.

أما الذين يؤدون خدمة الإمامة والخطابة وتدريس الأولاد في المراكز الإسلامية لدى الجمعيات الإسلامية فهم كالآتي:

١- الأخ عثمان صاحب: إمام المركز الإسلامي في مانجري في أوكلاند الجنوبية.

٢- الدكتور الأخ أنيس الرحمن الأعظمي: من كبار موظفي وزارة

الزراعة وعلمائها، وإمام المركز الإسلامي في هملتون.

٣- الأخ اللارابي مغرب: إمام المركز الإسلامي في بالمستر نورث.

٤- الأخ شاذلي شعيب: من الطلاب الماليزيين، إمام مسجد النور في كرايست تشيرتش.

٥- الأخ أحمد شاذلي صديق: إمام المركز الإسلامي في دنيدن.

(وقد وصل حديثاً الأخ الأردني الشيخ عطا الله خريج جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ندعو الله أن يوفقه، ويجعله يؤدي خدماته الإسلامية في هذه الأراضي النائية البعيدة عن بلاد الإسلام والمسلمين).

المشكلات والعوائق في نشر الدعوة الإسلامية:

١)- المشكلات الظاهرة:

هي كثيرة جداً، ولا يمكن إحصاؤها والكتابة عنها، ولكن لا مانع من ذكر البعض منها بإيجاز شديد.

أ- اختلاف المسلمين مع بعض المسؤولين حول مفهوم الدعوة الإسلامية.

ب- قلة عدد المؤهلين المتفرغين للقيام بأعمال الدعوة الإسلامية الصحيحة النقية.

ج- عدم الكفاءة الذاتية في كثير من العاملين في أعمال الدعوة والتبليغ والإرشاد وعدم معرفة عادات وتقاليد أهل البلد.

د- وجود الشعور بالتخلف في صفوف المسلمين، والتقدم في صفوف الأوربيين المسيحيين في نيوزلندا.

ه- فقدان الثقة بالنفس لدى بعض القائمين بالعمل الإسلامي.

و- فقدان العلم بالعقائد والإيمان، وفقدان العمل ببعض الفرائض

والواجبات الإسلامية.

ز- الاعتماد على التقاليد والعادات المجلوبة والمصحوبة معهم من الأوطان الأصلية في معالجة كثير من القضايا الإسلامية في نيوزلندا، وأكثر هذه التقاليد والعادات بعيدة عن الفكر الإسلامي الصحيح.

ح- إدخال أفكار غير إسلامية، ونظريات فاسدة في تنظيم وتنسيق الأعمال وترتيب الأمور الإسلامية.

٢) - المشكلات الباطنة:

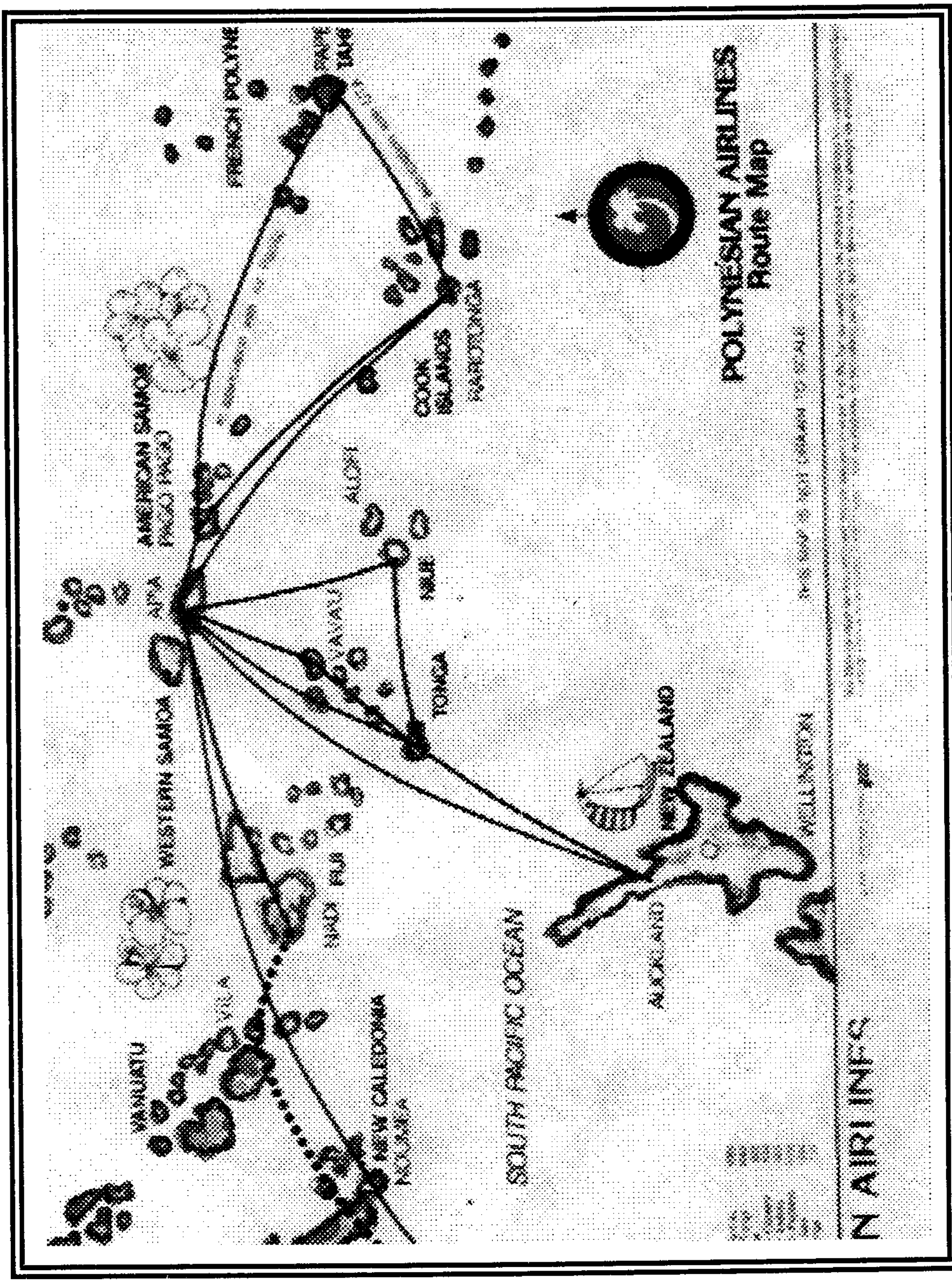
أ- رجال الدين المسيحيين النيوزلنديين يقولون: إن أرض نيوزلندا منحة من الله، وهدية من رب العالمين لهم، فلا يسمح للمسلمين أو لأصحاب الأديان الأخرى أن يدنسوها - بزعمهم - بأفكارهم وعقائدهم الباطلة - حسب قولهم -، فيعتقدون كلما ذكر اسم الله حين ذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية أنه ذكر اسم الإله الباطل، ويقولون: علينا أن لا نسمح بذكر هذا الاسم: (الله أكبر) لأنه اسم الإله للمسلمين، وليس اسماً لإلهنا: الأب، والابن والروح القدس ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾.

ب- إن بعض الزعماء والمسؤولين في الجمعيات والمراكز الإسلامية بدؤوا يبحثون عن المنافع والفوائد المادية، وعن المناصب والكراسي، وعن بحث تحسين وظائفهم، ورفع درجاتهم أمام زملائهم في الوظيفة، وذلك بالسفر إلى خارج البلاد، أو الاشتراك في المؤتمرات الدولية على نفقة الجمعيات والمراكز.

ت- توزيع الكتب والنشرات التي تتضمن الافتراء على أهل السنة والجماعة.

إلى مملكة تونغا

قبل الوصول إلى تونغا


POLYNESIAN AIRLINES
Route Map
SOUTH PACIFIC OCEAN
NEW CALEDONIA
NOUMEA
VANUATU
FIJI
NADI
WESTERN SAMOA
APIA
AMERICAN SAMOA
PAGO PAGO
TONGA
NIUE
COOK ISLANDS
RAROTONGA
FRENCH POLYNESIA
NEW ZEALAND
AUCKLAND

تونغا (TONGA):

جزر تونغا هي أقرب منطقة لجزر فيجي، وتتكون من ١٧١ جزيرة، ويقال في الأساطير بأنها تكونت قبل الميلاد بخمسمائة سنة، وتاريخها المسطور يبدأ من عام ١٦١٦م، حيث وصل إليها البحاران الهولنديان: شوشتين ولومير.

ومملكة تونغا مشهورة بعاداتها وتقاليدها، ومعتقداتها التي لا يوجد لها مثيل في العالم في العصر الحديث، ومن معتقداتها أن الملك هو ابن الخالق، لا تجوز محاسبته في تصرفاته، وكل الأهالي عبيد له.

وسكانها يتكونون من مجموعة لاؤ (LAV)، وروتمانيين، وفيجيين، وتوكليفيين، والساموبين، ونويين، وكبرى تلك الجزر تدعى تونغا تابو (TONGA TAPO)، وعاصمتها نكوالوفا (NUKU' ALOFA).

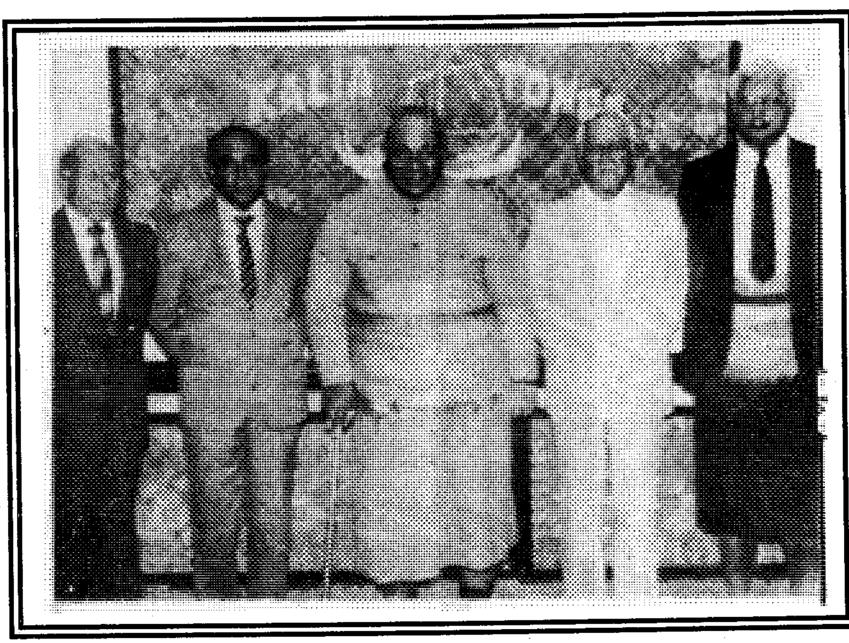


مدخل القصر الملكي في تونغا

وتونغا هي الدولة الوحيدة في منطقة جنوب المحيط الهادي بنظامها الملكي، وملكها يدعى توفها توباؤ (TAUFAAHA-UTUPOU)، ويحكم بلاده بمساعدة سبعة من رؤساء القبائل، وسبعة آخرين عاديين، ويقوم السكان بترشيحهم.

وسكانها كلهم مسيحيون إلا عدداً يسيراً من المسلمين انتقلوا من فيجي، ومن نيو كلدونيا لا يصل عددهم إلى عشرة أشخاص، والمسيحيون يتبعون كنيسة مثوليست، واعتنقوا المسيحية قبل ١٥٠ سنة.

وفي تونغا ارتفعت الراية التنصيرية لجنوب المحيط الهادئ، ومنها جاء أول مبشر للمسيحية في فيجي، ويوجد فيها مراكز عديدة لجميع الطوائف التنصيرية، ولكن كان ذلك إبان السيطرة الأوربية، وقبل استقلالها التام.



ملك تونغا في وسط الصورة معه العصا

وعندما زار كابتن جيمس كوك الإنكليزي جزر تونغا في أواخر القرن الثامن عشر سماها: ((الجزائر الصديقة))، أو ((الجزائر الودودة)).

و(تونغا) تعد طبقاً للفكرة المثالية التي كونها الرجل الأوروبي جنة من جنان البحار الجنوبية، لأن شعب المنطقة لم يفقد شيئاً من صفات الدفء والحيوية التي يتمتع بها.

قال ملك تونغا: ((إذا أحببت طعام بلد أحببت شعبه أيضاً، وكما ترى فإنني أحب الطعام من كل مكان)) تلفظ بهذه الجمل الملك ((توفها توباؤ)) الرابع الذي يبلغ طوله مترين تقريباً، ووزنه حوالي مائة وسبعين كيلو غراماً، وهو رجل خفيف الظل، ظريف، تلقى تعليمه في أستراليا؛ حيث تخرج من كلية الحقوق.

وللوصول إلى تونغا لا بد من بذل جهود خاصة بسبب وقوعها بعيداً عن الخطوط الملاحية أو الجوية المعروفة، ويميل أهل تونغا، سواء الرجال منهم أو النساء إلى البدانة، وغالباً ما يدعون الغريب إلى مائدة طعامهم، والكل يبتسم للغريب.

هذا، وكثير من أهالي تونغا الآن يجيدون اللغة الإنكليزية، أما لغتهم الأم، أي اللغة التونغاوية، فهي لهجة بولينيزية، فيها مصادر كلمات كثيرة تشبه مصادر الكلمات في اللغتين الملايوية والأندونيسية، ويرجع ذلك إلى أن أسلافهم هاجروا من منطقة جنوب شرق آسيا في القديم.

والتونغاويون شعب فخور، بأنهم يحكمهم ملك له إلمام بسياسات القوة العالمية، ويستعمله للحصول على المساعدات الاقتصادية.

وقد وضع الأوربيون مجموعة من الخطوط الوهمية (خطوط الطول والعرض) لمساعدة البحارة في البحار البعيدة، منها خط واحد غير مستقيم، هو ما يعرف بخط الطول الدولي أو خط التاريخ الدولي الذي يميل إلى ناحية

الشرق من الخط المتوازي ١٨٠ °، والغرض من إيجاد هذا الخط المائل إلى اليمين هو ضم مجموعة جزر تونغا إلى كل من أستراليا ونيوزيلندا من حيث التوقيت فقط.

وتقع جزر تونغا البالغ عددها مائة وواحدة وسبعين جزيرة تحت ما بين ١٥ ° إلى ٢٢ ° إلى الجنوب من خط الاستواء.

وأكبر هذه الجزر هي: فافاو – ها أباي – تونغا تابو. وتعتبر هذه الأخيرة أهم جزيرة من بين المجموعة، ويقيم فيها ثلاثة أرباع السكان البالغ عددهم مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) نسمة، وتحتل ثلثي المساحة الأرضية للمنطقة.

وعاصمتها نوكوالوفا، وتقع بطبيعة الحال في جزيرة (تونغا تابو)، وفيها محل إقامة الأسرة الحاكمة.

أول من وصل من الأوربيين إلى تونغا هما البحاران الهولنديان: جان شوتين، وجاكوب لومير، وكان ذلك في عام ١٦١٦م، وقد هاجمهما السكان فور وصولهما، ولم يفلتا إلا بشق الأنفس، وبعد أن لجآ إلى استعمال البنادق التي لم يكن التونغاويون قد شاهدوها من قبل.

ويرجع سبب عدائهم للزائرين إلى رفض جاك لومير تناول مشروب قدمه الأهالي إليهما.

أما البحار ((تاسمان)) فقد تركت زيارته انطباعاً مغايراً لانطباع جان شوتين وجاكوب لومير، فقد وجد أن التونغاويين شعب مجدّ في العمل ودود.

إلا أن كابتن جيمس كوك يعتبر أول من وضع جزائر تونغا على خريطة العالم تماماً كما فعل مع بلاد أخرى كثيرة واقعة في المحيط الهادئ. وقد زار الكابتن كوك تلك الجزائر ثلاث مرات على التوالي: ١٧٧٣، ١٧٧٤، ١٧٧٧م وضع خلال زيارته رسومات خاصة بالجزر، وجمع مذكرات في وصف شعبها.

أما الأجزاء الشمالية من الأرخبيل التونغاوي، أي مجموعة فافاو، فقد اكتشفها الإسباني أنطونيو دو موريل، وكان التاج الإسباني قد بعثه على متن السفينة ((لا برنسيسا)) عام ١٧٨٠م في مهمة ما بين مانيلا والمكسيك، ونظراً لأن الوقت كان متأخراً بالنسبة للطريق الشمالي العادي فقد أبحر نحو الجنوب الشرقي طلباً للرياح المواتية حتى رسا في ميناء ((فافاو)) عام ١٨٧١م.

ومع بدية القرن التاسع عشر اندلعت الحرب بين طوائف الأشراف التونغاويين المتنافسة وأتباعهم، مما أدى برئيس القبيلة المسمى ((فيناو)) إلى مصادرة سفينة بريطانية اسمها ((بورت أوبرانس))، وذبح أغلب بحارتها، وأبقى على حياة نفر قليل منهم كي يعلموه كيفية استخدام البنادق ضد أعدائه، وكان بين هؤلاء بحار شاب يدعى ((مارنير)) مكث في تونغا أكثر من أربع سنوات تعلم خلالها لغتها، واهتم اهتماماً كبيراً بالعادات المحلية، وبعد عودته إلى إنجلترا قام الدكتور مارتن بكتابة مذكراته.

عند قراءة مذكرات الكابتن كوك قررت الجمعية التبشيرية في لندن تنصير الأرخبيل التونغاوي، وكانت المهمة صعبة في البداية، إذ قبل التونغاويون الهدايا التي حملها إليهم المبشرون من أدوات مصنوعة من الحديد، ورفضوا قبول الإنجيل، بل وقتلوا بعض المنصرين.

وفي عام ١٨٢٦م تم تأسيس الكنيسة الـ: ((ويلزية)) إلا أن المسيحية لم تحرز سوى تقدم محدود حتى اعتنقها مؤسس الأسرة الحالية المالكة عام ١٨٣٤م، وتسمى باسم الملك جورج الأول إكراماً لملك إنجلترا آنذاك، وقد أكسبته هذه الخطوة تأييد المنصرين.

وقد احتكروا نظام توزيع الأدوية والتعليم والديانة وحتى التجارة، على أن ذلك لم يدم كثيراً، إذ بدأت المنافسة بين أولئك المنصرين الإنجليز وبين المنصرين الفرنسيين الكاثوليك الذين وصلوا إلى الأرخبيل التونغاوي عام

١٨٤٢م، فنال الفرنسيون تأييد رؤساء القبائل المناوئين للملك الذين اعتبروا الملك جورج المؤيد الرئيسي للمذهب البروتستانتي وللمصالح البريطانية.

غير أن الملك جورج استطاع وبتأثير من المنصرين البروتستانت وضع أول مجموعة من القوانين المكتوبة في تونغا موضع التنفيذ عام ١٨٣٩م، وقد نصت تلك القوانين على ضرورة تودد رؤساء القبائل إلى الشعب، وحرمت عليهم أخذ أي شيء من الشعب بالقوة، وألزمتهم بمنح الأراضي إلى الشعب ليقوم بزراعتها، ورسخت سلطان الملك عن طريق تقييد سلطان رؤساء القبائل، كما حرمت الزنا، والقمار، والعمل أيام الأحد، وبيع المشروبات الكحولية، والوشم والختان.

وقد أدى وجود النظام الملكي الدستوري إلى اعتراف القوى الرئيسية في منطقة المحيط الهادئ آنذاك، وهي: (ألمانيا - فرنسا - بريطانيا - أمريكا) بتونغا دولة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وأصبحت تونغا في عام ١٩٠٠م الدولة الوحيدة المستقلة في منطقة المحيط الهادئ، ثم فقدت جزءاً من استقلالها، وأصبحت محمية بريطانية، ثم نالت استقلالها التام عام ١٩٧٠م.

وتعتبر تونغا النظام الملكي الوحيد المتبقي في جزر المحيط الهادئ، ولا تزال تحتفظ بمجتمع مكون من الملك والرؤساء (للقبائل)، والعامة.

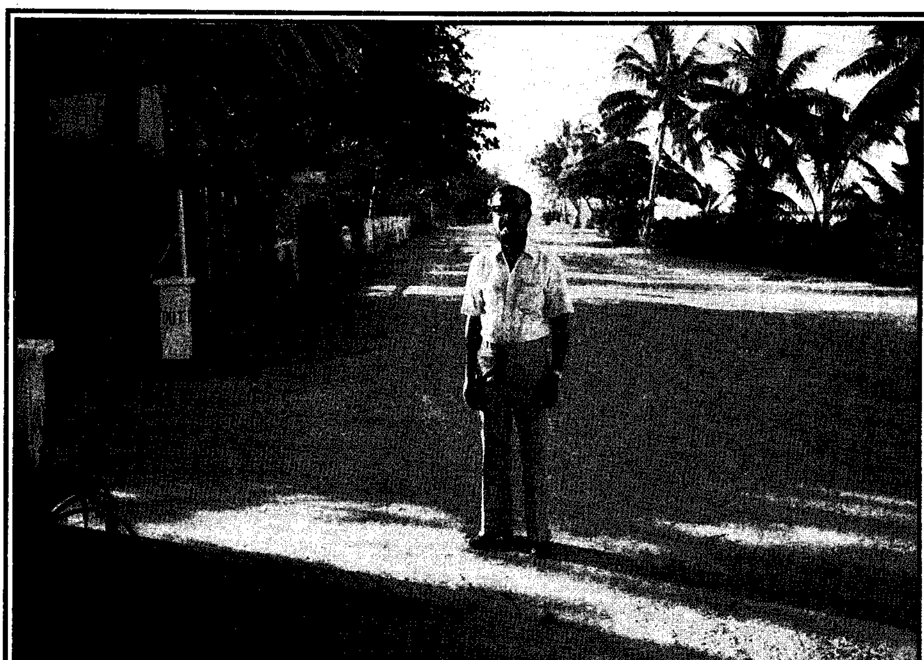
كما أن المجتمع والحياة الأسرية فيها مرتبة بشكل مشابه، فالعامة يخدمون الرؤساء، والرؤساء يخدمون الملك. ويسود في مجتمعها احترام الصغار للكبار، وخضوع النساء للرجال، فالنساء يبقين في المنازل، ويلبسن الملابس المحتشمة، ويحافظن على العادات والتقاليد.

وقد أدى العديد من العوامل إلى تغيير النمط التقليدي لمعيشة السكان، وهذه العوامل هي: التعليم، والدين، والتكنولوجيا الحديثة. ولكن قدوم السياح بأعداد كبيرة قد أسهم في الإخلال أكثر بالتنظيم الاجتماعي للدولة،

وإلى حد ما تعتبر السياحة شيئاً جديداً في تونغا، ولكنها تتطور بسرعة كبيرة، ويبدو أنها تزيد من محو نظم العيش التقليدية، وتعمل على إدخال أنماط سلوك جديدة.

وفي تونغا، كما في جزر المحيط الهادئ الأخرى جرى التركيز على التعاون عوضاً عن التركيز على دفع الأموال لقاء الخدمات المتبادلة، وكذلك فالصلات العائلية لا تزال قوية جداً.

فقديماً كانت الخدمات تقدم مجانية، كما كان الكرم والطيبة وإكرام الضيف خاصة تجاه الأجانب تعتبر أموراً طبيعية، كما أن توقع (البخشيش) لم يكن معروفاً.



المؤلف في تونغا

ولكن نزوع السياح إلى صرف مبالغ كبيرة من النقود أدى إلى تكون رأي عام لدى أهالي تونغا مفاده أن كل السياح شديدو الثراء، مما أدى بالتالي

إلى نمو حب التملك والجشع بين الأهالي، إلى حد أن الأطفال الصغار أصبحوا يهتمون أكثر بجمع المال عوضاً عن تقديم المساعدة بدون مقابل.

لقد أصبحت كل وسيلة تستخدم لاقتناص المال من جيوب السياح، فالأطفال الصغار يطالبون السياح بالمال نظير التقاط الصور لهم، وسائقو التاكسي يطالبونهم بضعف الأجرة.

وبعض بائعي المصنوعات اليدوية يزيدون في أسعار بضائعهم، وفي الأيام التي تصل فيها سفن الرحلات إلى تونغا يترك بعض تلاميذ المدارس الابتدائية فصولهم الدراسية لكي يبيعوا المصنوعات اليدوية البسيطة.

ويعمل التأثير الظاهر للسياحة على الإسراع في تغيير المجتمع؛ حيث يطالب أكثر الشباب بقدر أكبر من الحرية، ويتبرمون من النظم الاجتماعية مثل احترام الكبار.

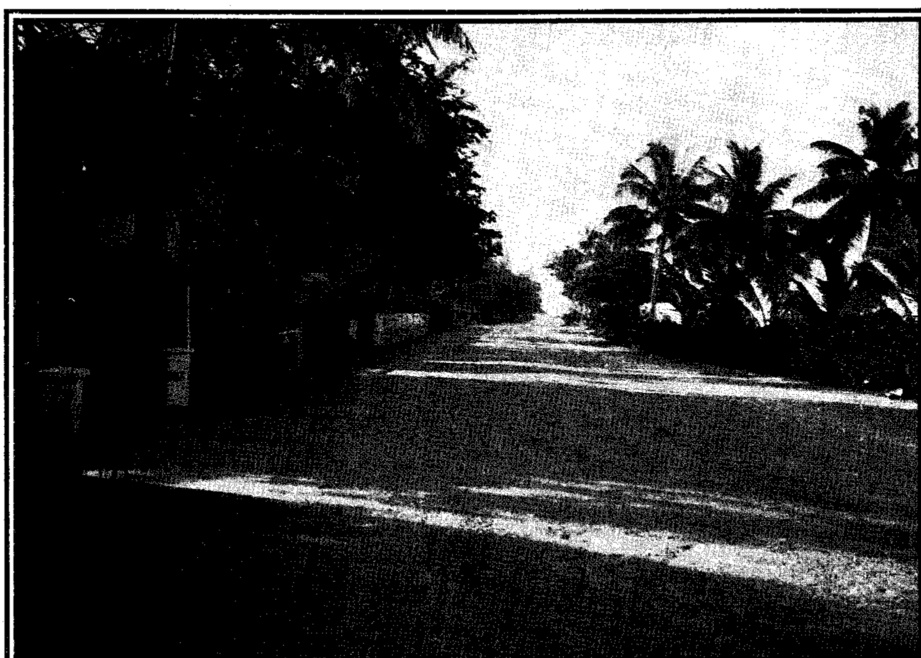
كان الزي التقليدي للمرأة يتكون من ثوب ذي أكمام طويلة، أو تاوفالا (Ta'ovala)، وآخر اسمه سولو (Sulu) طويل، أو توبينو (Tupenu) يغطي الأذرع والسيقان.

أما الرجال فقد كانوا يلفون حولهم لباس الفالا (Vala)، ولكن في الوقت الحاضر تفضل النساء ارتداء الأثواب القصيرة الخفيفة ذات الأكمام القصيرة التي ترتديها السائحات، وإن كان ذلك على قلة.

ويقبل السياح على شراء المصنوعات اليدوية في تونغا مثل الحصر والسلال وقماش التابا (Tapa).

في السابق كانت الحصر وقطع أقمشة التابا الكبيرة الحجم مقصورة على الاستخدام في المناسبات العائلية المهمة فقط، وكانت المصنوعات المحلية تعمل من الخامات المحلية المتوفرة، فالسلال تجدل من خوص النارجيل، كما كانت شجرة الموليري تستخدم لعمل قماش التابا، والأصباغ تؤخذ من ثمارها

الكبيرة المتوفرة، وذلك لرسم التصاميم على التابا. وقد تسبب إقبال السياح على هذه المصنوعات في التركيز على الكمية عوضاً عن التركيز على النوعية. كما أدى إنتاج التابا والسلال بكميات كبيرة إلى فقدان التصاميم المتميزة، وقد وصل الحال إلى قيام نساء التونغا عند عدم توفر الخامات لديهن إلى استخدام ما يوجد لديهن في البيوت من تابا وحصر، وذلك لعمل السلال وغيرها لبيعها للسياح، وقد أدى ذلك إلى فقدان الأعمال المحلية قيمتها المتوارثة كأشياء تحفظ للمناسبات إلى أشياء تباع للسياح لقاء المال.



شارع في عاصمة تونغا

من أوكلاند إلى تونغا تابو:

رأيت أول النماذج لأهل تونغا في مكتب الترحيل في المطار، وهي لأشخاص كبار الأحجام، ثقال الأجسام، من رجال ونساء يتميزون بذلك إلى جانب سمرتهم التي تتراوح بين السمرة والحمرة

وهم في هذا المطار لم يتركوا عاداتهم في اللباس، وربما كان ذلك لكونهم ينتظرون مستقبلين من بني قومهم في مطار بلادهم، فلا يجوز أن يروهم على غير ما هم عليه في بلادهم، وبخاصة أنني عرفت بعد ذلك أن (التونغاويين) أو (التنغانيين) - فلا أدري أألفها منقلبة في لغتهم عن واو أو ياء إن كان فيها ذلك - هم من المحافظين على عاداتهم الموروثة، المتمسكين بتقاليدهم المرعية.

ولقد رأيت هنا على الوجهاء منهم فوطاً من القش الخفيف، أو الخيش الخشن قد لفوها على أوساطهم فوق ثيابهم، مع أنهم في غير بلادهم، وإن هذا أمر لافت للنظر فيها، وأما النساء فإن بعضهن في ثقل بعض المصريات اللائي كنا نراهن في موسم الحج في مكة المكرمة قبل ثلاثين سنة، ونعجب من ثقل أردافهن.

وهذا أمر لا فت للنظر إذْ قلّ أن يرى المرء من أهل البلاد النيوزلندية من هو بهذه الأوزان رغم كونها من البلاد المصدرة للحوم، وأن اللحم فيها رخيص جداً.

وأما السمرة فإنها صارت لا تسترعي الانتباه في هذا المطار لكثرتها، لأن في المسافرين نسبة من أهل جزر المحيط الهادئ الجنوبي التي جميع أهلها من ذوي اللون الأسمر، وبعضهم ذوو سمرة قاتمة مثل أهل فيجي، وبعضهم سمرتهم غبراء، أو تصل للسواد مثل أهل (وانا واتو) التي كانت تسمى نيو هبريدز قبل استقلالها، وبعض أهل الجزر سود الألوان مثل أهل (جزر

سليمان)، أو (سلمون أيلندز) كما هو اسمها الرسمي بالإنكليزية.

وهذا الكلام هو بالنسبة للجزر التي كنت قد زرتها قبل ذلك، التي يرجع بعض الباحثين أصول أهلها إلى الماليين، أو (الماليز) بالإنكليزية، وهم أهل الجزر الشمالية. وبعضهم إلى الجنس الفيجي الذي هو مستقل بذاته بين سكان أهل هذه الجزر، وآخرون (البولونيين) و(البولونيز) بالإنكليزية.

وهي عناصر غريبة الأشكال والألوان والأسماء أيضاً فتبارك الله أحسن الخالقين.

غادرت الطائرة مطار أوكلاند الدولي، وهو متسع كثير المرافق، غير أن مطار كرايست تشيرتش وهو أصغر وأقل حركة بالطائرات هو أفخر من مطار أوكلاند، وربما كان السبب في ذلك أن مطار كرايست تشيرتش هو أحدث إنشاءً...

وهي من طراز بوينج ٧٣٧ تابعة لشركة الطيران النيوزلندية، وعندما كانت تتحرك كان الإعلان باللغة الإنكليزية لغة البلاد، ولكنهم أعلنوا ثانية إعلاناً مطولاً هو ترجمة للأول بلغة (تونغا) التي نسافر إليها مع أنها كانت محمية إنكليزية سابقة، وأكثر أهلها يعرفون الإنكليزية، ولكن (التونغاويين) - وقد رأيت كتابتها بالياء قياساً على التنزانيين (أهل تنزانيا) التي نكتبها بالياء في لغتنا - هم معتزون بلغتهم، متمسكون بشخصيتهم، وربما كان بينهم من الركاب من لا يعرف الإنكليزية معرفة كافية، ولذلك كتبوا الاستمارات بلغتهم تحت الإنكليزية.

قامت الطائرة في الثامنة إلا ربعاً من هذا الصباح، واعتذروا اعتذاراً خاصاً من المكبر عن التأخير الذي حصل في موعد قيامها الأصلي، وهو ربع ساعة إذْ كان المقرر أن تقوم في السابعة والنصف.

وقد امتلأت الطائرة بالركاب الذين كان أكثرهم من أهل تلك

الجزر، وفيهم عدد قليل من ذوي الأصول الأوربية، ولا يقول المرء: إنهم من الأوربيين، وإن كانت مظاهرهم مظاهر الأوربيين، وأصولهم أوربية لأنهم يكونون من أهل أستراليا، أو نيوزلندا الذين ولدوا في جنوبي الأرض، ولم يروا أوربا، ولا شمال الأرض، وربما يكون آباؤهم أيضاً لم يروا تلك المناطق الشمالية.

عندما قامت الطائرة جددت عهداً ليس ببعيد بمنظر مدينة (أوكلاند) العجيب وضواحيها الواقعة فوق شعاب من الأرض ممتدة بين أخوار من البحر -والخور في لغة قومنا العرب القدماء: هو ما يسميه الكتاب المحدثون عندنا بالخليج الصغير-.

ومنظر المدينة من الجو، وبالصفة هذه منظر قل أن يوجد مثله لكون شعابها أي الألسنة من الأرض الواقعة على أخوار البحر كثيرة ربما تبلغ العشرات، وهي من ذلك في منظر أنيق إلى كونه عجيباً؛ لأنهم قد تصرفوا فيها فأحسنوا التصرف ما شاء لهم الإحسان، ومن ذلك أنهم استغلوا بعض الأخوار الضيقة أو الوديان فأقاموا فوقها الجسور من دون أن يبنوها بناء، لأن حافتيها تتساويان في الارتفاع، وتجد مع ذلك ما تحتها ماء من مياه البحر تجري فيه الزوارق، أو وادياً من وديان الأرض فيه الشوارع والأبنية.

وقد رأيتهم حرصوا على أن تكون مدينتهم خضراء وارفة الأشجار، وساعدهم على ذلك ما منحهم الله من كثرة الأمطار، إذ جعلوا جانباً من الريف المحيط بها مناطق طبيعية لا يجوز أن يقطع شجرها، أو يتصرف فيها متصرف حتى تبقى غابات وأرضاً عذراء.

وما أدري سبباً من السباب يدعوني إلى الإسهاب في وصف هذه المدينة، وكنت قد فرغت من ذلك عند زيارتي لها أول مرة منذ اعوام، وسجلته في كتاب: ((إطلالة على نهاية العالم الجنوبي)) الذي طبعه النادي الأدبي في

مكة المكرمة.

ثم لججت الطائرة في الجو، وانحسر السحاب من تحتها فأصبحنا لا نرى إلا الماء والسماء.

وكانت أولى تحيات أهل الطائرة أن وزعوا استمارات الدخول إلى مملكة تونغا، وهي معقدة، ورأينا فيها شيئاً كنت أنسيته منذ سنوات، ولم أكن رأيته قبل ذلك إلا في استمارات الدخول إلى الحبشة في وقت الإمبراطور هيلا سيلاسي، وفي الدخول إلى جنوب إفريقية العنصرية، وهو أنهم خصصوا فيها حقلاً لبيان العنصر الذي ينتمي إليه الراكب، وهو: ((ريس)) (RACE) بالإنكليزية.

وكتبت فيه ما كتبته قبل سنوات، وهو أنني من العنصر العربي، فنحن ليس في بلادنا عناصر، ولم نتعلم كيف نجيب إذا سئلنا عن ذلك، لأنه لا أحد يسألنا عنه، ولكنني كتبت أنني من العنصر العربي، وكانت هذه الكتابة كافية عند الأحباش والإفريقيين الجنوبيين العنصريين، وستكون كافية عند هؤلاء، وإن تكن الأسباب عند هؤلاء غيرها عند أولئك.

ذلك بأن الجنوبيين الإفريقيين العنصريين كانوا قد قسموا السكان رسمياً وبحكم قانونهم إلى أربعة عناصر، وهي: البيض، والملونون، والآسيويون، والسود، ونحن لسنا من أي صنف من هؤلاء، لذلك كتبت اسمي آنذاك بأنني من العنصر العربي، وكان هذا جواباً كافياً عندهم.

وقد ذكروا في استماراتهم ما ذكره الأستراليون والنيوزلنديون من قولهم ما معناه: إننا مستقلون في بلادنا، فنرجو منك ألا تدخل إليها لحماً أو فاكهة أو أي نوع من أنواع الطعام أو النبات أو الحيوان الحي أو الميت... إلخ.

ثم قدمت مضيفات الطائرة طعام الإفطار جيداً سخياً كثيراً أكثر من المعتاد في الرحلات الدولية، وذلك لكونهم يعرفون ركابهم التونغاويين

بكثرة الأكل، وبالحاجة إلى ذلك لتغذية أجسامهم الضخمة.

وقد صار الطيران كله فوق مياه المحيط الهادئ الزرقاء الداكنة التي لم يصل إلى قعرها آدمي حي أبداً، وربما لم يصل إلى قاعها مخلوق حي، لأنه إذا سلم من وحوش البحر، فإن ضغط المياه العميقة فوقه سيعصره حتى يقضي عليه، ولم يصل إليه حي في مركبة لأنه لا توجد حتى الآن المواد القوية التي تستطيع مقاومة ضغط هذه المياه العميقة، وإنما كان بعض العلماء يدلون إليه بآلات وأجهزة لسبر غوره، واستطلاع خبره.

وحتى الغيوم صارت قليلة فوق صفحة المحيط الذي لا توجد يابسة واسعة قريبة منه في هذه الناحية.

وقبل الوصول إلى (تونغا) رأيت قطعاً من الغيم الأبيض قد انعكس ظلها على صفحة المحيط كأصلها أبيض ناصعاً فعجبت من ذلك، ولم أجد له تفسيراً إلا أن يكون ذلك لكوننا في وسط النهار، ومن زاوية مناسبة للنظر؛ لأن العادة أن يكون لون ظل السحاب على البحر أسود لا أبيض.

ولقد توقعت أن يكون الوصول قريباً لوجود هذه القطع من الغيم التي لم تكن موجودة قبل ذلك، وذلك أن السحاب يكثر فوق الجزر، وبخاصة عند الشاطئ أكثر مما يوجد على صفحة المحيط، والبعد عنها في العادة، وإلا فإنه قد توجد سحب ثقيلة فوق المحيط.

فوق تونغا تابو:

بعد أن أتمت الطائرة ما يزيد على ساعتين قليلاً من الطيران ظهرت جزيرة تونغا محاطة بعض شواطئها بمياه ضحلة قليلة، وبقية سواحلها تحيط بها مياه عميقة زرقاء.

وهذا ليس بالمنظر الذي يسترعي الانتباه، وإنما ذلك في منظر جزر لم

تولد بعد - إن صح التعبير - فهي مغمورة بمياه قليلة لذلك يراها الناظر إليها من الطائرة عجباً من العجب، إذ يرى لون المياه متغيراً دون أن يرى أرضاً يابسة، وأعجب من ذلك وجود جدران مستطيلة داخل الماء، ولكنها لم تبرز بعد إلى السطح، وهي ترى واضحة من الطائرة، ولا شك في أن وجودها فيه خطر كبير على الملاحة البحرية، وتحتاج السفن التي تقترب منها إلى عناية خاصة في تفادي الاصطدام بها.

واقتربت الطائرة من الجزيرة فبدت ذات أشجار من النارجيل كثيفة، غير أنها باهتة الخضرة، كما أن الأعشاب التي تكسو الأرض بين الأشجار تبدو صفراء مائلة للجفاف، أو جافة.

وعلى وجه العموم فإن منظر جزيرة تونغا في هذا البحر المحيط الأعظم ليس كما كان متوقعاً أن تكون عليه من خضرة شاملة ومن مظاهر خصب ظاهر.

حتى الطريق الذي رأيته من الطائرة يشق بعض غابات النارجيل فيها هو ترابي ذو لون أصفر غير رائق.

في مطار تونغا تابو:

بدت الجزيرة والطائرة تهم بالنزول في مطارها تكاد تكون ذات شجر واحد وهو النارجيل، وذلك لغلبته في الكثرة على سائر الأشجار فيها، وإلا فإن فيها غيره.

إلا أن النارجيل مثل غيره لا يبدو نضراً، وحتى الحشائش والأعشاب التي تحف بمدرج الطائرة كانت جافة أيضاً على غير ما هو منتظر في جزيرة صغيرة تسبح وسط مياه المحيط الهادئ الذي تعج مياهه بجزر صغيرة خضر؛ بل ذات أشجار ملتفة.

أما المطار فإنه كما انتظرته كان صغيراً ضيق المدارج، ويتجلى الضيق أكثر في أبنيته مما ذكرني بعهود سلفت في بلادنا حيث لم يكن الناس في ذلك الوقت يهتمون بأبنية المطارات.

فقاعة القدوم هي قاعة استقبال الأمتعة، وهي لا تزيد على غرفة استقبال في بيت أحد الوجهاء في بلادنا، والدليل على ذلك أنها ضاقت بركاب طائرتنا، وهي غير كبيرة إذْ هي بوينج ٧٣٧ كما سبق وذكرت.

وعندما نزلنا من الطائرة شاهدنا (برميل) الوقود يقترب من الطائرة يجره جرار زراعي، وكان موظفان من المواطنين قد دخلا الطائرة عندما توقفت محركاتها في المدرج، وأغلقا الباب خلفهما، فرشّا الطائرة ومن فيها بمبيد الحشرات منعاً لتلوث أرض الجزيرة بحشرات قد تكون قادمة مع المسافرين، أو على بعض الأمتعة.

وهذان الوطنيان هما عنوان أهل البلاد الذين هم من أهل الجنس البولينيزي، ولكنهم من النوع الأشد سمرة فيه، لأنهما من أهل هذه البلاد الشمالية بالنسبة إلى هذا الجنس من الناس الذين منهم على سبيل المثال سكان تاهيتي التي سوف أذهب إليها - إن شاء الله - بعد هذه الرحلة

والجنس البولينيزي - كما سيأتي الكلام عليه - يتميز بغلظ الأجسام، أي ضخامتها حتى ولو لم يكن الشخص سميناً، مع أن السمن شائع فيهم. وأما اللون فإنه الأسمر الشديد السمرة، ولكن سمرة تميل إلى الحمرة لا إلى الكدرة.

ولم يسألني ضابط الجوازات عن سمة الدخول، ولا عن السبب الذي من أجله قدمت إلى هذه المملكة، وكنت مشفقاً من أن لا يسمح لي بالدخول لأنني لم أكن أحمل سمة دخول إلى (تونغا) إذْ لم أجد من يمثلها إلا في أستراليا، وقال لي المسؤول في السفارة السعودية في كانبرا إنه بحث عن

الجهة التي تعطي سمات الدخول إلى تونغا فذكروا أن الشخص يمكن أن يحصل عليها في المطار.

وكنت خشيت أن يكون المراد بذلك الأشخاص الذين هم من اهل المنطقة التي لهذه الجزر علاقات تجارية مهمة بها.

بل إن ضابط الجوازات رحب بي ترحيباً غير معتاد، وختم على الجواز بسرعة، ولم يستغرق ذلك عنده أكثر من دقيقة واحدة.

ولكن التأخر كان في انتظار الأمتعة إذْ كان نقلها يتم على دفعات فوق جرار زراعي، ثم يرفع العمال الأمتعة بأيديهم على منصة، وكل شخص يأخذ متاعه بيده، ويساعده عليه أحد عمال المطار، والذي ضايقنا أن الغرفة ضيقة، وقد ازدحم فيها الركاب حتى صار من يحصل على أمتعته يصعب عليه التحرك لنقلها من ضيق المكان المزدحم بالناس.

ولم أتأخر أيضاً عند ضابط الجمرك الذي نظر إلى ظاهر جوازي، فلما رآه (دبلوماسياً) أفسح لي الطريق دون ختم أو وضع شيء يميز الحقائب التي مرت على الجمرك.

في جزيرة تونغا تابو:

خرجت من منطقة الجمرك التي لم يكن على بابها أحد ظاهر يمنع الناس، فوجدت جمهوراً ضخماً من الذين جاؤوا إلى المطار لاستقبال ركاب الطائرة، وبعضهم لا يبدو عليه أنه يعمل شيئاً.

وقد كادوا يغلقون الطريق الذي ازدحم بهم.

وقد بادر أحدهم وكأنما هو يعرفني من زمن فاتجه إليّ اتجاهاً مباشراً، وأمسك بحقيبتي الكبيرة التي كنت أجرها جراً وهو يقول لي بإنكليزية واضحة: تاكسي، تاكسي، ولم أوافق على طلبه لأنني لم أثق

به، وفي الوقت نفسه لا أدري ماذا أصنع إلا أنني في مثل هذه الحالة أركب مع حافلة يكون فيها غيري طلباً للأمن.

فقلت له: لا، إنني أريد حافلة، فأين الحافلة التي تذهب إلى وسط المدينة؟ ولم أر بالفعل أية حافلة كبيرة، كما أنني لم أكن أعرف شيئاً عن المدينة؛ فضلاً عن أن أعرف لها وسطاً، لأنني لم أر من الطائرة مدينة واضحة ذات أبنية عالية متواصلة، ولكن كانت هذه عادة لي قديمة إذا ما لم أجد من أثق به ركبت مع الحافلات.

وبينما كنت أحاور الرجل تقدمت مني امرأة جميلة في حدود الخامسة والثلاثين وهي تقول: تاكسي، تاكسي وتشير إلى بطاقة من اللدائن صغيرة معلقة على صدرها، وفيها: مملكة تونغا واسمها، وأنها مخولة من مصلحة السياحة، فاطمأننت لذلك. وقلت: نعم، ولكنني أفضل الحافلة.

فقالت: نعم ليس لديَّ إلا الحافلة، وأركبتني في حافلة صغيرة تتسع لاثني عشر راكباً، وكل ما فيها قديم، ويحتاج إلى إصلاح، وقالت: التاكسي بثلاثة دولارات. تريد أن أجرة هذه الحافلة ثلاثة دولارات للشخص الواحد. فاستوقفتها وهي عجلى تبحث عن سياح مثلي لتركبهم وقلت: إلى الفندق، فقالت: نعم إننا ذاهبون إليه. فسألتها عن سعره وموقعه من المدينة، فضحكت وقالت: إنه الوحيد للسياح أمثالك. وسألت الراكبين عن أجرة الفندق، فذكروا أنها أربعون دولاراً من دولاراتهم التي هي أقل من الدولار الأمريكي، فزاد اطمئناني.

وتركتني بعد أن ركبت الحافلة التي وجدت فيها رجلاً وامرأته من البيض أظنهما من أهل نيوزلندا، فاتكأت على حقيبتي الصغيرة، وقد شعرت بالأمان.

وصرت من مقعدي في الحافلة وكانت واقعة مقابلة لباب المبنى في المطار

أرقب الناس الذين خيل إليّ أنهم قد زاد عددهم.

ومن الطريف منظر بعض المحافظين والمحافظات منهم حين تراهم عليهم اللباس الإفرنجي الأنيق مما يدل على أنهم من أهل النعمة، ومع ذلك فوطة قد لفوها فوق أوساطهم وكأنها الحصير من الخوص الذي يطول ويقصر حسب تمسك لابسه بالعادات القديمة، فإذا كان شديد التمسك صارت هذه الفوطة القشية تصل إلى الكعبين، ولابسها وهو يمشي كأنه يمشي وسط حصير مما لا تكاد تستطيع معه أن تمنع نفسك من الضحك لولا مقتضيات اللياقة والحياء.

أما الجو فإنه رطب، ولكنه ليس بالغ الحرارة، وربما شعرنا بذلك لكوننا قدمنا أمس من جنوب نيوزلندا التي يشبه جوها جو أوربا في الربيع، كما قدمت هناك، وهو كفصل الشتاء في بلادنا في منطقة الرياض مثلاً.

إلا أن الجو كان غائماً لحسن الحظ، وقد كنت نسيت الشعور بالحر أو البرد لغرابة المناظر التي تحيط بي؛ سواء منها مظهر الناس ولباسهم، أو حتى التفكير بأنني الآن في منطقة من جنوب المحيط الهادئ لم أصل إليها من قبل، وحسبك بها بعداً أن تعلم أن الفرق بينها وبين بلادنا بالتوقيت هو اثنتا عشرة ساعة، وهذا معناه أنه إذا غربت الشمس عندهم طلعت عندنا، وبالعكس، وهذا هو نهاية البعد، ومن ذلك أسميت هذا الكتاب: ((نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض...)).

وبعد طول انتظار ومجيء ثلاثة جدد من الركاب، جاءت المرأة التي تبين فيما بعد أنها دليلة سياحية مفوضة من الحكومة، فركبت بجانب السائق، وتحركت الحافلة قاصدة الفندق.

كما تبين أيضاً أن الحافلة نفسها تابعة للفندق.

وسارت الحافلة مع طريق متوسطة؛ بل هي إلى الرداءة أقرب، فهي

مزفتة، ولكن تزفيتها غير جيد إلا في بعض الأماكن وسط ريف غير ندي يشبه إلى حد كبير المناطق الاستوائية التي رأيتها في أنحاء العالم في القارات المختلفة من الإفريقية والآسيوية إلى البحر الكاريبي، إلا أنه غير نضر، وغير ملتف الغابات.

وأكثر الأشجار فيه، بل إنه الشجرة الرئيسية في هذا الريف هو شجر النارجيل، وقد بدا ثمره (جوز الهند) وهو هنا أصفر. والنوع الأصفر منه أغلى وأفخر عند الذين يعرفونه من النوع الأخضر.

إلا أن الريف غير بهيج، وقد عرفت بعد ذلك أن السبب هو جَدْب غير معتاد كان قد ران على هذه الجزر التي كانت معروفة بكثرة أمطارها قبل ذلك.



بيت معتنى به في ريف تونغا (تصوير المؤلف)

ومع أشجار النارجيل يوجد رفيقه وقرينه في المناطق الاستوائية وهو

الموز، إلا أنه هنا ليس نضراً، بل كثير من أشجاره تبدو صفراء اللون.

والبيوت في هذا الريف الذي مر به الطريق غير كثيرة، والموجود منها متفرق ومختف بين الأشجار، وهو يشبه الأكواخ من الأخشاب والقش المسنم السقف.

وقيادة السيارات عندهم مثل ما هي عليه في أستراليا ونيوزلندا جهة اليسار، وليست مثلنا وأكثر العالم جهة اليمين.

وذلك لأنهم من المستعمرات البريطانية التي حافظت مكرهة على ما كانت عليه حالها قبل الاستقلال.

فندق خط التاريخ الدولي:

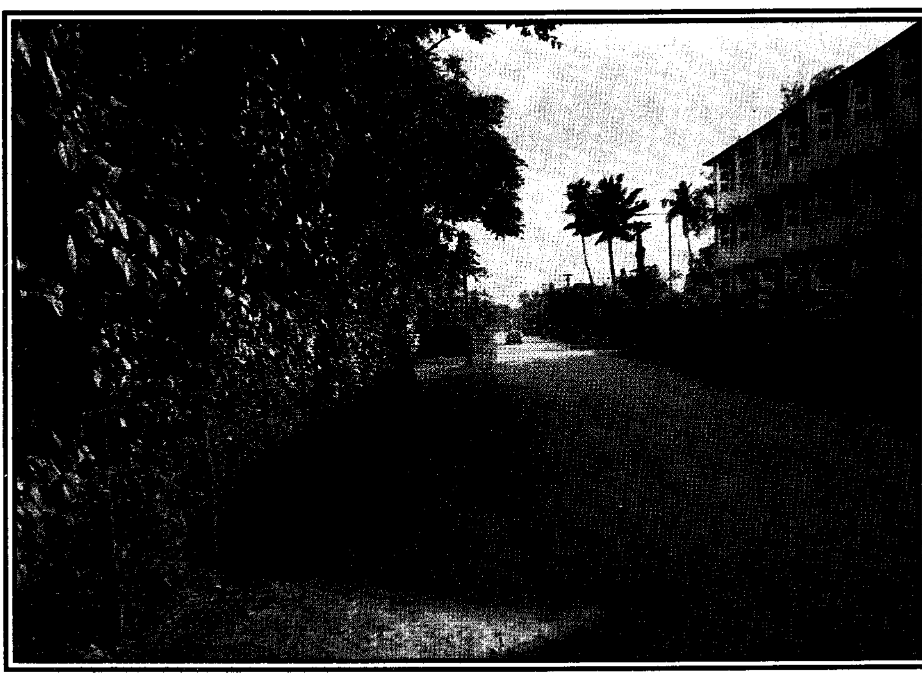
وقفت الحافلة الصغيرة عند بناء متميز بعدد طوابقه خلاف الأبنية الأخرى التي أكثرها من طابق واحد، وكُتِب عليه اسمه: (فندق خط التاريخ الدولي)، وبالإنكليزية: (إنترنشنال ديت لاين هوتيل)، ويقع في بلدة (نوكوالوفا) العاصمة، أو بلدة العاصمة، لأن تونغا تابو، هي الجزيرة التي فيها عاصمة الجزر، وهذه مدينتها.

والسبب في هذه التسمية الملفتة للنظر هو وقوع هذه البلاد التونغاوية غير بعيدة من خط الطول الدولي الذي يقسم الأرض من الشمال إلى الجنوب، ويقابل خط قرينتش، ولكن أمره هنا ليس كأمر خط قرينتش في كونه مقياساً لأطوال البلاد ومعرفة توقيتها مقارناً بتوقيت قرينتش، لأنه يتغير عنده التاريخ، فإذا سار المرء من الجهة الغربية إلى الشرق مخترقاً ذلك الخط كما سأفعل - إن شاء الله عندما أسافر من تونغا إلى (ساموا) - فإن تاريخ يومه الشهري والأسبوعي يتقدم يوماً واحداً، فكأنه بذلك قد كسب يوماً واحداً، وإذا عكس الأمر بأن اخترقه من جهة الشرق إلى جهة الغرب فإنه يفقد يوماً واحداً، فكأنه بذلك قد خسر ذلك اليوم، وسوف أشرح لك ذلك عندما نصل

إليه في رحلتنا هذه بإذن الله.

وجدنا في مكتب الاستقبال في الفندق فتاة من المواطنين الذين يبدون أصفى لوناً من سائر الناس، وقد تبين لي أنهم نسبة قليلة فيهم، وقد أنهت التسجيل بيسر وسهولة، فلم تطلب الاطلاع على جواز سفري، أو تحاول معرفة الجنسية التي أحملها.

وهذه معاملة تشبه معاملة الأوروبيين، أو الذين هم من أصل أوروبي، وذلك أن أكثر الذين يأتون إليهم هم من ذوي المظهر الأبيض من سكان أوستراليا ونيوزلندا، وليست لهم مشكلات خاصة، أو مشكلات تتعلق ببلادهم مع هذه الجزر التونغاوية.



الشارع الذي عليه فندق خط التاريخ الدولي في تونغا

وحمل عامل في الفندق حقيبتي إلى غرفة جيدة الموقع لأنها تطل على مياه المحيط من واجهة الفندق الواقع على شارع البحر المسمى بالكورنيش، إلا

أنها في مستوى أثاثها ورياشها لا تتعدى مستوى الدرجة الثانية التي تحمل ثلاث نجوم؛ على حين أنهم كانوا قد قالوا لي: إن هذا الفندق هو في مستوى خمس نجوم لأنه أكبر فندق عندهم.

والواقع أنه فندق كبير، وإن كان مستواه أقل مما قالوه بكثير.

وكنت صرفت عشرة دولارات أمريكية لأعرف مقدار الصرف، فأعطونا عنها ثلاثة عشر دولاراً ونصفاً، من عملتهم وهي دولار تونغا كما هي عليه الحال عند البلاد القريبة منهم، ولا نقول جيرانهم؛ لأنهم ليس لهم جيران إلا البحر، وإنما أستراليا، ونيوزلندا، وفيجي كلها عملتها الدولار، وهو دولار وطني، وليس بالدولار الأمريكي.

وبهذا عرفت أن الدولار الأمريكي يساوي دولاراً وثلثاً من دولار تونغا، فأعطيت العامل نصف دولار، فشكر وانحنى بالتحية مما يدل على قلة النقود في بلادهم، أو صعوبة الحصول عليها.

وأقبلت على الغرفة عجوز ضخمة البنية، غليظة التقاسيم، وهي تحيي وتقول: إنني خادمة هذا الطابق، وكانت تبدو مرحة كأكثر أهل البلاد الذين فيهم طبيعة من طبيعة سكان البلدان الاستوائية الذين يضحكون كثيراً حتى من الأشياء التي لا تضحكنا نحن وأمثالنا.

وجدت في الغرفة أدوات صنع الشاي والقهوة، فصنعت قهوة، وأكلت قبلها تمرات من تمر السكري الذي جنيته من نخلة في بيتي في بريدة في القصيم، وقلت وأنا آكله: أنى لك ببلادك أيها التمر، ولن تجد أبعد عنها من هذه البلاد على وجه الأرض.

وكانت النافذة مفتوحة على شاطئ البحر الذي ترفرف عليه أشجار النارجيل فخيل إليّ أن التمر قال:

لكنني لن أستوحش هنا وأنا أرى أشجار النارجيل هذه التي تشبه

النخلة.

فقلت: هيهات إنه الشبه المجرد.

فأنت تسمن وتغني من جوع، وتسد من عوز، أما ثمر هذه - بالثاء المثلثة- فإنه يروي من ظمأ، ويسيغ الطعام وينوب عنه، ولكنه لا يغني من جوع، ولا يسد من عوز.

وعادة تجهيز الغرف في الفنادق بما يصلح به النزيل الشاي والقهوة عادة إنكليزية انقرضت من أكثر البلدان، وبقيت محافظاً عليها في منطقة المحيط الهادئ الجنوبي هذه مثلما عليه الحال في أستراليا.

وخيل إليّ وأنا أنظر في مياه المحيط الهادئ الجنوبي من النافذة أنه بإمكاني أن أنسى الزمان، بل أن أجعل الزمان ينساني، لأنني لا أعرف أحداً في هذه البلاد، ولا يعرفني أحد، وليس معي رفيق أو أنيس، فقررت أن أمنح نفسي إجازةً بقية هذا اليوم الذي بقيت منه أربع ساعات وليلته.

فنمت حتى شبعت نوماً، ثم خرجت أتمشى على شاطئ البحر الذي لا يبدو جميلاً، لأنه غير رملي، وإنما هو طين ووحل، وقد وضعوا فيه صخوراً ضخمة أحضروها من بعيد لتقي البلاد شر هجمات الأعاصير البحرية التي تأتي إليهم من البحر في العادة.

وشارع البحر الذي مشيت فيه هو مزفلت زفلتة رديئة، وليس له أرصفة، وإنما هي حافات ترابية، وغرسوا عليه أشجاراً استوائية أكثرها ظهوراً أشجار النارجيل، ولكنها غير كثيفة.

وأما المنازل التي على هذا الشارع المهم فكلها خشبية ما عدا عدداً قليلاً مثل فندقنا، ومطلية بطلاء يجعلك تشعر إذا رأيتها على البعد أنها مبنية من الإسمنت، وتحيط بها الحدائق كلها، فلا ترى بيتاً بدون حديقة.

غير أن غبار حواشي الشارع قد كسا الأشجار الخارجة منها بكساء غير محبب، وربما كان الغبار قد اشتد في هذه الأيام بسبب المحْل الذي هو قلة الأمطار.

وقد رأيت رجلاً أبيض وزوجته وهما يرشان أشجار الحديقة بالماء لتنظيفها من الغبار.

وتركت شارع الشاطئ داخلاً مع شارع فرعي يتجه إلى وسط البلدة فيما قدرته، فرأيت أول ما رأيته ميداناً صغيراً كل ما يباع فيه هو الحطب، ولا شيء غيره، يبيعه رجال ونساء.



نساء ورجال من تونغا عليهم الفوط التقليدية السميكة

فسألت عن كومة بقدر ما يستطيع الرجلان المتوسطا القوة أن يحملاه فأشاروا إلى ورقة كتب عليها ثمن الحزمة، فإذا هي دولاران من دولاراتهم، ويساوي ذلك نحو خمسة ريالات سعودية.

ثم رأيت مكاناً قد اجتمع عليه أناس أكثرهم من النساء الغليظات الأجسام، وقد اجتمعن على باعة سمك طازج من الصيادين الذين اصطادوا السمك من البحر لتوه، لأن المكان يقع بالقرب من شاطئ البحر.

ورأيت بعض المتأنقات من هؤلاء النسوة وغيرهن قد تقلدن في رقابهن قلائد من الزهور التي أعدت في الأصل على هيئة طوق، وبعضهن يجعلن الزهور بمثابة التاج يضعنها على أعلى الرأس.

ثم رجعت إلى الفندق فرأيت رجلاً قد فرش فراشاً على جانب الشارع، وعنده عصي وتحف خشبية غير جيدة، ومع ذلك كانت أسعاره غالية.

الحياء في تونغا:

عدت إلى قرب الفندق الذي يقع قبالته ميناء مدفون للقوارب الصغيرة، ولكنه داخل في البحر، فرأيت فيه صبياناً يسبحون، وغير بعيد منهم، ولكن في نقطة منفصلة بنات صغار يسبحن، وعليهن ملابسهن كاملة، أي أن البنت تسبح وهي لابسة ثوبها الطويل، ولم أر نساء من الكبيرات يسبحن، فلفت ذلك انتباهي، وكنت رأيت في بركة للسباحة في الفندق مثلهن بنيات صغيرات يسبحن في البركة وعليهن ملابسهن كاملة، وكنت ظننت ذلك مصادفة، ولكونهن ليس معهن ملابس للسباحة مثلاً، فسألت امرأة كانت واقفة عند هؤلاء البنيات اللائي يسبحن في البحر بملابسهن وسألتها عن تفسير ذلك؟.

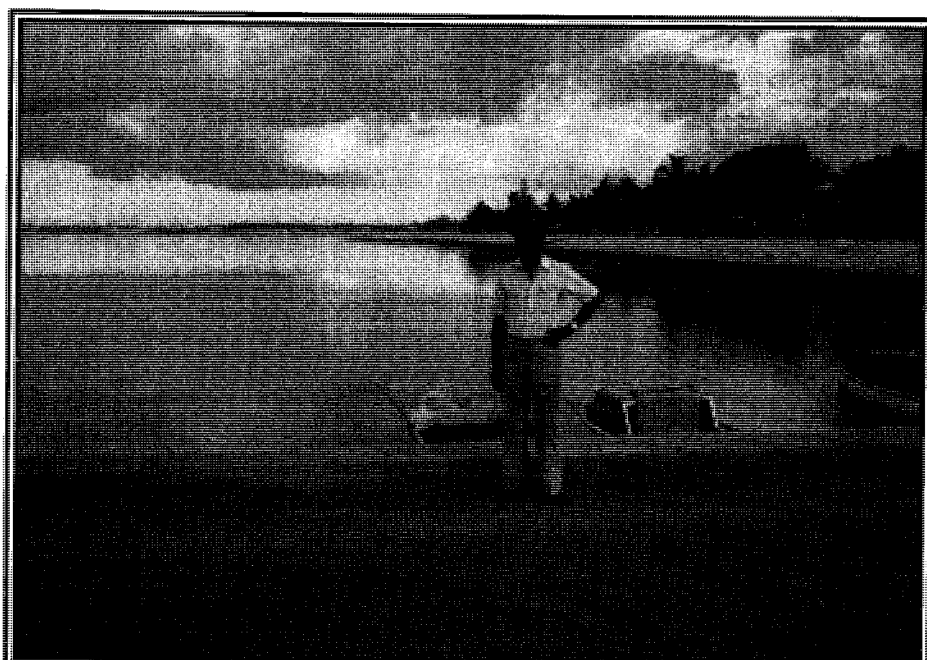
فأجابت: إن هذه هي تقاليدنا، إنها لا تجيز للأنثى أن تكشف عن جسدها أمام الأجانب كما تفعل الأوروبيات، حتى ولو كانت بنتاً صغيرة، إن هذه تقاليد موروثة عندنا، ونحن نحافظ عليها.

وهذا أمر عجيب أن يستطيعوا المحافظة على هذه التقاليد الحميدة رغم تأثير الاستعمار البريطاني وما جر معه من تقاليد مدنية حديثة جعلت سباحة

النساء أمام الرجال أمراً معتاداً في كثير من البلدان التي قلدت الأوروبيين.

ولم أر بعد ذلك أية امرأة من أهل البلاد تسبح حتى في ثيابها.

وشاطئهم هذا غير جيد للسباحة إلا أن اللسان المدفون من البحر بمثابة رصيف الميناء على جانبيه أماكن صالحة للسباحة لأن أساسه من الحجارة وهناك شواطئ رملية غيره.



المؤلف على شاطئ البحر في تونغا

وعدت إلى الفندق فجلست في مقهاة فيه في الهواء الطلق في هذه الساعة من الأصيل، فلفت نظري أن خدم الفندق كلهم يرتدون الفوط التي تبدو كأنما هي من القش، وهي كذلك من الخوص، وقد لبسوها في أوساطهم إلا أنها مسترخية غير مشدودة، أي لا يجعلونها ضيقة تشد بقوة حول الوسط كما يفعل أهالي بورما الذين يلبسون فوطاً من القماش، ويشدونها بقوة حول أوساطهم، وقد ذكرت ذلك في كتابي: ((بورما: الخبر والعيان)) وهو كتاب

مطبوع، يمكنك أن تراجعه إن شئت.

وكان في الجو رطوبة غير شديدة فرجعت إلى غرفتي في الفندق أطلب الراحة، وأشعلت مكيف الهواء الذي يصعب اللبث في الغرفة بدونه، فكانت الغرفة هادئة رغم وقوعها في جانب الفندق الموالي لشارع الشاطئ، وذلك لقلة السيارات عندهم.

ومن الأشياء المريحة للسائح مثلى أن اللغة الإنكليزية مفهومة هنا لأن بلادهم كانت محمية إنكليزية، ولا تزال الإنكليزية هي لغة الدراسة عندهم لضعف لغتهم، وقلة عددهم الذي يبلغ في الدولة كلها حوالي ٩٩ ألف نسمة.

والانطباع الأول عنهم أنهم قوم مسالمون، يشعر الغريب بينهم بالاطمئنان.

وهذا المساء:

تعشيت في مطعم الفندق عشاء من السمك وخبز قليل غير جيد، ومعه أوراق معدودة من السلطة الخضراء.

وكان كل شيء قدموه نزراً أي قليلاً جداً مع أن القوم ضخام الأجسام، كثيرو الأكل مما يدل على أن هذا المطعم بل والفندق لا يعتاده إلا الأجانب، وبلغت قيمة هذه الوجبة القليلة سبعة دولارات ونصفاً من دولاراتهم.

ثم كانت حفلة رقص فلكلوري من رقص المحيط الهادئ الجنوبي كنت قد رأيت مثله في جزائر سليمان المسماة (سلمون أيلندز)، وذكرت ذلك في كتاب: ((جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ)).

وقد ضمت الحفلة نساء ورجالاً يرقصون رقصاً ليس مبعثه الحرص على الإغراء، وإنما هو تراث قديم عندهم، لذلك ترمز الرقصات إلى قصة أو تحكي حكاية ذات مغزى لا نفهمه لأنها بلغتهم، وإنما نفهم الإشارات.

وأكثر زينة الراقصين والراقصات هي من الزهور الملونة التي تكثر في

هذه الجزر، أو من خوص أشجار النارجيل التي هي أهم الأشجار في منطقتهم.

وسألت خادمة المائدة عن هذه الفرقة: أهي من أهل البلاد؟ فأجابت: لا، إنها من أهل ساموا، وقبلها كانت عندنا فرقة مثلها من أهل جزر (هاواي).

وقالت: أما نحن فإن تقاليدنا لا تجيز لنا أن ترقص النساء مثل هذه الرقصات على مشهد عام.

وهذا أيضاً من الشواهد على تمسكهم بتقاليد لهم حميدة، وربما كان ذلك لكونهم بلاداً ملكية متمسكة بتقاليدها العريقة.

وقد امتلأ فناء الفندق بالحضور من علية القوم ومن السياح والعاملين الأجانب في الشركات القليلة هنا، ومنهم شبان وشابات يظهر عليهم الأدب النسبي، فلم أر ما يخدش حياء من تعود على رؤية هذه الحفلات الشعبية مع أن المفروض أنهم شربوا وأنهم جاؤوا لقضاء سهرة بعدها يوم عطلة، لأنه يوم الأحد.

وعندما توقفت الغرفة الشعبية أخذت أربع من فتياتها أطواقاً من الزهور وزعتها على أفراد مختارين من هذا الجمع الحاشد فكان نصيبي عقداً منها ألقته حول عنقي إحدى جميلاتهن من دون كلام، أو من دون تطلع إلى نقود ولم أعطها شيئاً بالطبع لأنني دهشت من أن تختارني من بين المئات تضع هذا العقد من الزهور حول عنقي، وصرت أبحث في ذهني عن تعليل لذلك فلا أجده.

ثم خلا المكان من الفرقة وأخذت الموسيقى تصدح، فتركت المطعم إلى غرفتي.

يوم الأحد ١/١٢/١٩٨٥م

البحث عن رئيس المسلمين:

كنت طلبت عندما كنت في مدينة كرايست تشيرتش في نيوزلندا من رئيس اتحاد المسلمين فيها الذي سبق له أن زار تونغا واجتمع برئيس المسلمين الأخ (فياض مانو) أن يعطيني عنوان الأخ فياض فأعطانيه عندما ودعتهم للسفر، وهو طويل إلا أنني عندما نظرت فيه اليوم رأيته يشتمل على اسم الأخ فياض الكامل، واسم الجمعية الإسلامية التونغاوية، ورقم صندوق البريد للمراسلة، وليس فيه رقم هاتف ولا عنوان يرجع إليه هنا، وليس من المعقول أن أكتب إليه على صندوق البريد ثم انتظر الرد إذ قد يتخلفون عن الذهاب إلى صندوق البريد، فيضيع علي وقت عزيز.

لذا استعنت بالدليلة السياحية فسألتها عن كيفية الوصول إليه، فنادت عاملاً في الفندق قال: إنه يسمع (بمانو)، و(مانو) هو اسم أسرة الأخ فياض رئيس المسلمين، ولكنه لا يعرف أين يسكن غير أنه يعرف رجلاً يمكن أن يفيدنا في الموضوع فأعطيته أجرة سيارة ذهب بها إلى ذلك الرجل، ثم عاد يحمل عنواناً شفهياً من ذلك الرجل.

ووقف معي عند باب الفندق فمرت سيارة أجرة لم تعرف المكان، ثم جاءت أخرى فرطن معها بلغتهم وقال: اركب سوف يوصلك إليه.

ذهبت مع السيارة التي كان فيها شخص آخر مع السائق فقلت في نفسي: ربما أفاد وجوده في العثور على الأخ فياض مانو، وتبين أن السائق أخذه معه ليدله على الطريق.

تركنا بلدة (نوكو الوفا)، وهي المحلة الرئيسية في هذه الجزيرة التي هي عاصمة جزر تونغا، وتعتبر (نوكو الوفا) بمثابة العاصمة للجزيرة وللدولة، ولكن الجزيرة تنتشر فيها المساكن وبخاصة في المزارع والأرياف بين أشجار

النارجيل، وإن يكن ذلك في غير كثافة.

وكان السائق والدليل يعرفان قدراً من الإنكليزية مثل سائر المتعلمين ولو تعليماً ابتدائياً في الجزيرة، فكان السائق واسمه (سيالي) يسأل صاحبه الدليل واسمه (توم) عن الجهة التي ينبغي أن تسلكها السيارة، وأنا ساكت أنتظر الوصول إلى بيت أخينا رئيس المسلمين.

وخرجنا إلى الريف (التانغوي) الأصيل بغاباته النارجيلية التي أصاب شجرها الاصفرار بسبب احتباس المطر عنهم كما قال الرجلان لمدة تقرب من أربعة أشهر، ولفت نظري هنا بل كان أكثر ما يلفت النظر في هذه الجزيرة منظر النساء اللاتي لبسن الحصر على أوساطهن بحجة أنها فوط تقليدية أنيقة، ورأيت امرأتين عليهما حصر طويلة، فأوقفت السيارة واستأذنت منهما بواسطة الرجلين أن ألتقط صورة تذكارية معهما فوافقتا.

وانتهزت الفرصة لالتقاط صور أخرى للطريق وسط الغابات.

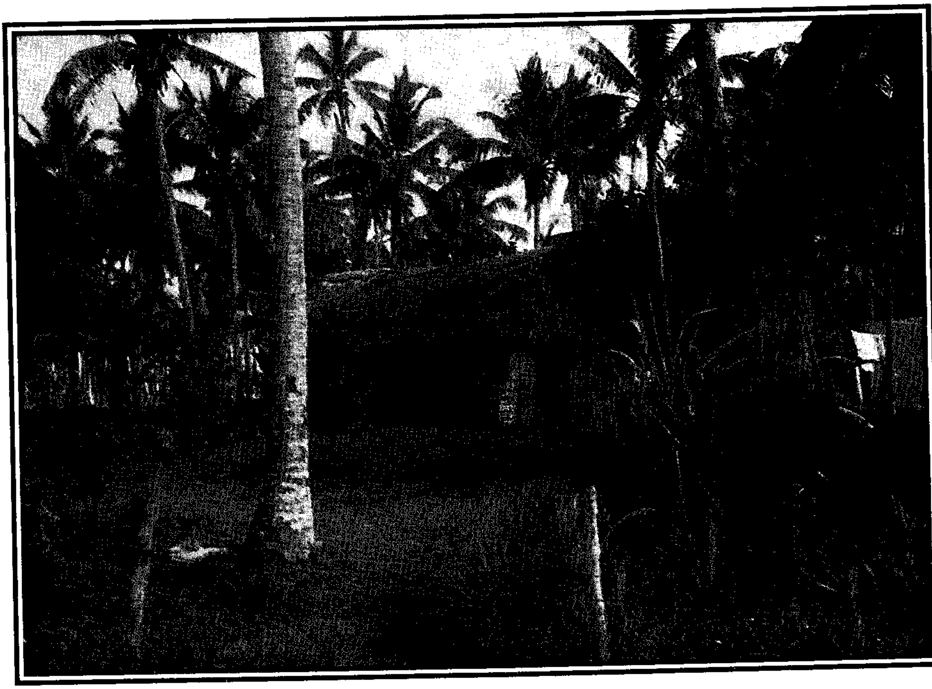
كما رأيت منزلاً أصيلاً من منازلهم، أو لنقل من أكواخهم التي تشبه الأكواخ الأفريقية الراقية، وهو مصنوع من الخشب، ومسقف بالقش على هيئة سنام.

وقد أخبرونا أن هذه هي الطريقة التقليدية في بناء البيوت عندهم، ولا تزال هي الشائعة في الريف، وفي أطراف العاصمة (نوكو الوفا).

ومما يزيد هذه البيوت الريفية شبهاً بإفريقية الاستوائية أنها تقع تحت أشجار النارجيل، وبقربها أشجار المانقو الضخمة، وحولها أشجار الموز، وكل هذه من الأشجار الاستوائية الشائعة في كل القارات، وبخاصة المناطق الاستوائية الإفريقية.

وهناك منازل وطنية متطورة قد جعلوا سقوفها من الصفيح بديلاً من القش، وجعلوا لها نوافذ زجاجية، مع أنها هي منازلهم الخشبية القديمة لم

تكد تتغير بغير هذا، ولكنه التطوير والتحسين عند الموسرين.



بيت تنغاوي أصيل في الغابة

رحل من هنا:

بعد مسيرة ١٧ كيلومتراً في الريف الذي لا يستطيع البصر أن يمتد فيه إلا من خلال الطريق إذا كان مستقيماً لكثرة الأشجار، وصلنا إلى مكان ريفي فيه بيوت ريفية المظهر بنوافذها الزجاجية وطلائها الحسن، وكلها متفرقة في البساتين بحيث لا تجد بيتين متجاورين حتى بالنسبة إلى البيوت التي هي واقعة على الطريق الإزفلتي الذي ما زلنا نسير فيه حتى الآن.

أوقف الرجلان السيارة ثم قصدا بيتاً على الطريق ونادياً من فيه، فأجابتهما امرأة خرجت منه ورطنت معهم، فأشارت إلى بيت قريب هو البيت المطلوب، وقالت: لقد رحل مانو من هنا! وأخبروني أنها قالت لهم ذلك وأنها قالت شيئاً أهم منه، وهو أنها لا تعرف بيت (مانو) الجديد، وكنت أسمع هذا

الاسم يتردد على ألسنتهم مما جعلني أعتقد أنه رجل مشهور عندهم، وتبين لي بعد ذلك أنه رجل معروف مشهور، ولكن المشكلة في معرفة بيته، لأنه في الأرياف، بل في الغابات.

وقد خرجت نسوة من البيوت ومتطفلون فكثر سواد المجتمعين، وهم يتحاورون حول (مانو)، وأنا أتأمل حركاتهم وأشكالهم فأجد أن بعض نسائهم على رؤوسهن شعور طويلة ربما كان ذلك بسبب كثرة زيت النارجيل الذي يفيد الشعر.



وزعت إدارة السياحة في تونغا هذه الصورة لأطفالهم من باب الدعاية

من (فو أو) إلى (توغو مولولو):

و (فو أو) هو المكان أو المنطقة التي نحن فيها الآن، وفيها كان يسكن الأخ فياض مانو، وأما (توغو مولولو) فهو المكان أو المنطقة التي انتقل إليها بعد هذا المكان، وذكروا أن (توغو مولولو) يبعد من هنا ستة أميال، أي

في حدود عشرة كيلومترات.

فتركنا الطريق الإسفلتي وسارت السيارة مع طريق معبد غير مزفلت بمعنى أنه مفروش بالطين الذي رُصَّ بآلة قوية حتى أصبح صلباً، وقد أوغلنا في الغابة بحيث صرنا لا نرى منازل متناثرة على الطريق كما كانت عليه الحال في الطريق الإزفلتية.

وهذا الطريق المعبد ليس كامل التعبيد، ففيه حفر و(مطبات)، وقد غامت السماء واسودّ السحاب، ففرحوا ورجوا خيراً بسبب (الجفاف) الذي ران على جزرهم هذه أشهراً، ثم وصلنا إلى طريق إزفلتية ثانية عليها منازل متفرقة وأكثرها منازل للمزارعين في الغابة، وفيها قليل من البيوت الخشبية المدهونة الحسنة المظهر.

ومع هذه الظاهرة التي قد توحي للمرء بشظف العيش، أو قسوة الحياة فإن مظاهر القوم ليست كذلك، فأجسامهم ريانة، بل هي ممتلئة حتى قل أن ترى فيهم نحيفاً ولو تطلبت ذلك، وملابسهم نظيفة، أو لا بأس بنظافتها، أما ألوانهم فإنها كألوان السمر من العرب الجنوبيين، أو كسمرة الهنود لولا أن مظاهر التغذية الحسنة أظهر فيهم من الهنود.

ليس إلا النارجيل:

ثم أوغلنا في غابة تكاد تكون خالية إلا من النارجيل الذي يبدو متشابكاً كأنما ليحمي هذه الأرض التي لم تتعود على المحل من أشعة الشمس الحارة.

كما يرى الموز الذي له الأهمية الكبيرة في المناطق الاستوائية، لأنهم يطبخون أنواعاً منه يستعملونها غذاء مثلما نستعمل الأرز أو الخبز.

وأما الحيوان الذي رأيته في هذا الريف كله فإنه الخنازير، وكلاب

تعترض الطريق، وخيل قليلة.

وتبين بعد ذلك أن الدليل لا يعرف المكان الذي نحن ذاهبون إليه، لأنه يتكلم مع المارة عن أشياء دون أن يخبرني بها، وإنما سمعته يكرر كلمة (مانو) المألوفة.

ونزل المطر خفيفاً فلطف الجو، وأمسك بغبار الطريق الطينية، وذلك عندما دخلنا من الطريق العام إلى طريق لا يتسع إلا لسيارة واحدة مع الغابة، وهو مليء بورق الأشجار وغير معبد، فقابلنا رجل عاري الأعلى، فأوقفوه تحت المطر يسألونه عن منزل (مانو)، فأشار الرجل إلى جهة أخرى خرج السائق من الغابة وهو يتمهل خوفاً على سيارته إلى الطريق الطيني العام.

ثم دخل ثانية مع طريق طينية ملتوية وسط الغابة، فرأيت كيف يبنون بيوتهم في وسط الغابة، كل واحد منهم يبني له بيتاً منفرداً يزرع ما حوله زراعة بسيطة، وينتفع بما في الغابة من شجر، ويربي بعض الدجاج والحيوان.

وبعض البيوت يكون اثنان منها أو ثلاثة متقاربة خلاف المعتاد، فذكرت بيوت الأعراب في الصحراء التي تكون منعزلة عن بيوت الشعر الأخرى.

اللقاء بزعيم المسلمين:

وصلنا مع هذه الطريق الطينية الوعرة المتعرجة وسط الغابة إلى منزل نظيف المظهر ذي باحة، وهي المكان المكشوف القريب من المنزل الذي يستعمله أهل المنزل لحاجاتهم، وقد أحيط بسور متطامن من الأسلاك الحديدية، وليس بجوار هذا البيت بيت آخر.

ورأينا امرأة بقرب البيت فناداها السائق دون أن يدخل إلى قرب المنزل، وتكلم معها من بعد فأرسلت إليه غلاماً تبين أنه ابن الأخ (فياض مانو)،

وذكرت أن فياض مانو غير موجود هنا، فأسرع الطفل يدعو رجلاً من بيت بعيد، وجاء الرجل يذكر أنه أخ لمانو، بل قال إنه (مانو) أيضاً، أي من الأسرة، وهي أسرة نبيلة يلقب أفرادها بلقب معين، واسم أخيه (فييي هوي مانو).

ركب أخو الرئيس وابنه واسمه (محمد خليل) أو كليل كما ينطقون بها، وهذا هو اسمه بعد إسلام الأسرة، وإلا فإنه كان له اسم آخر مسيحي قبل ذلك، رغم كونه صبياً في الرابعة عشرة، واسمه قبل الإسلام كان (ليساتي فولاي).

وانطلقنا للبحث عن الأخ (فياض مانو) في الجهة التي ذكروا أن المسجد فيها، وذكروا أنه يذهب إليه رغم بعده ما شياً على قدميه.

الأخ فياض:



عند اللقاء بالأخ فياض مانو في الطريق

رأيت في الطريق رجلاً مديد القامة، مهيب الطلعة، عريض الصدر، مقبلاً، فأوقف السائق السيارة عندما سمع مرافقيه يقولون شيئاً آخره: مانو.

وسلمت على الرجل الأخ الكريم (فياض مانو) أول مسلم وأكبر مسلم من أهل هذه الجزر التونغاوية الذي فتح الله بإسلامه عندما فتح قلبه للإسلام قلوب عدة من أهلها.

ورأيت فيه لأول مرة سماحة الوجه، وعراقة الأصل.

وقصصت عليه قصة البحث عنه بغية اللقاء به، وكان يعرف الإنكليزية جيداً، فساعدني ذلك على التفاهم السهل معه، فذكر أنه بعد إسلامه اختار أن ينزل في هذا المكان المنعزل وأن يبيع الأول من أجل عدم اختلاط أولاده وأولاد المسلمين الجدد في أوقات الفراغ حتى يستطيع أن يعلمهم ما علمه من الإسلام، إلا أنه استدرك قائلاً: هذا مع أن معرفتي بالإسلام هي قليلة، وأرجو ألا يطول الوقت على إرسال مدرس لنا يؤمنا في الصلاة، ويفقهنا في الدين، ويعلم أولادنا.

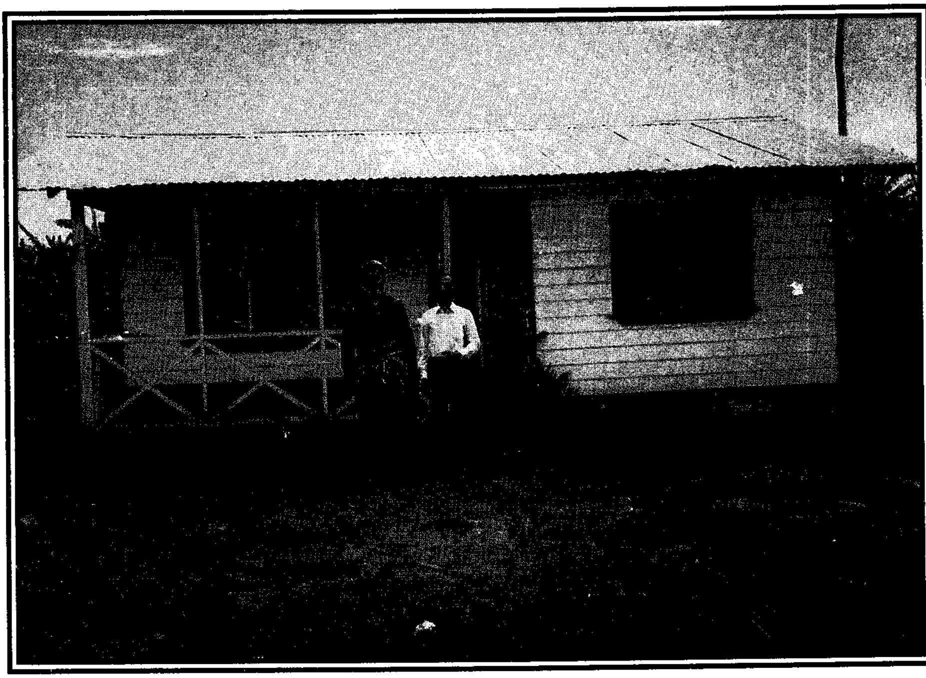
وسألته بسرعة بعد أن التقطت معه صوراً تذكارية والمطر ينزل عن السبب في أن كثيراً من الناس يعرفون اسمه؟ فقال بتواضع: السبب في ذلك أني من أسرة نبيلة في الجزيرة.

إلى أول مسجد:

بعد لقاء مؤثر، وحديث طويل مع الأخ (فياض مانو) كان لايفتأ يتكلم خلاله عن المسجد حتى إذا خرج الحديث عن هذا الموضوع عاد إليه بسرعة، فهو يطمح إلى إنشاء مسجد في جزيرة (تونغا تابو) العاصمة يكون مكاناً للعبادة، ومركزاً للدعوة، ومنطلقاً إلى انتشار الإسلام في هذه الجزر.

ذهبنا لمشاهدة أول مسجد في الجزيرة، وهو دارة أي فيلاً صغيرة

استأجروها لهذا الغرض، وجعلوا الغرفة الكبيرة فيها مصلى، وباقيها على صغره مدرسة.



مع الأخ فياض مانو عند المنزل الذي استأجروه مسجداً

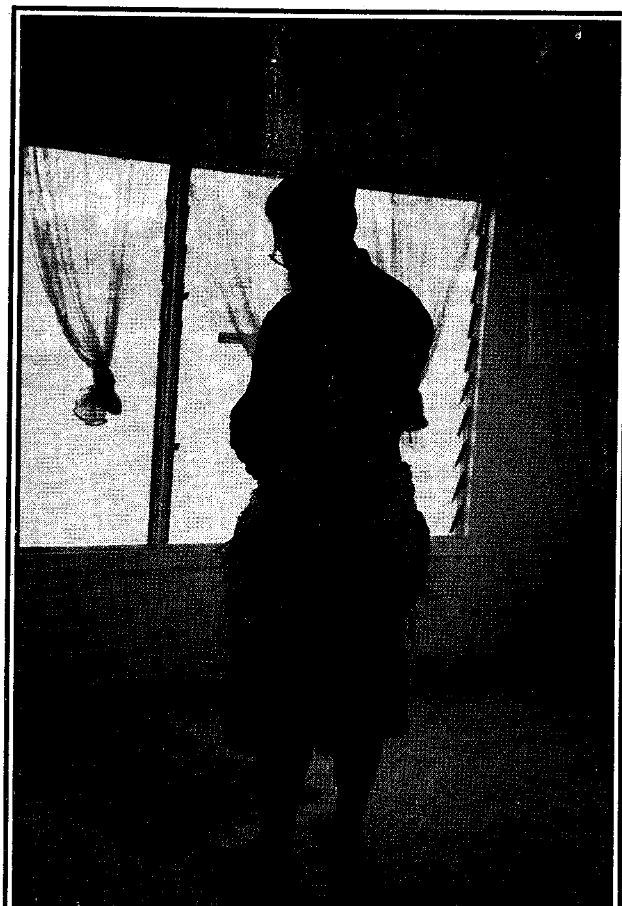
وقد بنيت من الخشب، وسقفت من الصاج، وقد حجزوا مصلى النساء عن مصلى الرجال بستارة من القماش.

وهذه (الفيلا) الصغيرة التي حولت إلى مسجد تقع وسط فناء مكشوف من الأرض تغطيه الحشائش العطشى، وقد جللها اللون الأصفر، وقال الأخ مانو: إن المطر قد احتبس عنا منذ ثلاثة أشهر.

وعند دخول المصلى طلب الأخ (فياض) مني الانتظار ليصلي ركعتين تحية المسجد لأنه على وضوء، فصلى فوق سجادة صغيرة كانت مفروشة في مكان الإمام ركعتين صحيحتين، والتقطت له صورة وهو يصلي، ثم جعلت استعيد في ذهني كون هذه الصلاة لله وأمثالها لم تكن معروفة لأحد من أهل

البلاد الأصلاء قبل سنتين ونصف، وها أنا اليوم أرى هذا الرجل الكريم النبيل عند قومه، وعند الله سبحانه وتعالى بعمله الصالح إن شاء الله، وليس بنسبه وهو يصلي خاشعاً لله تعالى مستقبلاً القبلة على بعد ما بينها وبينه الذي هو أبعدُ بعدٍ على وجه الأرض إذا قيس البعد بوقت طلوع الشمس وغروبها.

دعوت للأخ فياض بعد أن فرغ من صلاته بأن أراه في الحرم المكي قرب الكعبة المشرفة وهو يؤدي الصلاة، فسر بذلك، ودعا الله أن يحققه.



الأخ فياض مانو يصلي في المسجد المؤقت

ثم أخذ يحدثني عن هذا المنزل الذي اتخذوه مسجداً، فذكر أن أجرته

هي ثلاثون دولاراً في الشهر من دولاراتهم، ويساوي هذا ثلاثة وعشرين دولاراً أمريكية على وجه التقريب، أو حوالي ثمانين ريالاً سعودياً.

ويقع في حي يسمى (حي كلانو).

ثم عدنا بالأخ (فياض مانو) إلى بيته، وطلبت منه أن يستأجر لهم سيارة يحضر بها مع من يراه من الإخوة المسلمين إليَّ في الفندق من أجل البحث في أمور المسلمين، واللقاء بهم جميعاً هناك لأنني عرفت أن الأخ (فياض) لا يملك سيارة خاصة.

العودة إلى نوكو ألوفا:

عاد سائق الأجرة وهو يتأفف من طول الوقت الذي استغرقته الرحلة في البحث عن الأخ (فياض مانو) رغم كوني لم أتحدث معه بشيء عن الأجرة، وسوف أعطيه ما يطلبه، ولكن تبين أن الدليلة السياحية قد حددت له أجراً.



الأخ فياض مانو وابن أخيه وأحد المسلمين في غابات تونغا وقد أثر سقوط المطر على الصورة

وعدنا من طريق آخر إلى العاصمة، ويوجد فيه الناس أكثر من الأول، فلاحظت كونهم يخرجون بالشمسيات، وهي التي تسمى في البلدان المطيرة بالمظلات الواقية من المطر، وذلك اتقاء للشمس.

وتأملت بيوتهم القديمة، فلاحظت أنهم يرفعون أسافلها عن الأرض بأخشاب لئلا تنالها الرطوبة الشديدة، أما البيوت الجديدة وإن بنيت على نسق البيوت القديمة، فإنهم يضعون أساسها لبن الإسمنت بديلاً من الأخشاب فيقيها وهي من الخشب رطوبة الأرض.

وكانت العودة إلى فندق (خط التاريخ الدولي) في الثانية عشرة والربع، فطلب السائق أجرته عشرين دولاراً فأعطيته إياها شاكراً.

جولة في جزيرة تونغا تابو:

هذه جولة من الجولات السياحية التي تتم بوساطة الفندق للسياح الأجانب، وتبين أن دليلة الجولة هي المرأة التي استقبلتنا في المطار، وهي موظفة في إدارة السياحة هنا، وقد تجملت هذا اليوم بزهرة وضعتها فوق أذنها كما تفعل النساء في جزر المحيط الهادئ الجنوبي، وعلى وسطها فوطة خفيفة جداً قد أبقتها على هيئة رمز للفوطة التقليدية.

ابتدأت الجولة في الواحدة والنصف ظهراً على أن تنتهي في الخامسة والنصف، أي تستغرق أربع ساعات، وثمنها ثمانية دولارات ونصف من دولاراتهم.

انطلقت حافلة صغيرة في الموعد المحدد، وعليها سائحان معي، ثم مرت بمكان آخر أشبه ما يكون بالمنتجع لأنه منازل متناثرة من طابق واحد، والتقطت منه سائحين اثنين وكلهم جميعاً من الأجانب عن هذه البلاد.

وكان أول ما نوهت به المرأة سوق البلدة التي ذكرت أنه يفتح التاسعة

والنصف ويغلق الواحدة في هذا اليوم الذي هو يوم العطلة الأسبوعية، ولذلك لن نستطيع رؤيته، وكنت مررت به أمس عصراً لقربه من الفندق، وليس فيه ما يحسن ذكره.

التنويه بالكنيسة:

مررنا بكنيسة كبيرة قالت الدليلة إنها حديثه البناء إذ لم يكتمل بناؤها إلا في عام ١٩٨٠م، ورأيتهم قد تأنقوا في بنائها، فبنوها على ما يشبه فن البناء الأصيل في هذه البلاد، غير أنها من مادة معدنية إما من الحديد أو من الألمنيوم، ولها قبة معدنية ظاهرة.

فسألت الدليلة عن عدد الكنائس عندهم؟

فأجابت: إنها أربع عشرة كنيسة، لكنها لمذاهب مسيحية مختلفة، وهذه الكنيسة الكبيرة هي للكاثوليكيين.

فدعوت الله تعالى في نفسي أن ييسر للإخوة المسلمين في هذه البلاد بناء مسجد يكون رفيع المنار، ظاهر الشعار، حتى يكون وجوده شاهداً على وجود الإسلام، ويكون منطلقاً للدعوة إلى الخير، وما ذلك على الله بعزيز.

وتكررت رؤية فوط القش التي تبين أنها من (الجوت)، أو من الألياف التي تشبه الحصر، وتكرر عجبي من بعض المحافظين والمحافظات منهم على ارتداء الفوطة هذه كاملة، فكان منظر بعضهم وهو بهذا الزي هو منظر من حزم فراشه حول جسمه وصار يمشي به.

وعللت وجود هذه الفوطة عندهم بعلة وجود فوطة أخرى، ولكنها من القماش يلفها من يتمسكون باللباس التقليدي من الماليزيين، وهي أنهم ربما كانوا في الأصل يستعملون هذه الفوطة لحفظ ملابسهم من الأوساخ التي تكون في الأرض، ومنها الرطوبة عند الجلوس عليها، ثم استمر هذا التقليد

عندهم حتى بعد أن صاروا يجلسون على مقاعد، وتركوا الجلوس على الأرض.



المؤلف أثناء الجولة السياحية، على يمينه السائق وعليه فوطة مخففة، فالدليلة السياحية التي عليها حزام يرمز للفوطة

وذلك مثلما أن العرب كانوا قد استعملوا العباءة في عهود البداوة والحاجة للتدفئة، ثم استمروا يلبسونها حتى في الصيف حيث لا تدعو إليها الحاجة، أو في الشتاء حيث يمكن الاستغناء عنها بالملابس الصوفية الثقيلة التي توفرت لهم في الوقت الحاضر.

حيث أرسى المكتشف الأول:

جرياً على عادة المغلوبين على أمرهم في تقليد الغالبين أوقفتنا الدليلة عند ميناء صغير قائلة: إن هذا اسمه ميناء الكابتن كوك، لأنه أول مكان أرسى فيه الكابتن الإنكليزي (جيمس كوك) مكتشف أستراليا حين

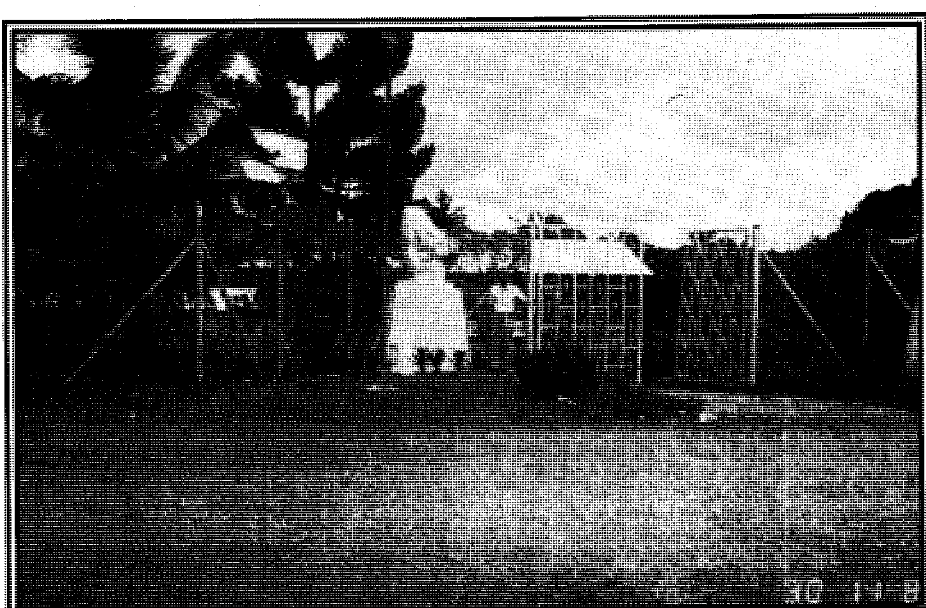
اكتشافه لهذه الجزر أول مرة.

ومع أنه ليس من المألوف ولا من المعقول أن يقول أهل بلد: إن مكتشفنا هو فلان، لأن الأمر بالنسبة إليهم ليس فيه اكتشاف، بل هم موجودون لا يحتاجون إلى اكتشاف، ولكن الأمر هو اكتشاف حقاً بالنسبة للإنكليز وغيرهم من البعيدين عن المنطقة الذين لم يكونوا يعرفون بوجود هذه الجزر قبل أن يكتشفها لهم (الكابتن كوك).

وكان اكتشافها في عام ١٧٧٣م، وقد وضعها اكتشافه على خارطة العالم، وإن لم يكن أول من رآها من الأوروبيين كما سبق.

القصر الملكي:

ومررنا بالقصر الملكي، فأمرت الدليلة السائق بإيقاف السيارة لفسح المجال لمن أراد من السياح أن يلتقط صوراً له، أو يستجلي مظهره.



جانب من سور القصر الملكي في تونغا

والذي رأيناه منه هو سوره الخارجي، عليه بوابة واسعة، ولكنها ليست عالية ولا فخمة، وقد زينوها بتمثالين لأسدين صنعوهما من مادة بيضاء تشبه الجبس، وذكرت الدليلة أن الملك يبلغ عمره الآن ٦٤سنة، ولكنها لم تذكر ما ذكره غيرها من كون عامة الشعب يعتقدون ما كان بعض العامة في اليابان يعتقدونه في القديم في ملوكهم، وهو أنهم من سلالة الشمس، فكذا قيل إن العامة من أهل (تونغا) يعتقدون في ملكهم أنه سليل أسرة منحدرة من السماء،كما بلغنا عنهم.

ولا داعي لتكرار القول بأننا دخلنا في غابات النارجيل لأن البلاد كلها كذلك، وإنما وصلنا إلى مزرعة قالت الدليلة: إنه يزرع فيها الكسافا وهو طعام رئيسي للفقراء في بعض المناطق الاستوائية، وتنبت في باطن الأرض له عروق كأنها جذوع الأشجار، فتستخرج كما يستخرج البطاطس، ثم تعالج ويصنع منها الدقيق و(الدويفة)، وفيه نشأ كثير دون مواد زلالية، لذلك يصاب من يقتصر عليه بسوء التغذية؛ إلا أن ذلك تمكن معالجته بأخذ بعض المواد الزلالية معه كاللبن أو اللحم أو السمك ما أمكن ذلك.

والكسافا رأيته في إفريقية، وحتى في فيجي من جزر هذا المحيط الهادئ الجنوبي، وذقته في مطار مدينة (كانو) في شمال نيجيريا عندما تأخرت الطائرة التي سأسافر عليها، فقدمت الشركة الغداء من مطعم شعبي هناك لا يوجد غيره فيما ذكروا، أو لكونه أرخص من غيره، وقد جاؤوا به على هيئة كرات صلبة أكبر من البيض، ومعه مرق كثير الفلفل، فيغمس المرء منه قطعة في هذا المرق الحار ويأكله، وإنما الشيء الذي سمعته منها الآن هو كيفية الاستفادة من أوراقه لأنهم في إفريقية ذكروا لي أنهم يأكلونها، ولكن لم أعرف طريقتها، وقالت الدليلة: إن الناس هنا يأخذون ورق الكسافا فيطبخونه مع زيت النارجيل الذي هو زيت جوز الهند، فيكون من الخضرات المفيدة.

ورأيناهم مثل الذين أخذوا بالنظافة من أهل المناطق الاستوائية يكثرون من غسل ملابسهم، ونشرها أمام بيوتهم التي أغلبها بيوت صغيرة، لأنها ذات أفنية مكشوفة ينتفعون منها.

ولاحظت أن الدليلة تسلك بنا طرقاً مختلفة، من أجل الاطلاع على طبيعتها، أو من أجل المرور بمكان تعتبره جديراً بالاطلاع، وإن كان دون ذلك في رأي السياح.

والطابع الإجمالي لبلادهم - كما قلت - هو أنها تكاد تكون غابة واحدة متشابكة من أشجار النارجيل الذي تحته أشجار الموز، وفيه أشجار العمبة (المانقو)، وفي الأرض قطع صغيرة مزروعة بحبوب أو خضرات، وأكثر ما في مزارعهم من الحيوان الخنازير، وذلك لأن الخنزير أهون الحيوان تربية، فهو يأكل القمامات حتى النجاسات كما يأكل أوراق الشجر المتساقطة والمتعفنة.

وقد تأملت الفوطة الضيقة التي على سائق الحافلة، فإذا بها من الجوت وكأنها من ملمسها الخيش الخشن.

الخرطوم الأزرق:

أوقفت الدليلة الحافلة عند ساحل صخري في الجزيرة، فسرنا فوق الصخر قليلاً، وهي تشير إلى الشاطئ الصخري وتقول باهتمام (بلو هوز)، وبلو أزرق، والهوز هنا هو الخرطوم، أي الأنبوب من اللدائن، ولم نفهم معنى كلامها أول الأمر، وهي تحاول أن تظهر أهمية ذلك، وتتردد في المكان وتصغي باهتمام إلى شيء لم نفهمه، وتبين بعد ذلك أن (البلو هوز) هو حركة للموج تتكون من وقوعها على الصخور فتحدث صفيراً غريباً، وتؤلف شكلاً يشبه شكل الخرطوم، ولكن الأمواج لم تكن بالقوة المطلوبة هذا اليوم، فقالت آسفة: إنه لا يريد أن يظهر.

وكانت قد قالت قبل ذلك وهي تحث السياح على الإنصات: إن (البلوهوز) لا يحب الضجة.

ومن ثم لم نسمع الخرطوم الأزرق، ولم نره - بالطبع - ولكننا رأينا طبيعة هذا الساحل الصخري تملأ الأمواج مواضع فيه كأنها الحياض، ثم لا تكاد تتسرب إلى البحر ثانية حتى تعود وتملأها، وللأمواج هذه أصوات غريبة عند ملامستها لهذه الصخور ثم انحسارها عنها.

هذا والسائحون الذين معنا كلهم من أصل أوروبي، وهما زوجان مسنان من كندا، وزوجان أكبر سناً جاءا من جزر هاواي مع أنهما فيما يقولان من شمال أوروبا البارد: من النرويج، ولكنهما اختارا بعد أن تقاعدا أن يعيشا في جزر هاواي وما والاها من البلدان الرطبة الدفيئة، وهي في الواقع حارة.

أما الدليلة وهي التي ذكرتها من قبل فاسمها (فولا سافولو)، وهي من أهل البلاد، ولكن من طائفة منهم تتميز ببياض اللون، ولا تشذ عن القاعدة العامة فيهم وهي غلظ الجسم، أي الضخامة فيه حتى من غير سمن.

وقد ارتدت حول وسطها حزاماً من الخيش يشبه الزهور بدلاً من فوطة الخيش الغليظة التقليدية.

وأما سائق الحافلة فإنه من أهل البلاد الأصلاء الذين فيهم جميع الخصائص المعروفة عن أهل البلاد، وعليه فوطة الخيش التقليدية، ولكنها ليست بالغة السعة.

وقد تحدثت الدليلة عن (الهريكان)، أو الإعصار الذي أصاب جزر فيجي ١٩٨٢م بالتخريب، وكنا آنذاك على وشك السفر إليها من مدينة أوكلاند في نيوزلندا، فأغلق مطارها وبقينا ننتظر أكثر من يومين هناك حتى خف عنها الإعصار، أو الهريكان بالإنكليزية، وكانت طائرتنا أول طائرة وصلت مطار فيجي بعد الإعصار، وذكرت الأخبار أن الإعصار عندما

فرغ من إطباق الخراب بفيجي اتجه منها جنوباً جهة جزر (تونغا)، ولم أكن زرت تونغا في ذلك الوقت، وقد ذكرت خبر ذلك الإعصار وما سببه من دمار في كتابي: ((جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ)).

والذي آثار هذا هو الحديث المر الذي حدثتنا به الدليلة عن آثار ذلك الإعصار المدمر وما سببه من خراب للجزيرة، ومنها اقتلاع الأشجار، وتهديم البيوت، وإغراق الشواطئ بطوفان من الأوحال والرمال.

أثل تونغا:

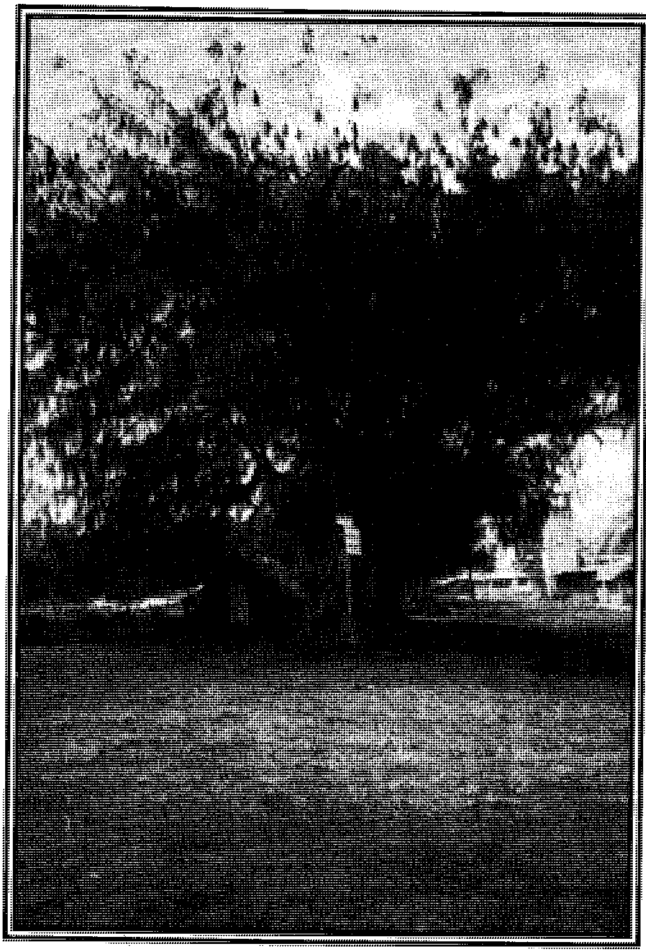
الأثل هو شجرنا الصحراوي المعروف، وكنا في وسط المملكة العربية السعودية نعمل منه الأبواب، وأبواب النوافذ، ونسقف به البيوت، ونعتمد عليه اعتماداً كلياً في وسائل إخراج الماء من البئر بالسواني من البكرات إلى الأخشاب التي نرفع عليها البكرات، إلى جانب الأدوات المنزلية التي تصنع من خشب الأثل، مثل أواني الطعام، والهاون الذي يدق به.

وكنا نعتقد أنه شجر صحراوي لا يعيش إلا في بلاد الصحراء لأننا لا نكاد نجده في البلدان المطيرة أو النهرية القريبة من بلادنا، حتى جاءت النهضة الأخيرة، وجلب شجر يشبهه وما هو به اسمه (جازورينا)، أو الأثل الأمريكي، وشبهه به مثل شبه النارجيل بنخيلنا.

ولذلك فوجئت عندما وجدت الدليلة أوقفت الحافلة وقالت وهي تشير إلى شجرة من أثلنا الصحراوي الذي نعرفه في بلادنا لم يتغير منه شيء وقالت: إنها شجرة جازورينا، إن عمرها لا يقل عن مائتي عام مع أنها لم تقطع أبدا، وقد أصبح جذعها غليظاً جداً.

وتأملتها فإذا هي ليست بالجازورينا، وإنما هي الأثلة العربية الصميمة، لا أدري ما الذي جاء بها إلى هذه الجزر المطيرة، ولكن الذي دريته ولم أعجب له أن مطر هذه البلاد ونداها، بل طلها المستمر لم يمسح عن وجه الأثلة غبرتها

المعهودة، ولم يزل القشف الظاهر على أغصانها وهدبها.



أثلة في تونغا

فسألت الدليلة عن الجهة التي جاءتهم منها هذه الأثلة الصحراوية؟ فأجابت إنها لا تعرف عن أصلها شيئاً، ولكنها تعرف أنها جاءت إليهم من جزر (ساموا).

ولم أعلق على شيء عن (ساموا)، لأنني كنت قررت أن أزورها بعد (تونغا) هذه.

وقد لاحظت أن هذه الأثلة قد عظمت وتفرعت، بل ضخمت حتى صارت

في المظهر بالنسبة إلى الشجر الأخرى كضخامة أجسام السكان بالنسبة إلى أجسام البشر الآخرين، وبخاصة البشر الذي يقطنون في جنوب آسيا الشرقي.

ولاحظت أن أغصانها العالية قد جللتها أعشاش كثيرة لطيور متعددة، وقد اختارتها الطيور لذلك إما لكون هدبها ليناً متقارباً، وإما لمجرد ارتفاعها وعدم قدرة الناس على الصعود إليها.

وأخذت عدة صور لهذه الأثلة التي اعتبرتها غريبة مثلي في هذه البلاد، فسألتني الدليلة عن السبب في ذلك فأخبرتها أنها من شجر بلادنا، فسألتني عن بلادي، ولم تكن تعرف قبل ذلك من أنا فأخبرتها أنني عربي، وسألتها عما إذا كانت قد استقبلت هنا عربياً قبلي فأجابت بالنفي، إلا أنها كررت النظر إلي وقالت: لوني مثل لونك، وليس مثل ألوان الأوروبيين، فقلت في نفسي: إنها قرابة ماسة؟

قود سماركا:

تركنا الأثلة بلونها الأشهب، ومررنا بعدة بيوت ريفية كان مما يلفت النظر في بعض بيوت الأغنياء منها الإكثار من الأزهار أمامها، وأغلبها لا يتطلب السقي مثل الأشجار المعتادة، وذلك في جو غائم لطيف بحيث خلعنا القبعات التي كنا قد احتمينا بها من حرارة الشمس الشبيهة بالاستوائية.

ووصلنا إلى شاطئ بحري، والجزيرة يمكن المرء أن يذهب من شاطئ فيها إلى شاطئ آخر في وقت قصير، وقالت الدليلة: هذا شاطئ (قود سماركا) سنبقى هنا ربع ساعة يشرب فيها من شاء منكم ما شاء من هذا المقصف الذي على الشاطئ.

وقفنا في شاطئ على بحر ضحل المياه، ولم أر فيه ما يستحق أن يوقف عنده لأجله، إلا أنني رأيت صاحب المقصف أعطى السائق والدليلة زجاجة من

الجعة (البيرة) لكل واحد منهما بالمجان.

واختلط السياح الذين معنا بسياح أو بزوار آخرين.

وطلبت شراباً من النارجيل، وهو الماء الذي يشرب من جوز الهند قبل نضجه، أي وهو أخضر أو أصفر قبل أن ينشف ماؤه، ويتكون فيه زيت النارجيل أو جوز الهند المعروف.

ومن لطيف ما رأيته في هذا المقصف، وهو المكان الذي تشرب فيه الأشربة، ويقدم فيه الأكل الخفيف أنني رأيت نساء من أهل البلاد مع الواحدة منهن مروحة من خوص النارجيل تروح بها على وجهها لتبدد الرطوبة وتنشف العرق بها، وهي تشبه المراوح اليدوية التي كنا نستعملها في بلادنا قبل الكهرباء، ونصنعها من خوص النخيل.



الحواجز الصخرية التي تحمي الشاطئ في تونغا

هذا والشاطئ ضحل كما قلت، ومن خلفه جدران صخرية تحت الماء

تتكسر عليها الأمواج خلف الأمواج، ويرى المرء المياه العميقة زرقاء داكنة، وفي هذه المنطقة الضحلة أناس يخوضون المياه يبحثون فيها عن القواقع البحرية.

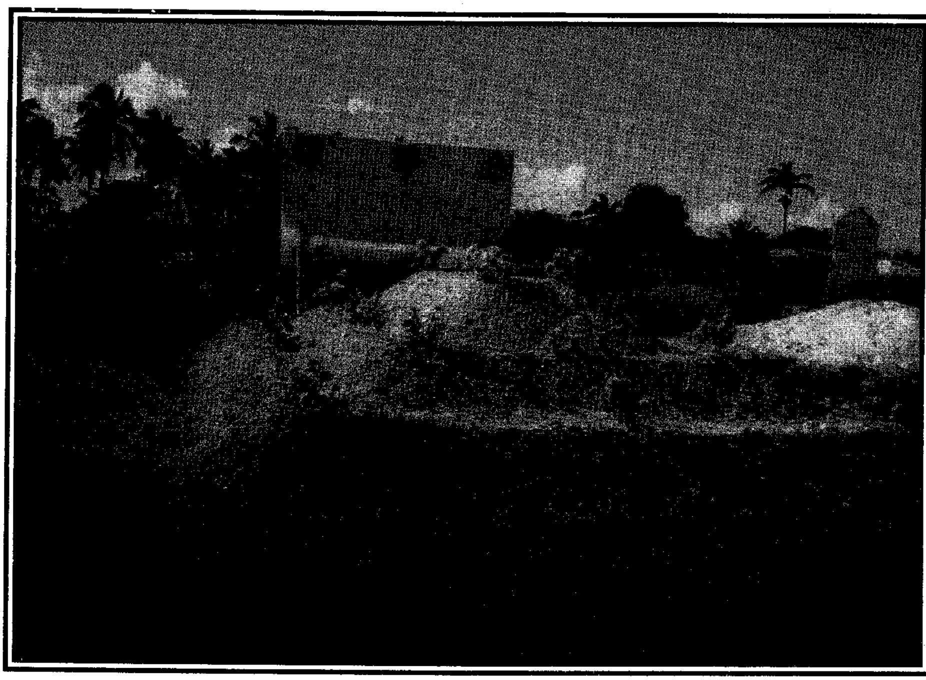
أما القوم وفيهم طائفة هنا من عامة أهل البلاد لأن اليوم هو الأحد يوم العطلة الرسمية، فقد تخففوا من ملابسهم إلا أنهم لم يغيروا الشكل العام لها، فالنساء عليهن القمص التي تصل إلى ما تحت الركبة، وفي أكثر الأحيان إلى نصف الساق، فوقها فوط الخيش الغليظ، والرؤوس في الغالب تكون مكشوفة، وقد تلبس بعضهن مناديل تغطي بها رأسها من باب الاعتياد، وليس من باب التدين بطبيعة الحال.

ولقد ذكرني الجلوس في هذا المكان وطريقة الأكل والشرب ببلاد إفريقية الاستوائية، وبخاصة إذا نظر المرء حوله إلى الأشجار النامية هنا التي لا تختلف عن الأشجار في تلك البلاد، إلا أن السكان غير السكان، فأجسامهم أغلظ، أي أكبر من أجسام الإفريقيين الذين يسكنون تحت خط الاستواء على اختلاف بين الإفريقيين في هذا الأمر، وألوانهم غير ألوان أولئك، فهؤلاء التانغويون هم من البولونيز، وليس فيهم سود، كما أن تقاسيم وجوههم غير تقاسيم وجوه الإفريقيين، فالأنف القصير يكاد يكون معدوماً هنا، والشفاه الغليظة موجودة ولكنها ليست بالشفاه التي تبدو وكأنها مقلوبة، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وأما اللغة فإنك إذا سمعت مقاطعها خيل إليك أن فيها شبهاً باللغات الإفريقية؛ لأن كثيراً منها يتألف من مقاطع قصيرة، ولكنك إذا تأملتها وجدت أنها تختلف عن اللغات الإفريقية في كل شيء.

وشيء آخر يشبه ما هو موجود في بعض البلدان الإفريقية، وهو أن معظم الأعمال التي تحتاج إلى صبر وتنظيم يديرها الأجانب من ذوي الأصول البيض،

فهذا المقصف يديره رجل أوروبي الأصل، ولكنه مقيم هنا منذ سنوات طويلة كما أخبرتنا الدليلة، وبدليل أن لونه قد صار متغيراً بسبب الطقس الاستوائي الرطب في هذه البلاد، كما أن عند مدخل المطار للقادم من الطائرة كنت قد رأيت جنديين أبيضين أي أوروبيين.



قبور مرفوعة عن الأرض في تونغا

مررنا بمقابر من مقابرهم، فرأيت أنهم يجعلونها في مجموعات، كل مجموعة في حدود العشرين والثلاثين في مكان من الأرض يرفعونه عن مستوى الأرض، ويضعون عليه رملاً أبيض من رمل الشاطئ ينقلونه إلى مكانها ربما من أجل ألا تنبت عليه الأعشاب، فيبدو المكان كأنه مكان معتاد، وليس مقبرة، مع أنهم رفعوه عن الأرض قليلاً لكي يتميز عن غيره.

ويكون القبر الواحد مسنماً لا يبعد ارتفاعه عن الأرض التي هو فيها والتي تكون مرتفعة عن باقي المنطقة عن ارتفاع القبور الشرعية عندنا بكثير.

ومن الغريب أن القوم وهم الآن أغلبيتهم من المسيحيين لأن المسيحية دخلت إلى بلادهم مع دخول الاستعمار الإنكليزي، لا يجعلون الصلبان على القبور إلا نادراً، وإنما هم يضعون عليها زهوراً قالت الدليلة: لأن اليوم هو يوم الأحد، أو يتركونها من دون أن يضعوا عليها شيئاً.

ولم أرهم يسورون المقابر، وربما كانوا قد استعاضوا عن ذلك برفع مكان المقبرة عن الأرض كما ذكرته.

شاطئ ها أسافو:

وهو شاطئ رملي نوهت الدليلة بذلك وهي توقف السيارة وتقول: إنه شاطئ صالح للسباحة، وإن الناس يأتون إليه من أنحاء الجزيرة للسباحة، يمكنكم أن تسبحوا هنا لأننا سنمضي هنا نصف ساعة لكي تتمكنوا من السباحة، ولم أسبح، كما لم يفعل الكنديان ذلك، أما الآخران فقد سبحا، وذلك لعدم وجود ثياب سباحة معي، ولأن الشمس حارة جداً.

وقد انتهز الكنديان فرصة الفراغ في الوقت فناما تحت هذه الشمس المحرقة، أما أنا فشربت كوكا كولا بدولار من دولاراتهم، وهي عندنا بأقل من نصف هذا المبلغ، وذلك في مقصف على هذا الشاطئ يتألف من مطعم ومقهاة، ويديره رجل أوروبي مثل الأول.

وكنت طلبت فاكهة من الفاكهة الاستوائية التي تنمو في مثل هذه البلاد، وهي (الأناناس) الطازج، فلم أجد عندهم منه شيئاً كما لم أجد عندهم بطيخاً أخضر، وهو الحيحب عندنا، مع أنني رأيته في السوق أمس.

هذا وقد امتد بنا الجلوس في هذا المكان الذي لا طائل من الجلوس فيه لمثلي.

ثم غادرناه في الرابعة والربع، وبدأنا العودة إلى الفندق، فوقفنا عند

بيوت بل أكواخ ريفية قديمة لالتقاط الصور، ثم وقفنا عند قبر لأحد زعمائهم وهو مرفوع أكثر من غيره.

وقد ذكرت الدليلة أنه لا توجد في جزيرتهم جبال أو تلال مرتفعة.

وعدنا إلى الفندق الواقع في العاصمة (نوكو ألوفا) في الخامسة والربع.

وبهذه المناسبة ربما يجدر بنا أن نذكر أسماء بعض المحلات في هذه الجزيرة، فذلك قد يعطي لمحة عن لغتهم المحلية ذات المقاطع، فمثلاً هناك محلة اسمها (ها أنافو)، وأخرى (نوكو نوكو) بالتكرار، وأخرى (فاهي فا)، و(كانو بولو).

تمشية ليلية:

قلت لعامل في الفندق يحسن الإنكليزية مثل سائر القوم هنا: إنني أريد أن أتعشى الليلة في مكان غير الفندق، فهل يوجد مطعم قريب؟ فقال: إنه يوجد في فندق جوس، ووصفه لي فانطلقت بعد الغروب مباشرة، وكنت وحدي مثل سائر الرحلة، فتخففت من النقود، وسرت ألتمس الفندق، فوجدته بعد لأيٍ، وبعد أن سألت عنه المارة أكثر من مرة، ولاحظت أن بين المارة عدداً من الأسر الذين يتمشون بعد الغروب حينما يطيب الهواء وذلك على أقدامهم، ولاحظت أنهم يسارعون إلى الحديث مع الغريب من دون ريبة.

ولا أدري لم شعرت بالاطمئنان بينهم، وتبين بعد ذلك أنه اطمئنان في محله مع أن غربتي ظاهرة؛ إذ أشكالهم لا تقرب من أشكالنا.

وكان (فندق جوس) يقع في محلة داخلية ليست على شاطئ البحر، فلاحظت كثرة الحشرات الصغيرة في المحلات الداخلية، وضعف الإضاءة عندهم، فوجدت الفندق هذا مغلقاً، ولا أدري السبب مع أن اليوم هو الأحد.

فرحت أبحث عن غيره، ورأيت رجلاً يمشي معه ثلاث نساء وطفل،

فسألته عما إذا كنت أجد مطعماً فأخذ يحدثني قليلاً ثم قال: هناك مطعم شعبي داخل الحارة، ثم ذهب معي وجميع من معه، وسلك طريقاً لم أكن أستطيع المشي فيها إلا بالسير خلفهم لأنني لا أبصر ما تحت قدمي، وأحياناً يمسك الرجل بيدي ليدلني على الطريق، وتبدو البيوت المتطامنة المتفرقة في ظلمة الليل وكأنها قطع مظلمة أيضاً لأنها واقعة تحت ظلال الأشجار.

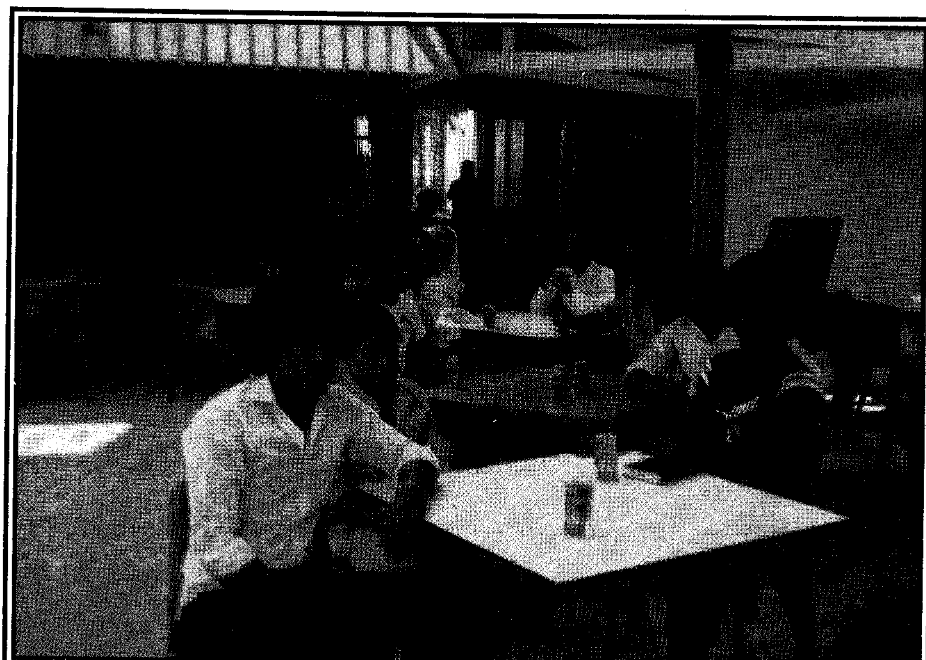
ثم أوقفني على حانوت يبيع بطاطس مقلية ولم أكن أشتهيها، فاشتريت له ومرافقيه شيئاً منها.

واستفدت من حديث الرجل ومن معه عن أحوال هذه البلاد، ثم طلبت منه أن يوصلني إلى فندقي لأنني لا أدري أين أذهب في هذا الظلام، فسار معي حتى وصلت إلى شارع الشاطئ الذي يقع عليه فندقي.

يوم الإثنين: ٢٠/٢/١٤٠٦هـ - ٢/١٢/١٩٨٥م

الاجتماع مع المسلمين:

كان يوم أمس يوم الاجتماع بأول مسلم من أهل البلاد الأصلاء، وهو الأخ (فياض مانو) كما تقدم، فكان الاتفاق معه على أن يكون اجتماعنا بالإخوة من المسلمين الجدد في هذا اليوم.



الاجتماع مع المسلمين وكلهم حديث عهد بالإسلام في فندق خط التاريخ الدولي

وقد حضر الأخ فياض وأحضر معه تسعة من الإخوة المسلمين الجدد، وبعد السلام في مقهاة الفندق الواقعة في الحديقة كان التعريف بالإخوة المسلمين الجدد، فكان يذكر الاسم الإسلامي للشخص، أي الاسم الذي أصبح يسمى به بعد إسلامه، وأنا أطلب منه أن يذكر لي اسمه قبل الإسلام من باب المقارنة، فكانت بعض الأسماء:

الأخ محمد خليل، واسمه قبل الإسلام: سويني تاوتا ليلي.

الأخ محمد علي كوري، واسمه القديم: كوري مافيلو.

الأخ عبد العزيز، وكان اسمه القديم: كرستوفر كاومافا.

مصطفى، واسمه القديم: سيسكو مايا ماكلوا.

محمد إلياس: لوي مانو.

تيابا: برو مغل.

ثم قدم الأخ فياض أخاً مسلماً قال: إنه من أحدثهم إسلاماً، واسمه نييو سافيتاناو، وقال: إننا كنا عزمنا على تسميته باسم (عبد الله)، والآن ولمناسبة قدومكم نرى أن نسميه: (عبد الله العبودي) على اسمك أنت العبودي.

فشكرت لهم مجاملتهم وقلت: إن المهم هو أن يكون الاسم الشخصي له اسماً إسلامياً، أما إذا كان اسم أسرته لا يدل على شرك أو كفر كأن يكون معبداً لأحد، أو له معنى يخالف شيئاً من المعلوم بالضرورة أنه من الإسلام، فلا مانع من إبقاء اسم أسرته.

ثم حدثنا الأخ فياض والقوم من المسلمين يسمعون عن سبب إسلامه فقال: لقد التقيت بمسلم من (نا سوري) في جزيرة فيجى اسمه لاقي إسماعيل، كان جاء إلى تونغا في عام ١٩٨٣م، وحدثني عن الإسلام وأن المسلمين يعبدون الله سبحانه وتعالى وحده، ولا يعبدون النبي محمداً، لأنه بشر مثلهم شرفه الله بالرسالة، وأرسله إلى الناس كافة، ولكنه لا تجوز عبادته، ثم أخبر أن الإسلام يقرر أن الرسل كلهم حق، وأن آخرهم هو محمد رسول الله ﷺ.

وقال الأخ فياض: لقد انشرح صدري للتوحيد، لأنني كنت أعتقد أن عيسى هو ابن الله، وأنه يستحق أن يعبد مع الله، أما الدين الإسلامي، فإنه

يقرر أن اللّٰه تعالى وحده هو الذي يُعْبَد، وما محمد رسول اللّٰه إلا واسطة لإبلاغ الرسالة الإلهية، ولذلك لا يعبد، ولا يجوز أن يشرك مع اللّٰه أحد في عبادته لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب.



تذكارية في ريف تونغا مع الأخ فياض مانو، على يساره ابن أخيه، وعلى يميني أحد المسلمين (تحت المطر).

قال: والسبب في ذلك أنني كنت أعتبر من رجال الدين المسيحي، فقد تعلمت تعليماً مسيحياً، ثم عينت مدير مدرسة مسيحية، ولذلك كنت أفهم المقارنة بين الأديان من هذه الناحية.

قال الأخ فياض: فأسلمت، وكنت أول مسلم من أهل البلاد الأصلاء، ولم يكن قبلي منهم أحد من المسلمين، وإنما نعرف رجلاً من أهل الهند اسمه (علي) كان أقام هنا، ولم يكن لنا به اتصال.

قال: وكان اسمي مانو، فغيرت اسمي إلى (فياض مانو).

قال: والآن بلغ عدد المسلمين أكثر من مائة شخص من أهل البلاد الأصلاء، فقد أخذت أدعو المواطنين إلى الإسلام، فهدى الله طائفة منهم إليه، ومازالوا في ازدياد ولله الحمد.

حاجات المسلمين الجدد:

أوضح الأخ فياض ومن معه من المسلمين الذين لم يتفقهوا في الدين بعد، لأنه لم يوجد من يفقههم فيه حاجاتهم للمحافظة على دينهم، وأهم ذلك لديهم إرسال مرشد ومدرس لهم، لأنه إلى جانب حاجتهم الماسة فإنهم في ضرورة إلى تعليم أولادهم الإسلام إذْ كيف يعلمونهم؟.

ثم إنهم ذكروا لنا أن هناك إمكاناً لدخول مزيد من الناس في دين الله أفواجاً، ولكن المشكلة عندهم في كيفية تعليمهم أمور دينهم، لأنهم ليست لديهم من ذلك معرفة كافية كما قالوا، وهم على حق في ذلك.



الأخ فياض مانو (باللباس العربي) أول مسلم من تونغا. على يمينه المؤلف

والأمر المهم الثاني هو بناء مسجد متكامل، وليس مركزاً بمثابة بيت صغير، فهذا الأمر سيكون - إذا تم - معلماً إسلامياً بارزاً في هذه البلاد، ومظهراً من مظاهر وجود المسلمين إلى جانب كونه مركزاً إشعاعيا إسلامياً.

وقد قال الأخ فياض: إنه توجد أرض جيدة واسعة بجانب القصر الملكي، على شارع رئيسي وهي لملك تونغا، ولا يبيعها بيعاً، ولكننا نجزم أنه لو جاء إليه طلب من جلالة ملك المملكة العربية السعودية بأن هذه الأرض سيبنى عليها مسجد للمسلمين، فإن ملك تونغا سيوافق على ذلك.

قال: وأما إذا لم تكن هناك كتابة لملك تونغا، فإنه يمكن شراء أرض غيرها وإقامة مسجد عليها.

قالوا: والأمر الثالث هو شراء سيارة يتنقل عليها الأخ فياض ومن معه من المسلمين الجدد لدعوة الناس من أهل الجزيرة إلى الإسلام، وبيان حقائقه لهم، لأنهم لا يملكون سيارة، وقد استأجروا سيارة نقل صغيرة هذا الصباح جاءت بهم إلى الفندق، لأن المحلات في الجزيرة متباعدة.

والأمر الرابع: أنهم يريدون إرسال المزيد من أبنائهم إلى بعض البلدان القريبة من جزرهم من البلاد التي يتوفر فيها تعليم إسلامي ولو كان محدوداً مثل جزر فيجي، لأن الأخ فياض قد أرسل بالفعل اثنين من أبنائه إلى هناك، وذكروا أن الطالب الذي يرسل إلى هناك يحتاج إلى نفقة تترواح بين مائة دولار أمريكي ومائة وخمسين دولاراً في الشهر.

وذكروا أشياء أخرى منها مثلاً عدم وجود الكتب الإسلامية بالإنكليزية هنا، ولكنها موجودة في أستراليا وفيجي، ويمكن استجلابها إذا وجدت قيمتها.

وقد أخبرتهم بأن رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة يسرها أن تسهم في الاستجابة لما طلبوه، ومن ذلك إرسال مدرس ومرشد لهم ممن

يحسنون اللغة الإنكليزية، كما أنها يسرها أن تساعدهم على دفع أجرة البيت الحالي الذي اتخذوه مسجداً، وأنني أعلن لهم هنا باسم الرابطة أن الرابطة تتبرع لهم بعشرة آلاف دولار أمريكي إضافة إلى ما سبق أن تبرعت لهم به بوساطة اتحاد الجمعيات الإسلامية النيوزلندية في السابق، وقدره ثمانية آلاف دولار أمريكي.

أما موضوع بناء مسجد في الجزيرة فإنه أمر مهم جداً، وأرى أن يحاولوا أن يجمعوا هم ما يتيسر من المال، أو أن يطلبوا من حكومتهم منحهم قطعة أرض مناسبة ليقيموا عليها مسجداً لا سيما بعد أن كان قد تم تسجيل جمعيتهم تسجيلاً رسمياً، وسوف نقدم لهم بعد ذلك مساعدة مجزية بإذن الله.

وأما موضوع تعليم بعض أبناء المسلمين تعليماً إسلامياً في أحد البلدان المجاورة فهذا مناسب، بل هو ضروري، وسوف نعمل على رصد بعض المال اللازم لنفقة هؤلاء الدارسين، ونعدهم بعد أن يكملوا دراستهم هناك أن نخصص لهم منحاً دراسية في المملكة العربية السعودية، وأن تتحمل رابطة العالم الإسلامي جميع النفقات اللازمة لذلك.

وقلت لهم: إننا يسرنا أن ندعو الأخ فياضاً واثنين معه من كبار المسلمين لأداء فريضة الحج ضيوفاً على رابطة العالم الإسلامي مع دفع نفقات السفر كلها.

أو أن ننظر في أن ندعوهم لزيارة رابطة العالم الإسلامي وأداء مناسك العمرة في غير وقت الحج من أجل التعارف والبحث مع المسؤولين في الرابطة في التعاون على أمور الدين.

وكان هذا الاجتماع مفيداً جداً، وبخاصة إذا تذكرنا أن هؤلاء الإخوة كلهم قد دخلوا في الإسلام قبل أقل من سنتين، وأنهم كلهم من أهل البلاد الأصلاء الذين يمكن أن يدعوا قومهم من أهل البلاد إلى الإسلام بلغتهم،

وبالطريقة التي يفهمونها، وأن ذلك ستكون له نتائج جيدة بإذن الله.

وبقي أن نقدم نحن والإخوة المسلمون في أوطان المسلمين ما نستطيعه من تعضيدهم على الدعوة، وتأييدهم وتثبيت إسلامهم، وتفقههم فيه، على أمل أن تكون جزيرة تونغا هذه منطلقاً للدعوة الإسلامية في منطقة جنوب المحيط الهادئ البعيد، فيهدي الله بهم من جيرانهم أهل الجزر من قد يفتح الله قلوبهم للإسلام، وما بذلك على الله بعزيز.

وفي ختام اللقاء التقطنا صوراً تذكارية للاجتماع في الفندق، ثم صوراً تذكارية في خارج الفندق.

ومن الطريف هنا أن الأخ (فياض مانو) جاء اليوم وهو يرتدي الملابس العربية التي صار يرتديها بعد إسلامه، وهي القميص العربي فوقه غطاء الرأس كوفية (غترة) وعقال، أما أنا فقد كنت أرتدي الزي العالمي المسمى بالإفرنجي.



صورة تذكارية مع المسلمين عند مدخل فندق خط التاريخ الدولي في تونغا، على يساري الأخ فياض مانو عليه الملابس العربية

وبمقارنة حجم الأخ فياض مانو بطول جسمي وصغره عندما وقفت معه في الصورة يتبين لك ما ذكرته عن غلظ أجسام القوم الذي أريد به ضخامة أجسامهم حتى من دون سمن كما في هذه الصورة.

وقدمت هدايا تذكارية للأخ فياض مانو ولابنه ولأهله وبعض كبار المسلمين، ثم ودعت هذا الأخ الكريم ومن معه بالدعاء أن يقدر الله الاجتماع التالي بهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة حجاجاً ومعتمرين.

نظرة وداع:

لم يتبق إلا ساعات على مغادرة جزيرة تونغا، ولذلك ذهبت مع سيارة أجرة إلى مكتب الشركة النيوزلندية في سوق البلدة الذي كان مغلقاً أمس الأحد فيما ذكروا، فأردت التأكد من الحجز وأن ألقي أثناء ذلك نظرة وداع على هذه الجزيرة الوادعة وأهلها المسالمين.

فوجدت سوق البيع والشراء الرئيسي مؤلفاً من حوانيت ليس فوقها أبنية، ومعظمها من لبن الإسمنت ومسقفة بالصفيح، وهي مع سائر السوق نظيفة جيدة ذات أرصفة معتنى بها.

ورأيت المتسوقين والمتسوقات من أهل البلاد، فلم أرَ في الشابات من النساء من هي في ثوب قصير، وأما المسنات فإنهن يمشين في حصر قد لفتها الواحدة حول خصرها، وتتمثل الحداثة والتحرر في هذا الزي بأن تكون الفوطة من الحصير هذه قصيرة، أما التحرر الكامل منها على النساء فإنها تكون في ارتداء فوطة ضيقة جداً حتى تبدو كالحزام يتدلى منه جزء صغير ليرمز إلى وجودها، ولقد طال عجبي من صبرهم على لبس هذه الفوط، أو لنقل: الحصر في جو بلادهم وهو حار رطب وبخاصة في وسط النهار، والأغرب من ذلك أن الحصير: الفوطة قد يكون رث المنظر، وهو فوق ألبسة جميلة أنيقة.

ومما لاحظته بنفسي، وأخبرني به المخبرون أن هذه الجزر (تونغا) هي آمنة؛ فليس فيها اضطرابات سياسية، ولا انتهاب أو اعتداء على الأجانب، بل إن معاملة أهلها للأجانب هي معاملة طيبة غير متكلفة.

ومن الملاحظة في اللباس التقليدي للرجال أنك لا تجد فيهم من يقتصر على لبس السروال وحده مع البدلة، وإنما يلف حول وسطه فوطة الحصير، ولو كان قد لبس بدلة كاملة، ويتدلى من رقبته رباط العنق.

وما عدا قلة من الشبان الذي أخذوا يلبسون اللباس العالمي المسمى بالإفرنجي مخففاً، وهو القميص والسروال، فهؤلاء ليسوا من المحافظين، ولا من الأغنياء.

مغادرة تونغا:

دفعت لفندق (خط التاريخ الدولي) مائة دولار أمريكي أخذوا منها ١١٤ دولاراً من دولاراتهم أجرة الفندق لليلتين مع الطعام والإفطار والغداء ليوم واحد وثمن الجولة السياحية وأجرة القدوم من المطار إلى الفندق لأنهم قيدوها على حسابي في الفندق، وبقي من ذلك ٢٤ دولاراً من دولاراتهم، وهذا رخيص كما ترى، وهو أمر يحرصون على استمراره، وعلى استمرار المعاملة الطيبة لمن يقدمون عليهم، لأنه يفيدهم دخلاً سياحياً لا يستطيعون أن يوجدوا بديلاً منه بجهودهم الذاتية كالصناعة والزراعة المتطورة لأنهم أعجز عن ذلك، ومعظم السياح الذي يأتون إليهم هم من أستراليا ونيوزيلندا وبعض الأمريكيين الذين يأتون لزيارة المنطقة كلها.

ثم خرجنا إلى المطار على الحافلة الصغيرة التي قدمنا بها إلى الفندق وبصحبة الدليلة العتيدة، ومعنا ثلاثة من نزلاء الفندق.

وعند مكتب الترحيل قال لي الموظف وهو يرى جوازي سعودياً: (لونغ وي) أي طريق طويل؟ ثم استطرد فقال: أعني بعيداً جداً!. قلت: نعم، والأصح

أن يقال: أطول طريق، لأن بلادنا في منطقة هي أبعد مناطق العالم عنكم.

وسألني أأنت وحدك؟ فقلت: نعم.

ولم أكن قد ألقيت بالاً لكوني وحيداً فأنا قد تعودت على ذلك، ولم أجد أية صعوبة في هذا السفر الطويل وحدي، وفي هذه الجزر بالذات لم أشعر بأي مشقة، ربما كان ذلك لوجود الإخوة المسلمين الجدد، ولكون اللغة الإنكليزية هي الشائعة هنا.

وعندما أنهينا الترحيل كان قد بقي وقت على موعد قيام الطائرة المقرر أن يكون في الثالثة ظهراً، فخرجت أتمشى حول أبنية المطار الصغيرة، فرأيت تمثالاً ضخماً وحيداً لملك هذه البلاد الملك (توفها توباؤ) منتصباً في ساحة تطل على المدرج، ولم أستغرب ضخامة التمثال لما في ذهني عن ضخامة أجسام الناس، وإنما استغربت كونه منفرداً في الفناء، وربما أقاموه هنا من أجل أن يراه القادمون إلى الجزيرة بالطائرات، لأنها أصبحت أكثر وسائل النقل شيوعاً لمثل هذه الجزر الواقعة وسط مياه المحيط الهادئ العظيم.

وقد أحاطوا المنطقة التي فيها التمثال بسور من الأسلاك، لذلك لم أستطع الاقتراب منه لتصويره، وإنما صورته من بعد.

ثم دخلنا إلى قاعة المغادرة وهي صغيرة بحيث كان عدد من المسافرين يقفون فيها لم يجدوا فيها المقاعد الكافية، ولكنها نظيفة، وحتى الحمام كان نظيفاً بشكل جيد، رغم كون القوم يصنفون مع الأقوام المتخلفة عن المدنية.

وفي قاعة المغادرة حانوت (دكان) صغير يبيع هدايا تذكارية من صنع أهل البلاد، ومنها مراوح يدوية من خوص النارجيل صغيرة قد صنعوها على هيئة القلب، ليست مربعة كما نصنع نحن مثيلاتها من خوص النخيل، ولا مدورة كما يصنعها الناس في بلاد إفريقية.

والمراوح هنا لازمة للناس بسبب الحر والرطوبة، فهي تبدد الرطوبة فتعين على دفع الشعور بالحر.

وهناك أشياء أخرى يصنعونها بالأيدي مثل ريش من ريش الطيور قد صفوه ونسقوه وربطوا ما بينه، وهو يعلق في الدار للزينة، فاشتريت من ذلك ومن غيره بما بقي معي من عملتهم كله.

إلى جزر ساموا

ساموا:

تقع جمهورية جزر ساموا، أو ساموا الغربية في منتصف الطريق بين استراليا وهونو لولو، ومساحتها ٢٨٤٣ كيلومتراً مربعاً.

وقد استقلت عن الحكم البريطاني سنة ١٩٦٨م بعد استعمار منذ سنة ١٩١٤م، وكانت قبل ذلك محمية ألمانية بين سنتي ١٨٨٩ - ١٩١٤م، وسكانها ١٥٠ ألف نسمة، وعاصمتها بلدة (آبيا) التي يقطنها نحو ٣٠ ألف نسمة، والبلاد عضو في هيئة الأمم المتحدة والكومنولث البريطاني.

وتعتمد في اقتصادها على الزراعة، وخاصة تصدير الكاكاو، والموز، والأناناس، والمطاط، وجوز الهند، والبرتقال، ثم صارت تنتج السكر، والأرز، والبن، والنارجيل، والتبغ، وهناك بعض المعادن، وتربى الماشية، ويصطاد السمك من مياهها.

وتعتبر الحياة المعيشية جيدة بين صفوف السكان، والتعليم نامٍ، ويعود غالبية السكان إلى أصول البولينيز، ولهم لغات محلية بينما الإنجليزية هي الرسمية.

وجزر ساموا حارّة طوال العام، وأمطارها كثيرة متواصلة، وتمتاز بمناظرها الخضراء لوجود الأشجار في سفوح الجبال المتوسطة الارتفاع، لذا فهي من الجزر الصالحة للسياحة.

وقد اكتشفت على أيدي الهولنديين سنة ١٧٢٢م، ثم تنازعها الأوروبيون حتى سقطت بيد الألمان، ثم الإنجليز، ثم خضعت للحاكم العام البريطاني لنيوزيلندا في سنة ١٩٢٠م، حتى استقلت ساموا الغربية، وبقيت ساموا الأمريكية يحكمها حاكم عسكري بحري عام.

الموقع:

تقع جزر ساموا الغربية بين خطي عرض ١٣° و ١٥° جنوب خط الاستواء، وخطي طول ١٥٦° وَ ١٧٣° غرباً، ويمر التوقيت العالمي بين ساموا وفيجي، فإذا كان اليوم هو السبت في ساموا الغربية فهو الأحد في فيجي، وتقع ساموا الغربية على بعد ٨٠٠ ميل فقط شمال شرق سوفا (suva) عاصمة فيجي.

وتتكون ساموا من جزيرتين رئيستين هما أبولو (upolu)، وسافاي (savaii)، وجزر مأهولة أصغر هي أبوليما (Apolima)، ومانونو (Manono)، وجزر أصغر غير آهلة بالسكان، وأشد الجزر كثافة سكانية هي أبولو صغرى الجزيرتين الرئيسيتين؛ حيث توجد مدينة آبيا (Apia) التي تعتبر العاصمة الإدارية والمركز التجاري للجزر، وآخر تقدير لعدد سكان الدولة هو ١٨٠ ألف نسمة.

وقد تعرضت ساموا للاضطرابات منذ عام ١٨٣٠م عندما أسس المبشر جون ولياميز John Willims أول الإرساليات التبشيرية النصرانية الثابتة في ساموا إلى عام ١٩٠٠م عندما اقتطعت الجزر الغربية من توتويلا (Tutuila) ومجموعة مانوا (Manua) الشرقية.

لقد سيطرت ألمانيا على الجزر الغربية مقابل أن تتنازل عن بعض المناطق للبريطانيين في جزر سليمان الغربية، كما استولت الولايات المتحدة الأمريكية على الجزر الشرقية، وكان الثمن هو ميناء باجو باجو (Pgopago) العميق الذي أرادت الولايات المتحدة الأمريكية الحصول عليه مقابل محطة فحم في وسط المحيط الهادئ.

كانت ساموا قبل الاستعمار وتقسيم الجزر دولة واحدة تتحدث لغة واحدة، ولها تراث واحد، وقيادة واحدة، وأدت المناوشات بين رؤساء القيادات السياسية على ملكية تافيفا (Tafaifa)، التي حدثت ما بين عام ١٨٣٠م وَ

١٩٠٠م إلى سلسلة من الحروب الأهلية، وكانت الإرساليات التبشيرية الأجنبية والمزارعون والتجار وممثلو قنصليات القوى العظمى في ذلك الوقت منحازة إلى جانب أو آخر، وكانت نتيجة تلك السياسة أن جعلت القوى العظمى توافق على أن الإلحاق هو الحل، فقامت ألمانيا بحكم ساموا الغربية إلى أن حلت محلها نيوزيلندا مع بداية الحرب العالمية الأولى.

وفي عام ١٩٢١م عهدت عصبة الأمم لنيوزلندا بإقامة حكومة مسؤولة في جزر ساموا الغربية.

ولم يقبل أهالي ساموا الغربية بالسيطرة الغربية أبداً، فبعد خمسين عاماً من الكفاح السياسي كانوا أول من نال الاستقلال من مستعمرات المحيط الهادئ.

وقد أدت تلك التجارب إلى نشوء موقف يتسم بالشك بين الأهالي تجاه العالم الخارجي، فإلى يومنا هذا يتخذ حكام ساموا موقفاً حذراً من أي تغيير كبير يمكن أن يؤثر على سيادتهم وعلى طريقة معيشتهم.

فيجب وضع ذلك في الحسبان عند محاولة فهم موقف الأهالي والحكومة من التنمية السياحية.

وتصنف ساموا الغربية مثل العديد من الدول الصغيرة حديثة العهد بالاستقلال كدولة متخلفة، فقد قال رئيس وزراء ساموا الغربية أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة بمناسبة انضمام بلاده إليها في عام ١٩٧٦م: إنه يعتبر بلاده ساموا جزءاً من العالم الثالث، فبمعايير الـ جي إن بي (GNP) تصنف ساموا مع دول مثل بنقلادش وغيرها من الدول الفقيرة.

رغم ذلك يتمتع أهالي ساموا الغربية بمستوى معيشي مرتفع نسبياً، وأغلبهم يعيشون في قرى ريفية بديعة، ويتناولون غذاءً كافياً، ويديرون شؤونهم الخاصة من خلال مجالس الرؤساء واللجان التي تدير الأنشطة الاجتماعية.

ولكن المشكلات تلوح في الأفق، فقد ازداد عدد السكان عن تقديرات بداية القرن التاسع عشر التي بلغت ٤٠ ألف نسمة إلى تقديرات ١٩٨٠م التي بلغت ١٨٠ ألف نسمة بزيادة سنوية تقدر بـ ٣٪ ، والنتيجة ضغط متزايد على الأرض والموارد البحرية القريبة من الشواطئ.

لقد أوجدت الفرص التعليمية الكبيرة التي توفرت لأطفال ساموا منذ الخمسينات من هذا القرن تطلعات أكبر بين الجيل الجديد مثل عدم الرضى عن الحياة في القرى، والتطلع إلى الحصول على وظائف في آبيا ، أو فرصة للهجرة إلى نيوزيلندا أو الولايات المتحدة الأمريكية.

فقد بلغ معدل الهجرة السنوية من ساموا الغربية ٩٣٦ شخصاً خلال الأعوام من ١٩٥٥م إلى ١٩٦٦م حيث بلغ عدد المهاجرين ١٠ آلاف شخص.

وبحلول عام ١٩٦٦م كان أكثر من ٨٪ من كل سكان ساموا الغربية يعيشون في الخارج، ومن المؤكد أن النسبة الآن أكبر بكثير.

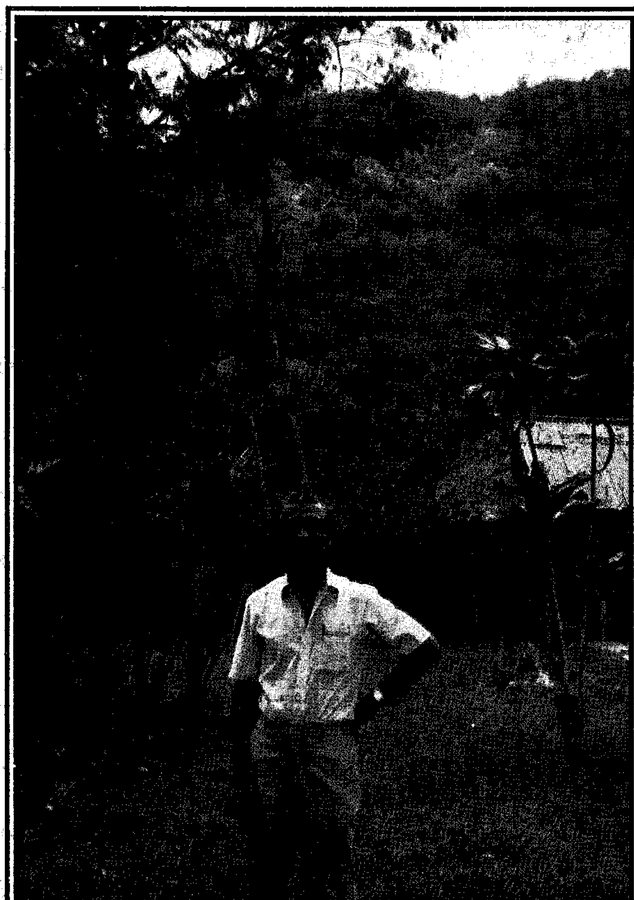
وفي عام ١٩٧٦ - ١٩٧٧م خفضت نيوزيلندا من تدفق المهاجرين إليها من ساموا بسبب الركود الاقتصادي فيها ، كما رحلت المئات ممن انتهت مدة إقامتهم في نيوزيلندا ، ويمثل هؤلاء العائدون فئة أخرى ممن هم غير راضين عن الحياة الريفية ، وممن لهم تطلعات وقيم جديدة.

لقد أوجدت هذه العوامل مطلباً عاماً ، بمعيشة أكثر رخاءً بالمعايير الغربية ، فأصبحت الأطعمة المستوردة ، والسلع الاستهلاكية عنواناً للحياة المترفة ، وأخذ الناخبون يطالبون ممثليهم السياسيين بتشجيع التنمية الصناعية ، وذلك لإيجاد وظائف وفرص للكسب ، ولكن ذلك سهلٌ قوله ، صعبٌ تنفيذه بالنسبة لدولة صغيرة معزولة قليلة الموارد.

وقد أبدت حكومة ساموا اهتماما متزايداً بالسياحة ، لأن لدى ساموا الكثير مما يمكن أن تقدمه للسياح، فالجمال الطبيعي، والمناخ اللطيف،

والتراث المحلي مميزات مطلوبة، وأخذت الحكومة المبادرة في عام ١٩٦٩م وذلك بالتعاون مع بنك التنمية الآسيوي ببناء مطار حديث صغير.

كما أسهمت في إنشاء برنامج طويل المدى لتحسين البنية التحتية للمواصلات، فالطرق المهدة تجعل المزارعين يصلون إلى الأسواق بسهولة ويسر، كما تنفي الحاجة إلى الهجرة إلى المدن، حيث يستطيع ساكنو القرى الذهاب إلى المدن والإياب منها في اليوم نفسه.



المؤلف في ساموا

ولقد نمت السياحة بسرعة منذ عام ١٩٦٥م.

ويقوم طيران بولينيزيا (Polynesian Air lines) الذي تملك حكومة ساموا أغلب أسهمه برحلات منتظمة إلى فيجي وتونغا وجزر كوك و (نورو) وأخيراً إلى نيوزلندا، وتقوم شركة أير باسيفيك برحلات أسبوعية إلى ساموا الغربية من فيجي، وتقوم خطوط نيوزلندا كذلك بـ رحلة أسبوعية إلى ساموا الغربية، كما تقوم ساوث باسيفيك أيلاند أيرويز (South Pacific Island Airways) برحلتين يومياً بين ساموا الأمريكية وساموا الغربية، وتقوم أير نورو Air Nauru برحلة أسبوعية بين نورو وساموا

وإلى الآن قاومت حكومة ساموا الغربية تطوير المطار ليستقبل الطائرات النفاثة الضخمة كجزء من سياسة الحكومة للتحكم في التطور السياحي، ورغبة في حماية شركة الخطوط البولونيزية.

من تونغا تابو إلى آبيا :

قامت طائرة خطوط نيوزلندا الجوية في الساعة الواحدة والربع قاصدة مدينة آبيا عاصمة جزر ساموا التي قد تسمى (ساموا الغربية) تمييزاً لها عن ساموا الأخرى التي تسمى ساموا الأمريكية التي سوف نتوجه إليها بعد هذه بإذن الله.

وأعلن مكبر الصوت بالطائرة أن الطيران إلى آبيا سيستغرق ساعة وربعاً وهي من طراز بوينج ٧٣٧.

وعندما نهضت الطائرة من تونغا تابو قاصدة جهة الشرق مرت فوق جزر ليست بعيدة من الشاطئ ذات منظر جميل، فهي لازوردية اللون لأنها لم تولد بعد، فهي قريبة من سطح الماء، ولكن الماء لم ينكشف عنها بعد، وإذا أردت الدقة في التعبير قلت: إنها لم تكمل بروزها من البحر بعد.

وحتى أشكال بعض هذه الجزر كما تبدو من الطائرة عجيبة، فبعضها مستدير وهو صغير، فهو يشبه أفواه البراكين مما لا يستبعد معه أن تكون في الأصل رؤوس براكين لم تستطع الوصول إلى ما فوق الماء، وبعضها قد ظهرت أطراف منها أو أجزاء منها إلى سطح الماء، وباقيها أسفله.

وأغربها منظراً كان منظر جزيرة لم تولد بعد، تشبه الحائط المستطيل أو السور الضخم من أسوار القلاع الممتدة، ولا أشك في خطر مثل هذه الجزر على الملاحة في المحيط، وأن أهل السفن لا شك في أنهم يتفادون الاقتراب منها حذراً من الاصطدام بها.

ولأمرها وجه آخر مشرق، وهو أنها تكون عادة ملجأ لأنواع من الأسماك التي تعيش قرب سطح البحر، فهي تبيض فيها وتعيش حولها مما يجعلها مصايد جيدة للأسماك والأحياء البحرية.

وكانت الطائرة مليئة بالركاب الذين أكثرهم من ذوي اللون الأبيض من أهل نيوزلندا وأستراليا، ومنهم جارتي في المقعد، وهي أوروبية بيضاء قالت: إنها من أهل جمهورية جنوب إفريقية التي تسير على سياسة التمييز العنصري، وأنها هاجرت من هناك قريباً إلى نيوزلندا لأن لها أقارب فيها.

ومن ركاب الطائرة قوم من الجنس البولينيزي الذين هم سكان جنوب المحيط الهادئ.

وكانت ضيافة الطائرة شطيرة من الخبز (ساندويتش) فيها خنزير وأخرى فيها جبن أبيض، فعفت الجميع.

أما المنظر خارج الطائرة فكان صفحة المحيط الهادئ العظيم ترقشه قطع من الغيوم البيض.

هل عاد الزمن أو اليوم العجيب:

أعلن الطيار من مكبر الطائرة قوله: أيها الركاب الأعزاء بعد عشر دقائق سنتجاوز خط الطول الدولي، ويجب آنئذ أن نعيد التاريخ يوماً واحداً، وكذلك نعيد يوماً من أيام الأسبوع إلى الوراء يوماً واحداً.

مثال ذلك أن اليوم في نصف الكرة الغربي الذي غادرناه عندما غادرنا (تونغا) هو الإثنين ٢ ديسمبر فسيكون يوم الأحد ١ ديسمبر في (ساموا) لأننا وصلنا النصف الشرقي من الأرض.

إنكم عندما نصل إلى خط الطول الدولي سوف تتطلعون بلا شك من نوافذ الطائرة لتروه، ولكنكم لن تروا شيئاً لأنه خط وهمي اصطلاحي!.

ثم تكلم عن الساعة التي سنصل فيها إلى ساموا، وعن درجة الحرارة هناك.

وبالفعل لقد نظرت من نافذة الطائرة عندما جاء موعد اختراق خط الطول الدولي فلم أر شيئاً، وقد فعلت ذلك بطريقة آلية، وإلا فإنني أعلم قبل ذلك كما يعلم الكثير من الناس أنه خط وهمي يقطع الأرض من الشمال إلى الجنوب، مثلما يقطعها خط الطول في النصف الغربي من الأرض، وهو خط قرينتش في إنكلترا.

وهذا هو السبب الذي من أجله سمي الفندق الذي سكنا فيه في تونغا بفندق خط التاريخ الدولي، لأن تونغا واقعة بالقرب من ذلك الخط من جهة الغرب.

وسبق لي أن اخترقت هذا الخط أكثر من مرة، وكلها من هونولولو مرة إلى طوكيو، وأخرى إلى مانيلا، وثالثة من هونولولو إلى فيجي، وذكرت الأخيرة في كتاب: ((جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ))، وهو كتاب

مطبوع.

وهو أمر عجيب إذْ وجدت نفسي في كل هذه المرات أقفز يوماً واحداً، فكأنني خسرت يوماً واحداً.

أما في هذه المرة وأنا أخترقه من الغرب إلى الشرق فإن العكس هو الصحيح؛ إذ خيل إلي أنني كسبت يوماً واحداً إذْ سافرت من تونغا غرب هذا الخط في يوم الإثنين إلى ساموا شرقه التي سيكون اليوم فيها هو الأحد.

ولتقريب أمر هذا اليوم إلى ذهن القارئ الكريم أقول: إننا إذا كنا في المملكة العربية السعودية في الساعة العاشرة صباحاً فإن الساعة في القاهرة تكون التاسعة، وفي تونس الثامنة، وفي الجزائر السابعة لأن توقيتها معادل لتوقيت قرينتش، وهكذا ما بعدها.

فلو تتبعنا هذا النقص من الوقت الذي هو نقص طبيعي سببه كون الشمس تشرق على المملكة قبل أن تشرق على هذه البلدان بدرجات متفاوتة من الوقت كما هو بدهي، فإنه لابد لنا من أن نجد أنفسنا لم يبق معنا من اليوم شيء.

وهذا من الناحية الحسابية الاصطلاحية، وليس من الناحية الزمنية، لأن الشمس تشرق على كل الأرض كل يوم ولكن بالتدريج؛ بحيث تغرب عن نصفها وتشرق على نصفها في أوقات الاعتدال الربيعي والخريفي.

فكان لابد من إيجاد خط طولي، وهو الذي يقسم الأرض من القطب الجنوبي إلى القطب الشمالي ليتم تغيير اليوم الحسابي هذا عنده، فكان هذا الخط الذي يقع معظمه فوق مياه المحيط الهادئ، وليس فوق أراضٍ يابسة كثيرة، فاختاروا هذا الخط الذي هو خط ١٨٠ درجة شرقاً.

غير أننا في هذه النقطة بالذات نكون قد سافرنا من جزيرة بقربه من جهة الغرب إلى جزيرة بقربه من جهة الشرق في خلال سفرنا مسافة لم تتعد

ساعة وربعاً من الزمن بالطائرة.

والمسائل الشرعية:

لم يكن يوجد من أهل هذه الجزر التي يختلف فيها الوقت بل التاريخ الشهري واليومي بهذا الشكل مسلمون من قبل، وقد بدأ انتشار الإسلام حديثاً بجزيرة تونغا كما سبق، والمؤمل أن يشمل انتشاره جزر ساموا الغربية التي نقصدها الآن، فماذا عن الأمور الشرعية المتعلقة بهذا الأمر.

مثل دخول شهر رمضان وطلوعه، فإذا ثبت دخول شهر رمضان على سبيل المثال في مثل هذا اليوم الذي نحن فيه عندما أقلعت بنا الطائرة، وهو الإثنين الثاني من شهر ديسمبر ١٩٨٥م الموافق ليوم ٢٠ صفر عام ١٤٠٦ هـ فصام المسلمون من أهل تونغا هذا اليوم، وأعلنوا أن شهر رمضان يدخل في يوم الإثنين الثاني من شهر ديسمبر، ثم سافر أناس من المسلمين في اليوم نفسه وهم صيام إلى ساموا، فوجدوا اليوم فيها هو يوم الأحد الواحد من ديسمبر الموافق للتاسع عشر من صفر بالتاريخ الهجري، فهل يلزمهم الصيام أم لا؟ وهل يعتبر يومهم هذا هو الأول من رمضان كما كان عندما غادروا تونغا أم يتحول، أو لنقل يرجع ليكون اليوم التاسع والعشرين أو الثلاثين من شهر شعبان؟ وبذلك لا يلزمهم صوم، بل يجب عليهم الإفطار على قول بعض العلماء الذين يحرمون صوم يوم الشك.

وشيء آخر مهم لا يقتصر على بلد معين من هذه المنطقة، ولا يتعلق بخط الطول الدولي واختلاف التاريخ عنده، وإنما هو متعلق بموقع البلدان هذه في أقصى نقطة من العالم بعداً عن مكة المكرمة، فماذا يفعل المسلم الذي يكون فيها بالقبلة أيصلي جهة الشرق أم جهة الغرب على اعتبار أن المسافة تكاد تكون متساوية إلى مكة المكرمة من جهة الشرق ومن جهة الغرب؟

لا شك في أن الجواب سيكون جازماً بأنه على المسلمين أن يتحققوا من

موقع بلادهم، فإن كانت الكعبة إلى الشرق أقرب إليهم منها إلى جهة الغرب صلوا إلى الشرق والعكس بالعكس.

وأما إذا عرف أن الإنسان المسلم يسكن أو حتى يوجد في نقطة تتساوى عندها المسافة إلى مكة المكرمة سواء من جهة الشرق أو من الغرب، فإنه يكون مخيراً في الصلاة إلى إحدى الجهتين.

وفي هذه الحالة يصح أن يصلي اثنان في هذه النقطة أحدهما قد استقبل الشرق والآخر استقبل الغرب، وأن يكون قفا كل واحد منهما مما يلي قفا الآخر، وتكون صلاة كل واحد منهما صحيحة.

وعندئذٍ يتلو المؤمن قول الله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾.

وسوف يشعر بالمعجزة العظيمة في هذه الآية الكريمة التي لم يكن العرب القدماء يتصورون معناها من هذه الناحية التي ذكرتها، لأنهم لا يتصورون وجود مسلمين في هذه المنطقة، وإنما أخذوها على ظاهرها ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾.

هذا وقد استمرت الطائرة ملججة في الجو دون أن نلمح تحتنا إلا السماء والماء.

في مطار آبيا:

أقبلت الطائرة على جزر خضرة نضرة تحيط بها مياه لازوردية ضحلة تفصل بينها وبين مياه المحيط العميقة الداكنة.

وفي مياه هذه الجزر جزر يصح أن توصف بأنها تحت الولادة إذْ قاربت أن

تكون فوق سطح الماء ولكنها لم تبرز منه، ولاحظت أنهم قد وضعوا علامات فيما بين هذه الجزر لهداية السفن للطرق بينها حذراً من الارتطام بها.

وقد أسميتها جزراً مع أنها لا تزال مغمورة بالماء، وذلك بالمقارنة ما بينها وبين مياه المحيط الهادئ العميقة، ولكونها ربما كانت تبرز لسبب من الأسباب فيما بعد.

أما على اليابسة فإن أكثر الأشياء ظهوراً للنظر فيها هي أشجار النارجيل النحيل غير النضر، فمنظره ليس منظر النارجيل الريان، ولا أدري السبب في ذلك إلا أننا عندما قربنا من المطار رأيت بالقرب منه أشجاراً من النارجيل النضر ربما كان ذلك لقربه من البحر، بخلاف ما كان إلى الداخل قليلاً فإن عسبه - جمع عسيب - وهو للنخلة بمثابة الغصن للأشجار الأخرى يكثر فيها الاصفرار، مثلها في ذلك مثل نارجيل (تونغا تابو).

وتكسو الأرض حول المطار حشائش وحشية خضر كثيفة.

نزلنا في مطار (آبيا) في الساعة الرابعة والنصف بتوقيت تونغا الذي لم نغيره وهو مطار صغير، إلا أن مدرجة طويل وواقع على ساحل البحر مباشرة حتى إنهم جففوا جزءاً من ساحل البحر من أجل أن يمدوا عليه المدرج، وهذا ظاهر فيه.

ولم أر في المطار طائرات كثيرة ما عدا طائرات مروحية.

وعند وقوف الطائرة صعد إليها رجلان من أهل البلاد الذين لا يكادون يختلفون عن أهل تونغا في المظهر، ورشّا الطائرة بمبيد للحشرات والركاب فيها.

ثم بعد هنيهة أنزلونا من الطائرة إلى حافلة صغيرة كتب عليها كلمة (بولينيزيان) وهي اسم شركة طيران محلية، ومعنى الكلمة البولينزية نسبة

إلى جنس (البولونيز) الموجودين في هذه المنطقة من جنوب المحيط الهادئ.

ولم يتوقف ضابط الجوازات عند جوازي على غرابته بالنسبة إليه، ولم يسأل عن سمة الدخول وإنما ختم عليه بسرعة، فانتقلت بسرعة أيضاً إلى رجل واحد على مكتب كتب عليه أنه لصرف النقود، فصرفت فيه خمسين دولاراً أمريكياً بعملتهم وهي (تسالا).

ثم لبثنا مدة طويلة في مكان تسلم الحقائب الذي هو أيضاً في ركن من بناء المطار الذي فيه كل الدوائر المتعلقة باستقبال المسافرين، وذلك قبل أن تأتي حقائب الركاب يحملها حمالون إلى داخل هذه القاعة بأيديهم فيتناولها أصحابها.

أما ضابط الجمرك فإنه رغم كثرة الركاب عنده وضيق المكان والشعور بالحر فيه جعل يتأمل جوازي ويقلبه ويقول: إنني لم أر مثله من قبل، ثم التفت إليّ وقال: أنت رئيس؟ فقلت له: أنا مسافر عادي، فما الذي جعلك تقول هذا؟

فقال: لأنه مكتوب فيه (هزامنس شيخ) أي صاحب الفضيلة أو صاحب المقام الرفيع الشيخ، وكان المسؤول في وزارة الخارجية عندنا قد كتب هذه العبارة أمام اسمي من باب المجاملة جزاه الله خيراً.

وبعد لأي أعاد الجواز إلي، وقال: تفضل، ولم يفتش حقائبي.

وخرجت من المطار ورأيت الناس يشبهون أهل تونغا، وإن كان في هؤلاء إشراق في اللون أكثر من أولئك، فإن المظهر الخارجي مشتبه، وبخاصة في غلظ الأجسام، كما أن الفوط القشية التي يلبسها أهل تونغا وتلاحظ وجودها عليهم في أكثر الأمكنة ليست موجودة هنا، وإنما يلبس القوم هنا فوطاً من القماش معتادة بل تغلب عليها السعة.

وجدت فتى معه حافلة صغيرة فيها بعض البيض وهو يقول لي ويتناول

حقيبتي الكبيرة: إلى الفندق، وكنت أخذت اسم فندق من جارتي في الطائرة ذكرت أنه جيد، واسمه فندق (تستالا)، فقلت: إلى (تستالا)؟ قال: نعم، وتبلغ المسافة من المطار إلى الفندق ٢٤ كيلومتراً

في مدينة آبيا:

آبيا هي عاصمة ساموا الغربية المستقلة، وقد تحركنا من المطار في الخامسة والنصف بتوقيت تونغا الذي لا نزال عليه، فسارت الحافلة وسط خضرة كثيفة نضرة، وليست مثل تونغا مصفرة، ربما كان ذلك لكونها لا تشكو من قلة الأمطار في هذا الوقت، والرطوبة هنا أكثر كثافة من تونغا، أما أشجار النارجيل فإنها في الكثرة هنا كما هي في تونغا.

والشيء الذي لاحظته بسرعة من الفروق الظاهرة بين القوم عادات عندهم هنا، وهو أن أهل البيوت يجلسون على الحشائش أمام بيوتهم، وكل البيوت التي مررنا بها لها حدائق أو أراضٍ ذات حشائش وأعشاب، وجلوسهم كلهم يكاد يكون بدون استثناء هو تمديد الرجلين، وقد يتمدد الواحد منهم فيكون على هيئة بين المستلقي والجالس الماد رجليه، يستوي في ذلك منهم الرجال والنساء، وقل أن تجد بيتاً ليس أهله جالسين خارجه بهذه الصفة، ولا شك في أن السبب في ذلك هو كون الساعة هذه هي ساعة الأصيل؛ حيث يخف الحر ويطيب الجو، أما منازلهم فإنها من الخشب المرفوع عن الأرض بخشب أيضاً اتقاء للرطوبة، وقد يرفعونها عن الأرض بلبن من لبن الإسمنت.

ولاحظت كثرة الزهور في حدائق البيوت وفي المحلات العامة، وبخاصة أشجار الزهور، وهي أشجار كبيرة تكون أوراقها أشبه بالزهور، أو تكون الزهور فيها أكثر من الأوراق، وأشجار أخرى لها أوراق قرمزية اللون بحيث تبدو الشجرة على البعد كأنما هي مجللة بزهور قرمزية.

والطريق تسير بجانب البحر في منظر جميل إذْ الأرض على يمينه مرتفعة

قليلاً وكأنها الغابة على ربوة غير عالية.

وامتد سيرنا مع هذا الطريق الأخضر، وتبينت من الأشجار الاستوائية عدا النارجيل العمبة (المانجو) والموز إلا أنه أقل كثرة من تونغا.

وقابلتنا سيارة شحن صغيرة فيها نسوة قد جلسن ومددن أرجلهن وهن على ظهر السيارة، كما رأيت الناس أمام بيوتهم جالسين على الأرض وهم يمدون أرجلهم.

والسيارات ليست بكثيرة، ولكنها موجودة وقيادتهم هادئة مثل أهل تونغا الذين لا تكاد تجد فيهم من يسرع بقيادة سيارته.

ومررنا بمجمع لبيوت سكنية أكثر ما فيها ظهوراً منظر كنيسة بيضاء، فقلت في نفسي: أين المسجد؟ فأهل المسجد كثير في العدد والعدة، وبإمكانهم أن يبنوا مسجداً، بل مساجد متعددة في كل دولة على وجه الأرض لا توجد فيها مساجد، وهذا إن أرادوا، فهل يريدون؟

إنه لا وجه للمقارنة في الماضي ما بين قدرة القائمين على الكنائس هنا وقدرة القائمين على المساجد، فأهل الكنيسة سافروا بل غامروا بالوصول إلى هذه البلاد وفتحوها ونصَّروا أهلها في الوقت الذي نام فيه المسلمون أو استناموا، واستمرؤوا ذلك حتى تفرد المسيحيون الأوربيون بالبلدان البعيدة دون المسلمين، بل إن بعض المسلمين لا يزالون يحبون الإخلاد إلى الراحة، وعدم التعب حتى في القراءة عن هذه البلاد، وعن وجوب الدعوة إلى الله فيها وفي أمثالها، فهل يستيقظون؟

وحول هذه الكنيسة بيوت خشبية مطلية بطلاء أبيض أيضاً حتى سقوفها هي بيض.

يوم الأحد الثاني من ديسمبر ١٩٨٥م.

وكلمة الثاني وصف للأحد، وليس وصفاً ليوم، وهذا هو وجه الغرابة في الموضوع؛ لأن وصف اليوم بالثاني ليس فيه غرابة، وإنما الغرابة في وصف الأحد بأنه الأحد الثاني من أسبوع واحد.

فعندما وقفت أمام مكتب الاستقبال في فندق (تستالا) في (آبيا) رأيت تقويماً في الحائط مكتوباً عليه اليوم بأنه الأحد الأول من ديسمبر فقلت لفتاة تعمل فيه وأنا مستغرب: أهذا التقويم صحيح؟ فأجابت: نعم.

قلت: إن يوم الأحد الأول من ديسمبر قد مر بي أمس في تونغا فضحكت، وقالت: مادمت قدمت من تونغا فلك الحق أن تستغرب ذلك، لأن هذا اليوم كان لك يوم الإثنين الثاني من ديسمبر في تونغا.

ثم قالت: إنك كنت لو قدمت من جهة الشرق من الولايات المتحدة مثلاً أو حتى من أوروبا عن طريق الولايات المتحدة لما اختلف عليك اليوم.

وتذكرت شيئاً، كنت أنسيته ورجعت إلى ختم القدوم الذي وضعه ضابط جوازات ساموا قبل قليل على جوازي فوجدته ١ ديسمبر على حين أن الختم الذي وضعه ضابط الجوازات على جوازي عند مغادرتي تونغا كان ٢ ديسمبر مع أنه ختم عليه قبل أن يختم عليه ضابط ساموا بطبيعة الحال.

ومن هنا أخرت التاريخ من يوم الإثنين ٢ ديسمبر ١٩٨٥م الموافق ٢٠ من صفر إلى يوم الأحد ١ ديسمبر الموافق ١٩ من صفر لأن بقية تاريخ الرحلة ستسير على هذا التاريخ إلى أن أعود ثانية لعبور خط التاريخ الدولي الطولي من الشرق إلى الغرب، أما لو فرض أن ذهبت إلى بلادي عن طريق الولايات المتحدة فإنني لن أغيره أبداً.

وجدت فندق (تستالا) فندقاً كبيراً واسعاً جداً قد نشرت غرفه وأجنحته في مساحة واسعة من غابة قديمة أبقوا أشجارها على حالها، وغرسوا

معها ما راق لهم أن يغرسوه غيرها.

وعرفت صحة ما كانت ذكرته جارتي في الطائرة التي كتبت لي اسمه بأنه أكبر فندق في ساموا وقالت: إنه كان قد بني من أجل الضباط الأمريكيين الذين كانوا يترددون على هذه الجزر بحكم أعمالهم.

لم تطلب مني إدارة الفندق إلا كتابة اسمي مع التوقيع على بطاقة الفندق، ولم يطلبوا رؤية جوازي، ولم يذكروا شيئاً عن النقود مثلهم في ذلك مثل أهل تونغا وقبلهم أهل نيوزلندا.

حتى إن ضابطي الجوازات في تونغا وساموا لم يطلبوا مني رؤية تذكرة العودة، بل لم يسألني أحد منهم عما إذا كانت توجد لدي تذكرة عودة، لأنهم كانوا قد اعتادوا على التعامل مع أهل المنطقة من البيض، ولم يكونوا بحاجة إلى أن يطلب منهم ذلك.

أنزلوني في غرفة في الطابق الثاني من جناح بعيد من أجنحة في الفندق متعددة، وقد عجبت من كون عامل في الفندق ضخم الجثة، كان يجاهد في حمل حقيبتي إلى الغرفة خلال الحديقة والممرات الطويلة في الفندق مع أنها ليست ثقيلة، ولكن تبين لي أن الثقل في أجسام هؤلاء القوم البولونيزيين لا يدل على القوة، بل إنه ليس معه قوة متميزة.

وكانت بعض الممرات في الفندق مظللة مع أن الفندق في جنة من أشجاره، ولكنهم فعلوا ذلك من أجل وقايتها من المطر الذي ينزل فجأة في كثير من الأحيان.

أما الغرفة فإنها واسعة وجيدة، ومن أهم ما فيها مقادير جيدة من القهوة والحليب والشاي والكاكاو التي يصنع النزيل منها بنفسه ما يشاء في الغرفة بالمجان.

ومن غرائب هذا الفندق إن لم أقل من انفراداته أن خزانة الملابس لها

بابان أحدهما إلى داخل الغرفة كالمعتاد، والثاني إلى الحمام الذي هو في ركن داخلي من الغرفة، لكي تستطيع وأنت في الحمام أن تتناول ما تشاء من ملابسك وتلبسه وأنت فيه، ومن غرابتها أيضاً أنهم وضعوا في الغرفة نسختين من الإنجيل وليست نسخة واحدة، وربما كان ذلك من أجل أن فيها سريرين قد يكون فيهما شخصان.

وعندما دخلت الغرفة كانت الساعة هي السادسة والنصف مساء، وقد بقي قليل على غروب الشمس، وذلك أن المسافة من المطار إلى الفندق استغرقت أربعين دقيقة، ومع ذلك لم تزد الأجرة على خمسة تسالات، وهي عملتهم التي واحدها (تسالا)، ويساوي الدولار الأمريكي تسالين وخمسة سانتيات (ساموية).

وكانت النافذة الغربية للغرفة تطل على منظر بديع إذ هو حديقة رائعة تابعة للفندق، بل جنة أرضية تفتحت أزهارها، وغنت أطيارها، وهي تمتد لا يقف بصرك لها على حد حتى توقفه تلة جبلية خضراء، بل قطعة من الخضرة الرائعة.

فصنعت فنجاناً من الشاي وشربته على منظر هذه الجنة الأرضية وأنا أفكر في هذا المكان النائي عن بلادنا، وكيف وصلت إليه بهذه السهولة بل قد جزمت بأنني أنا العربي الوحيد فيه الآن، وهذا ما أكده لي من لقيتهم من أهل البلاد بعد ذلك.

وقد غربت الشمس في السابعة إلا عشر دقائق، وتوقيتهم الزوالي مماثل لتوقيت تونغا.

وبعد أن غربت الشمس أسرعت أصلي المغرب والعشاء جمعاً، ونزلت إلى مطعم الفندق فتعشيت في جزء منه قد أقاموه في الهواء الطلق، فكان طعامه أكثر سخاء من طعام فندق تونغا وأحسن صنعاً، فقد كان الصحن الرئيسي

من الروبيان الذي هو الجمبري بلغة المصريين، فجاؤوا به طرياً قد أكثروا فيه من السلطة، وكانت بي إليه حاجة.

ليل السوق في آبيا:

قلت لموظف في الفندق: إنني أريد أن أخرج في تمشية في سوق تونغا، فذكر لي اسم مكان فيه أخذت له سيارة أجرة مرت بي قال: إنه يقع على شاطئ البحر، وتبين لي بعد ذلك أن السوق الرئيسي الذي هو في الشارع الرئيسي في آبيا عاصمة تونغا كله يباري البحر أي يمتد على شاطئه، ودفعت للسائق الأجرة اثنين من عملهم التي تسمى تسالا، ويقل ذلك قليلاً عن دولار أمريكي واحد.

نزلت في قسم من الشارع فيه حوانيت قليلة غير متراصة، وتمر معه سيارات قليلة جداً، وربما كان ذلك بسبب تأخر الوقت، فقد كانت الساعة فوق التاسعة من الليل بقليل.

إلا أن المارة فيه كثير، وقد جلست في مقصف في الشارع شربت فيه كأساً من الكوكاكولا وتفرجت برؤية الناس.

وفي العاشرة والنصف كان الجو يغري بالمشي إذْ ليس فيه حر، وأما البرد فإنه لا مجال له هنا، لأن هذه الجزر لا تبعد كثيراً عن خط الاستواء جهة الجنوب، ولذلك لا تشكو البرد.

وسرت مع رصيف عريض لشارع البحر هذا، إلا أن الرصيف كان في حالة سيئة، فأكثره قد تكسر مع أنه ليس فيه بلاط، وإنما هو الإسمنت المملس.

وقد خاطرت بالرجوع ماشياً إلى الفندق في هذا الوقت الذي هو قبل الحادية عشرة ليلاً، وأنا لم أسأل أهل الفندق عن حالة الأمن في هذه الساعة

المتأخرة بالنسبة إلى عادتهم.

فكنت أفزع من كثرة المتسكعين في الشارع والرصيف العريض، وهم أنصاف عراة، لا يكون على الواحد منهم إلا (تبان) وهو السروال القصير، وفيهم فضول النظر إلى الغريب، إلا أن بعض الحوانيت التي تبيع الأطعمة والأشربة ما زالت مفتوحة.

والغريب مثلي هنا كما في إفريقية لا يستر غربته شيء، وذلك بسبب اللون في إفريقية، وأما هنا فبسبب تقاسيم الوجه والجسم مثلما عليه الحال في بلاد الجنس الملايوي أو الصيني الجنوبي.

وعلى الرصيف مقاعد حجرية متعددة، أكثرها عامر بالجالسين والجالسات الذين لا يبدو أن لهم عملاً غير قطع الوقت.

ومررت بسوق للخضرات والفاكهة فوجدته حافلاً بالباعة من رجال ونساء، وأكثرهم نائم عند بضاعته، بل يغط في نومه، ربما لكونه ليس له بيت، أو من أجل أن يبدأ مبكراً في بيع بضاعته.

وقليل منهم لا يزال مستيقظاً، وقد اشتريت منه من فاكهة الباباي اثنتين بستين سنتاً أي أكثر قليلاً من ربع دولار أمريكي.

وانتهزت الفرصة فسألت بائعة كانت نائمة عند بضاعتها واستيقظت عندما كنت أبايع جارها عن السبب في كونها تنام هنا في سوق الخضرات فأجابت أنها لا بيت لها.

وعدت إلى الفندق بعد الحادية عشرة بقليل دون أن أرى مكروهاً.

يوم الإثنين (الثاني) ٢/١٢/ ١٩٨٥م الموافق ١٤٠٦/٢/٢٠هـ.

الإثنين الثاني:

وربما صح القول بأنه إثنين ساموا تمييزاً له عن إثنين تونغا الذي مر بي أمس هناك، وعندما وصلت إلى ساموا أمس وجدت أنه عندهم يوم الأحد، وأن الإثنين سيكون غداً وهو اليوم.

وهذا غريب كما شرحته، وربما كان الأغرب منه أن سبب حصولنا على هذين الاثنين من الإثنين أي على اليومين من يوم الإثنين في أسبوع واحد هو سفرنا مدة ساعة ونصف ما بين تونغا وساموا.

فكأن سفرنا تلك المدة القصيرة قد أكسبنا زيادة يوم ونصف، وهي زيادة تكون حقيقية إذا عدنا إلى بلادنا من جهة الشرق من هذه الجزر، ولكنها ستكون قرضاً مستعاداً إن عدت لبلادنا العربية من جهة الغرب، لأنني سوف أخسر يوماً واحداً وربما يوماً ونصفاً إن كانت العودة إلى اجتياز خط الطول الدولي جهة الغرب في منتصف النهار.

أرجو معذرة القارئ الكريم عن تكرار هذا الموضوع، ولكنه لازم للاستمرار في ذكر الأيام الذي هو طابع هذه اليوميات في هذه الجزر.

صباح ساموا:

كانت أول إطلالة من نافذة الفندق على تلك الجنان الخضر التي ألفت حديقة واحدة كبيرة رغم اتساعها، توشحها الأشجار النضرة، والزهور البهيجة، وتحيط بها الربى الخضر التي تغسل أقدامها مياه البحر من دون أن تحد من ازدهارها لأن الأمطار تغسلها من تأثير أملاح البحر وقشفه حتى غدا البحر الذي يطيف بهذه الجنات من ثلاث جهات أشبه بالبحيرة العذبة منه بالبحر.

وقد زينوا هذه الحديقة الطبيعية الواسعة بأشجار من أشجار الزهور المتعددة الألوان أكثرها ظهوراً أشجار الزهور البيض التي رأيتهم في هذه الجزر يصنعون منها أطواق الزهور، ويزينون بها البيوت، وحتى النساء يعملن منها أكاليل توضع على الرأس من أجل الزينة.

وذلك كله في جو ساجٍ لا ترى فيه حركة لورقة، أو هزة لغصن في جو بديع هو في هدوئه كجو الربيع في الصحراء قبل أن ترتفع الشمس، وتصلي بلهيبها الأرض.



المؤلف على شاطئ البحر في آبيا (ساموا)

وحتى الأصوات والحركات الأخرى ليس منها شيء هنا لأن هذا الركن من هذه الحديقة الطبيعية قد ترك غفلاً، ومنعت منه السيارات والمحركات الأخرى.

وذلك لكثرة الحدائق عندهم.

وبقدر هذا الجمال الذي خلقه الله في الطبيعة، وهو أول ما صافح العين في هذا الصباح، فإن المنظر الذي بعده كان منظر الخادمات الوطنيات الغليظات الأجسام والتقاسيم، حتى إن المرء لو أقسم أن يجد فيهن واحدة رشيقة فضلاً عن النحيفة لما استطاع أن يجدها، فكأن الجمال كله قد انتقل إلى طبيعة البلاد تاركاً أهلها بلا نصيب منه.

ومن الملاحظ هنا أنك قلّ أن تجد رجلاً منهم ليس له بطن بارز، وإن كان ذلك يختلف ما بين الصغار والكبار، فالكبار منهم يكون ذلك ظاهراً فيهم ظهوراً واضحاً، والشبان أقل منهم، وذلك أمر طبيعي.

وعلى ذكر الجمال خُيِّل إليّ أن أهل تونغا أجمل منهم، أو على الأقل طائفة من أهل تونغا، فأهل ساموا أعرض أنوفاً، وعلى رؤوسهم الشعر المنكوش الذي يكون في العادة على رؤوس أهل الجنس البالونيزيين ومن قاربهم كأهل فيجي، والجنس المسمى بالمالونيز، وأشهر أهل هذا الجنس هم سكان جزر سليمان، وقد تكلمت على ذلك في كتابي: ((جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ)).

وقد جر الحديث عن خادمات الفندق الغليظات في هذا الصباح تناول طعام الإفطار في مطعم الفندق الذي كن يخدمن فيه ليس معهن أحد من الرجال.

وكان أول ما صنعته أن وضعت النقود التي أحملها مع جواز سفري في صندوق الأمانات في الفندق، وذلك لما رأيتهم شددوا عليه من العبارات التي كتبوها في الغرفة، ولم أرها مكتوبة في فنادق نيوزلندا، أو فندق تونغا مثل عبارة: (لسلامتك وسلامة ممتلكات تؤكد الإدارة عليك أن تغلق باب الغرفة من الداخل، وأن تتأكد من أن باب الشرفة قد أغلق أيضاً).

البحث في السفر:

رأيت أن أستعجل الحجز للسفر من آبيا عاصمة ساموا هذه لأنها جزيرة صغيرة ليس لها اتصالات كثيرة، وكان هدفي أن أسافر منها إلى تاهيتي في أقصى جنوب المحيط الهادئ الشرقي، وكان أهل الفندق قد أخبروني أن الشركة المحلية الأكثر رحلات بين هذه الجزر هي شركة (بولونيزيا) أي البولونية، أو (البولونيزية) إذا نسبناها إلى لفظها الأصلي بالإنكليزية، فقالت امرأة في مكتب هذه الشركة: إنه لا توجد إلى (تاهيتي) إلا رحلة واحدة فقط يوم السبت.

وهذا أمر مزعج لي، لأن معناه أن أظل في هذه الجزيرة المنعزلة مدة خمسة أيام، فقررت أن أسافر إلى أية جهة أخرى، وأشاروا علي بشركة الخطوط النيوزلندية، فوجدت في مكتبها امرأة بيضاء من أصل أوربي، وهي من أهل نيوزلندا، وقد اجتهدت لي اجتهاداً عظيماً، وصارت تتصل بالشركات الأجنبية ومكاتب السياحة الموجودة هنا ثم قالت: إنه لا سبيل لك إلا أن تعود إلى أوكلاند في نيوزلندا، ومن هناك إلى تاهيتي، وهذا يكلفك جهداً ومالاً ووقتاً أيضاً لأن المواعيد على هذا الخط ليست مناسبة لما تريده.

وبعد تردد على عدة مكاتب رأيت أن أنسب الخطوط هو أن أسافر إلى باقو باقو عاصمة (ساموا الأمريكية)، ومن هناك إلى (رارو تونغا) عاصمة جزر كوك، ثم إلى (بابيتي) عاصمة جزر تاهيتي.

وذكروا أنه لا تستطيع شركة أن تغير تذكرتي إلى الخط المذكور إلا شركة (بولينيزيا)؛ لأنها التي سأسافر معها كل هذه الرحلات إلى تاهيتي، غير أن الموظفة الكبيرة وربما كانت هي المديرة في مكتب الشركة قالت: إن تذكرتك سعودية ونحن لم نتعامل معها من قبل، ولا أستطيع أن أغيرها إلا بعد الرجوع إلى الشركة النيوزلندية، وكنت قدمت معها أي النيوزلندية إلى

هذه الجزيرة.

وهكذا صرت أتردد بين مكاتب الشركتين ومكتب شركة أخرى من شركات المحيط الهادئ لا أذكر اسمها.

وضاع أكثر ضحى هذا اليوم في هذه المراجعات، إلا أنني وجدت فرصة دخلت فيها الشارع التجاري الذي سرت فيه البارحة، وكانت حوانيته مغلقة، ومررت ببعضه في هذا اليوم مسرعاً من أجل التذكرة، فوجدت أنهم كالإفريقيين الذين يجلس أهل البسطات، وهي البضائع التي تنشر على الأرض يعرضها صاحبها للبيع وهو بجانبها من دون أن يكون لديه حانوت.

فقد رأيت نساءً منهم كالإفريقيات يعرضن بضائع قليلة، وكثير منها من منتجات هذه البلاد كثمار الكاكاو الطازجة، وثمار العمبة (المانجو) غير الجيدة، ونوع من اللوبياء المحلية، وقد بسطنها على أرصفة المحلات التجارية الكبيرة نوعاً الموجودة هنا.



يبعن ثمار الكاكاو الطازج في آبيا

واستأذنت واحدة منهن في أن ألتقط لها صورة مع بضاعتها الحقيرة فامتنعت وأبعدت، وكذلك فعلت أخرى إلى أن وجدت واحدة رضيت بذلك بعد أن شاورتْ واحدة كانت جالسة بجانبها، فالتقطت الصورة مع ضحكاتهن.

وتدل معروضاتهم هذه على فقر بالغ، لأن ثمنها كلها لا يسمن ولا يكاد يغني من جوع، فكيف إذا طرح منه رأس المال وبقي الكسب الضئيل.

ويبعن ثمار العمبة (المانجو) الخمس بتسالا واحد أو واحدة، لا أدري أهو مذكر أم مؤنث، وهو عملتهم الوطنية، والصغير منه العشر بتسالا واحد، والدولار يساوي أكثر قليلاً من اثنين منها.

ومن الأشياء اللافتة للنظر في هذا السوق التجاري أن بعض المحلات الكبيرة فيه قد نصبت شجرة عيد الميلاد وكتبت عليها (كريسماس)، وذلك على اعتبار أننا الآن في شهر ديسمبر شهر الميلاد مع أن اليوم هو الثاني منه.

ويستغرب المرء مثلي الذي اعتاد على رؤية شجرة الميلاد في البلدان الأوروبية الباردة بل الثالجة في شهر ديسمبر رؤيتها في هذه البلاد الحارة الرطبة.

شعب فقير:

ومن ملاحظة المارة والمتسوقين في هذا الشارع الذي هو الشارع التجاري الوحيد ينطبع في ذهن المرء أنهم شعب فقير، وغير وجيه المظهر مع أن ملابسهم ليست سيئة، حتى ملابس الفقراء، لأنهم يقتصرون في اللباس على السروال القصير وحده، أو مع قميص قصير الأكمام يكون مفتوح الصدر في أكثر الأحيان.

وأما النساء فإن لباسهن لا يخلو من فوطة في الغالب؛ سواء أكانت خشنة رثة أم لطيفة غير سميكة على هيئة تنورة.

وأما أجسامهم فإنه لا يظهر عليها الفقر، وذلك بسبب غلظ ظاهر في طبيعتها حيث يخيل لمن يرى بعضهم أنه سمين بسبب غذاء فاخر يتناوله إلا أنه إذا قرب منه رأى في ملامح وجهه علامات نقص التغذية وإن كان جسمه غليظاً.

والجسم الغليظ كما قدمت هو الذي يكون ضخماً من أصل خلقته، وبسبب كبر عظامه وعضلاته حتى من دون أن يكون الجسم سميناً.

على أن السمن يكون ظاهراً في الأغنياء منهم القادرين على تناول الطعام الدسم.

كما أنه لا يعتبر شعباً جميلاً بمقاييس الجمال المعروفة عندنا في البلدان العربية، وفي أوروبا.

جولة في ساموا:

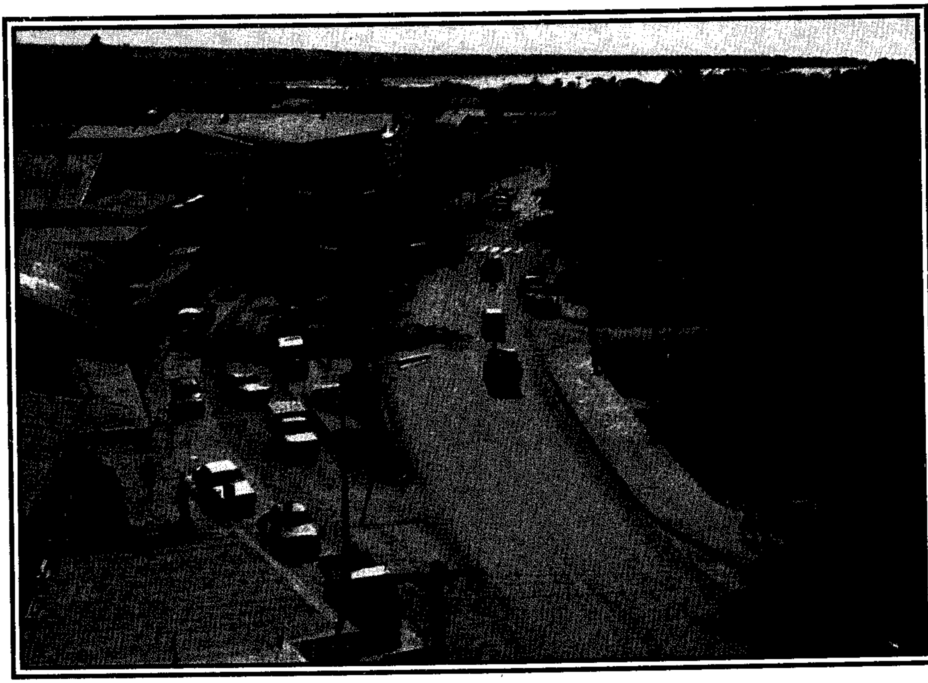
وقلت في ساموا ولم أقل (آبيا) وهي العاصمة لأنها صغيرة، وإنما هذه الجولة في أقسام من الجزيرة كلها.

بدأت في العاشرة والنصف مع حافلة صغيرة ذكروا أنها تابعة لإحدى شركات الجولات السياحية كما قالت موظفة في الفندق، وفيه دليلة صينية خالصة، ولكنها تأبى أن تقر بذلك وقالت لي: إنها من أهل ساموا، فقلت: إن هذا قد يكون صحيحاً، ولكنك بلا شك صينية الأبوين فسكتت.

بدأت الجولة بالمرور من الشارع التجاري المعتاد الذي لا يمكن أن يضل فيه المرء لأنه شارع واحد شبه مستقيم، وهو يماشي ساحل البحر.

وقد ذكرت بهذه المناسبة شارعاً مماثلاً له في جزيرة أخرى من مكان بعيد كل البعد عن جزيرة ساموا هذه، وهي جزيرة (ماهي) أكبر جزر سيشل وعاصمتها فيكتوريا، فعندما سألت موظفة في فندق (ريف) الذي كنت أنزله

في تلك الجزيرة عن الطريق إلى بلدة فيكتوريا عاصمة الجزيرة قالت: إنه شارع واحد يباري البحر، ولا يمكن أن يضل فيه المرء لأنه لا شارع مستقيماً هنا إلا هو.



الشارع الرئيسي في آبيا

ثم مرت الحافلة بجزء صغير من السوق في منعطف من هذا الشارع، فيه بضعة حوانيت قالت الدليلة: إنه سوق الصينيين هنا، وهو قليل الحوانيت، إلا أن صينيته ظاهرة من اللافتات المكتوبة باللغة الصينية على حوانيته.

ريف ساموا:

لم تقف الحافلة في الشارع التجاري، وإنما واصلت سيرها حتى خرجت فجأة من البلدة إلى ريف أخضر شبيه بالاستوائي تتناثر البيوت على الطريق العام فيه الذي هو مزفلت زفلتة متوسطة، وذلك على غرار البيوت الموجودة في

الشارع المؤدي من المطار إلى البلدة التي ذكرتها أمس.



ريف ساموا

وتكون متباعدة في الطريق بين الواحد منها وبين الطريق الإزفلتي مسافة من الحدائق التي غالباً ما تكون طبيعية لم يضيفوا إلى ذلك إلا قليلاً من العناية، وذلك بسبب وفرة الأمطار، وكون المنطقة كانت في الأصل منطقة غابات طبيعية.

وكان رفقاء الجولة أربعة من الأستراليين كلهم ذو مظهر أوروبي، فيهم امرأة واحدة.

ولم تشرح الدليلة شيئاً من أمر هذا الريف، ولم تنوه بخضرته، فذلك أمر لا يستحق التنويه عندهم، مثلما لا يستحق منظر الصحراء عندنا أن ننوه به.

وأكثر الأشجار في هذا الريف وأظهرها أشجار النارجيل والعمبة

(المانجو)، وهناك أشجار الكاكاو وأشجار أخرى مثمرة.

بيت ساموى في قلب الغابة:

دخلتا غابة كثيفة لا تكاد السيارة تجد فيها طريقاً من تشابك فروع الأشجار لولا أنهم كانوا يعتنون بإزالتها من الطريق بحيث كانت الفروع العالية قد تشابكت فعلاً.

وقالت الدليلة: إن القصد من ذهابنا إلى قلب الغابة هو مشاهدة بيت ساموى على الطراز الساموى التقليدي القديم.

ووصلنا إلى مكان في الغابة استقبلنا فيه رجل ساموى غليظ البدن ومعه امرأة تبين بعد ذلك أنها صينية، وأنها إنما كانت تمثل على السائحين دور المرأة الساموية الأصيلة، ومعهما رجل أو رجلان.

وكانت أول كلمة سمعناها منهم قولهم: (ألوقا)، وقد جعلوها هنا مماثلة لكلمة (ألوها) التي يقولها أهل جزر هاواي، وسمعتها كثيراً في (هونولولو) عاصمتها، ومعناها: مرحباً، ومع الترحيب الشكر.

جلسنا نحن السياح مع المرأة، وهي في حدود الخمسين من العمر، ومع الرجل الساموي في كوخ خشبي الدعامات.

وقد تربعت المرأة والرجل وطلبوا منا أن نجلس مثلهم متربعين، وقالوا: هذه جلستنا الأصيلة.

كل هذا والمرأة تمثل أمامنا دور المرأة (الساموية) الأصيلة.

وكان الفراش مجرد حصير من سعف النارجيل، ومع كل واحد منهما منشة وورقة من أوراق الموز، وقالت المرأة: هذه هي عادتنا القديمة أن تكون المنشة مع الشخص حتى يذود بها الحشرات الصغيرة ويقتلها بها، وأما ورقة الموز فإنه يحملها لكي يبعد بها الذباب عن وجهه وجسمه؛ لأننا لا نستر إلا

العورة، فيكون باقي الجسم معرضاً لوقوع الذباب عليه، لأن لباسنا التقليدي هو مثل هذا الذي تشاهدونه على هذا السيد الساموى الجالس معكم.

وقالت: إن الكوخ كما ترون مفتوح الجانبين، وإذا أراد الرجل أن ينام مع امرأته فإنه يسدل رواقه أي جانبه هذا الذي هو مرفوع فوقه، وذلك بأن يجر حبلاً بالرواق، والرواق هو جانب الكوخ، وقد فعلت ذلك فانسدل حصير في جانب الكوخ وستره.

وكان الرجل أثناء الحديث يفتل حبالاً كانت معه من سعف النارجيل الذي قد دقوه على الخشب حتى كاد يتفتت وأصبح صالحاً للفتل.

ثم أرتنا كيف كانت تقوم حياة أهل ساموا القدماء على أشجار النارجيل التي يتخذون منها الحبال والحصر، وحتى قلائد الزينة تعمل من ثمارها الصغيرة، وكل هذا في نماذج موجودة لديها.

ثم أرتنا حصيراً دقيق النسج جداً وواسعاً، وذكرت أنه ينسج من الخوص اللين الناعم القريب من قلب النارجيلة، ويعدونه للزوجين عند الزفاف.

وكانت المرأة تتكلم والرجل جالس، وقد لبست قميصاً حديثاً ليس فيه من القدم شيء مثلها في ذلك مثل الدليلة، وذلك بخلاف موظفي شركات الجولات السياحية في (هونولولو) الذين كانوا كما رأيتهم يرتدون كلهم الملابس التقليدية القديمة لأهل الجزر، وذلك لإعطاء الجولات نكهة سياحية.

ومن الغريب أن الذباب كانت تحوم حولنا، وتحتاج إلى أن يبعدها المرء عن وجهه، فأعطونا مثلهم ورقاً من ورق الموز لهذا الغرض.

وهذه المرأة التي تتكلم لا نستطيع أن نقول: إنها الدليلة، لأنها ليست كذلك، وهي لم تصحبنا في الجولة كما أنها لم تتحرك من مكانها، وإنما يصح أن نسميها دليلة المحتالة، كما تقول حكاية ألف ليلة وليلة.

وقد أطالت حتى أسرفت في بيان منافع شجر النارجيل لأهل هذه الجزر حتى قالت: إننا نصنع حتى المناخل من سعف النارجيل، ونتخذ منها أيضاً العصي الغليظة التي تنفع في المضاربة، والدفاع عن النفس، كما ذكرت أنهم يتخذون من ثمره كرة مدورة قوية للقذف.

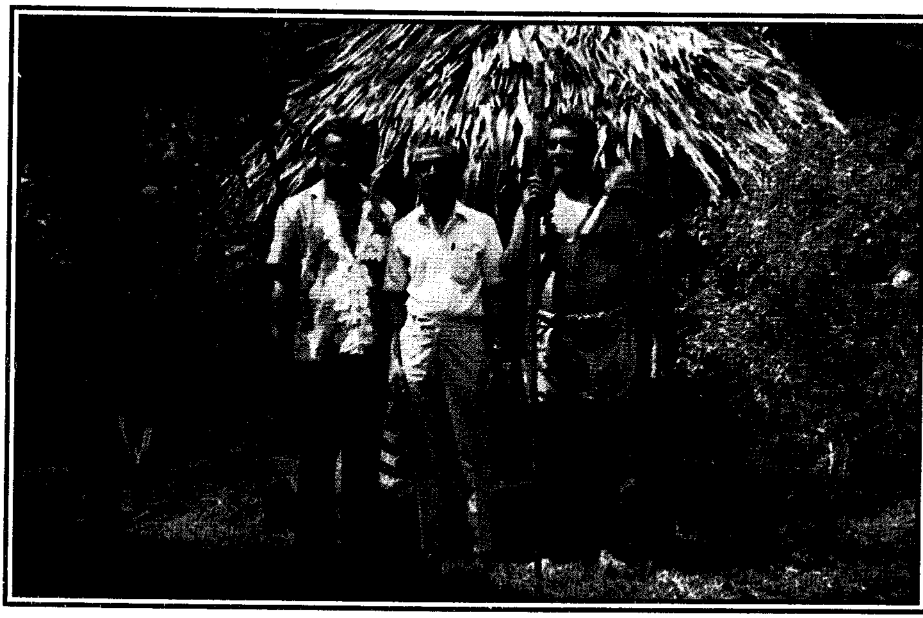
وحتى البخور أعطتنا قطرة من سائل قالت إنه يستخرج من النارجيل، وفيه رائحة عود البخور.

ثم ذكرت ما يستخرجونه من الزهور وأنواع النبات الأخرى التي تنمو في جزيرتهم، وقالت وهي تشير إلى ذلك الرجل الساموى الغليظ: إنه رئيسنا، ثم ذكرت عادة أهل ساموا في انتخاب زعيم العشيرة في شرح أشبه بالمحاضرة المملة.

وقدموا في النهاية ماء من ماء النارجيل للشرب، ثم جاؤوا بلبن النارجيل، وهو سائل أبيض يحركون ما تحت ثمار القشر من جوز الهند الذي هو ثمار النارجيل ويخلطونه ثم يحضرونه، ولم أشرب منه لأنهم أحضروه في إناء مكشوف يحوم عليه الذباب، وقد شرب منه الأستراليون، وجاؤوا بأرز وشيء من خبز الأرز فصاروا يضعون عليه لبن النارجيل ويأكلونه.

ثم انتقلنا معهم خلف الرجل الغليظ لالتقاط صورة تذكارية للغابة، ولنموذج البيوت فيها.

وكان من الأشياء المفيدة في هذه الجولة معرفة بعض أشجار الغابة، ومشاهدة أشجار الكاكاو وعليها ثمارها الناضجة، وهي تشبه البطيخ الأخضر الصغير الشمام إلا أن لونها أحمر.



صورة تذكارية مع الساموي الغليظ على يمين المؤلف ثم سائق الحافلة في غابة ساموا

إلى جهة أخرى من الجزيرة:

بقيت الدليلة السياحية التي كانت قد ركبت معنا من الفندق واسمها (توزا)، وصار سائق الحافلة السياحية التي نحن فيها هو الدليل.

فأمعن في أرض (ساموا) التي تكاد تكون غابة واحدة متشابهة فيها الأشجار الاستوائية المعروفة كالنارجيل والموز، وأشجار الأوراق الملونة التي تكون أوراقها ذات لون فاقع يختلف في كل شجرة عن الأخرى، وتبدو شجرتها منها على البعد كأنما جللت بالزهور.

ثم وصل الطريق إلى ساحل البحر، وصار يباريه في أكثر المواضع.

وساحل البحر أخضر كأنه ساحل نهر، وذلك لكون أرضه مرتفعة عن الماء الملح كما أن الأمطار كثيرة تغسل عنه أملاح البحر.

زيت جوز الهند:

مررنا بمصنع كتب عليه مصنع الزيت، وقالت الدليلة: هو مصنع لزيت جوز الهند الذي يكثر في هذه الجزر يستخرج منه، ويستعمله الناس لأغراض شتى منها أدم الطعام، ومنها دهان الشعر، ولا تكاد النساء يستعملن لرؤوسهن غيره.

ثم ضاق الطريق لأن الجبل زاحم البحر، أو البحر ضايق الجبل، وقال السائق: من هذا المكان هاجم اليابانيون جزيرة ساموا هذه إبان الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٢م.

ثم استمر الطريق يساير البحر ويجانبه دون شرح، لأن المناظر متشابهة، ورأينا عدة نهيرات أو مجار للمياه العذبة من الأماكن المرتفعة والتلال ذاهبة إلى البحر، وعليها جسور صغيرة يعبر فوقها الطريق.

وهذا الطريق يدور حول الجزيرة مما يلي البحر.

شاطئ سولو سولو:

مررنا بشاطئ رملي ضيق لم نر مثله شاطئاً رملياً، لأن معظم الشواطئ التي مررنا بها هي حجرية أو طينية ضحلة لا تصلح للسباحة، وذكروا أن اسمه سولو سولو بيتش، أي شاطئ سولو سولو، نسبة إلى قرية صغيرة هناك اسمها (سولو سولو).

وهو ضيق - كما قلت - وغير فاخر.

وأجمل ما حول الشاطئ تلال خضر قد نهضت قريبة من الشاطئ، وفي أصول هذه التلال نارجيل نضر من أزهى النارجيل الذي رأيته.

وليس على هذا الطريق سكان كثير، وإنما توجد في بعض الأماكن منازل قليلة منفردة.

ثم مررنا بشاطئ آخر يشبه منظره منظر هلال تتوسطه نجمة صغيرة، ونجمته الصغيرة هذه هي جزيرة صغيرة خضراء وسط هذا الشاطئ الهلالي الأخضر، واسم الجزيرة (فوسي).

وأجمل ما فيه من الأشياء المصنوعة فندق اسمه فندق آسيا يطل على هذا المكان الجميل.

ورأيت بعض السكان وقد حملوا ثماراً من ثمار أشجار الغابة من جوز الهند والعمبة (المانجو)، فوضعوه في مكتلين قد علقا بعصا يحمله الرجل على كتفه يتدلى منه المكتلان، وهما الزنبيلان.

شلال فالي فا :



المؤلف عند شلال (فالي فا) في ساموا

وقفت الحافلة عد شلال صغير ينزل من تلة جبلية مرتفعة إلى واد صغير قرب البحر، ويسمونه شلال (فالي فا)، ويذهب ماؤه إلى البحر بعد أن يجتمع فيما يشبه البركة الصغيرة من الحجارة دون أن ينتفع به.

ثم بدأنا العودة إلى الفندق ولكن لا بد - كما أخبرونا - من المرور ببعض الأماكن المهمة هنا، منها مقبرة صغيرة جعلوها وهي في مكان واحد أجزاء بعضها أعلى من بعض كالدرج، وذكروا أن من عادتهم أن يجعلوا موضع القبور الصغيرة فوق موضع القبور الكبيرة.

ومنها (بيولا) وهو ساحل صخري ينزل إليه من درج عالٍ في الصخر، فيوصل إلى مغارة مليئة بمياه البحر لأنها متصلة به من مجرى خفي أسفل حجارة كبيرة تفصلها عن البحر في ظاهر الأرض، وسبح بعض السياح والسائق فيها.

كما وجدنا فيه عدداً من أهل البلاد يسبحون، وليس على الواحد منهم قبل أن يبدأ السباحة إلا فوطة واحدة دون قميص ينزعها إذا أراد السباحة، فيبقى بالسروال القصير الذي يستر العورة المغلظة، وكثير منهم يبدو كأنه لا عمل له، فلم أرهم يهتمون بالوقت، ولا بكيفية انقضائه.

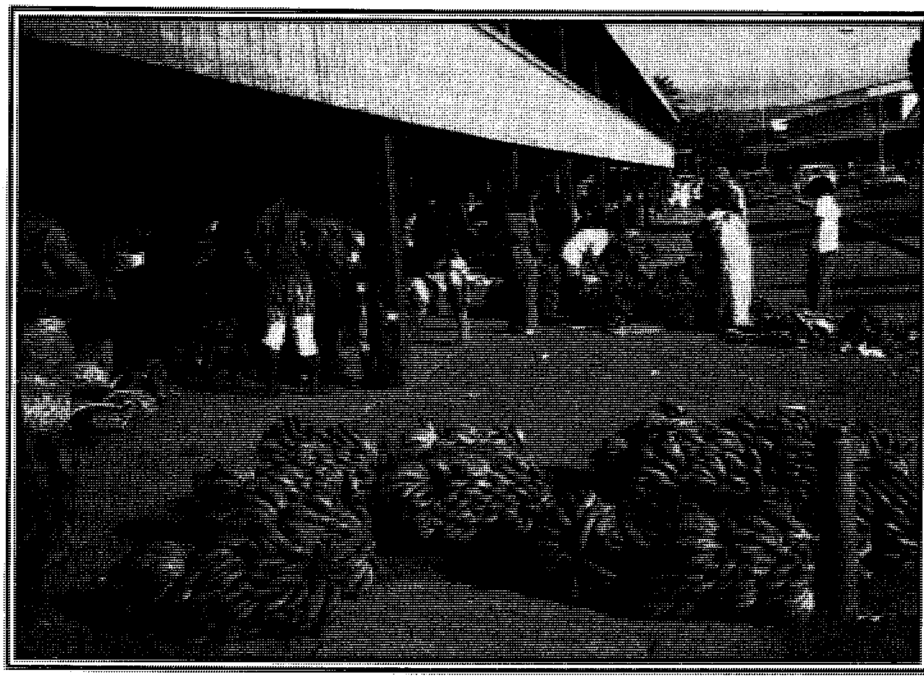
وقد فرغنا من رؤية المكان، وطلبنا العودة إلا أن الدليل لم يرد أن يتحرك بسرعة، ربما كان يريد أن ينفق بقية الوقت المحدد للجولة كيفما اتفق.

ثم عدنا إلى الفندق، ومررنا قبل الوصول بمدارس للبنات، فرأينا لباسهن موحداً، وهو فوطة حمراء تقرب إلى منتصف الساق فوقها قميص أبيض قصير الكمين.

ووصلنا الفندق في الثانية والنصف متعبين من الحر لكون السماء كانت صاحية والشمس حارة، وإلا فإن الهواء ليس حاراً.

في سوق الجزيرة:

وأسواق البلاد الشعبية تبيّن أنواع الثمار التي تنمو في الجزيرة لأنها تباع فيها، كما تبين حالة القوم المالية من واقع ما يبيعونه وما يشترونه، لذلك كنت أحرص على زيارتها في البلاد التي أزورها.



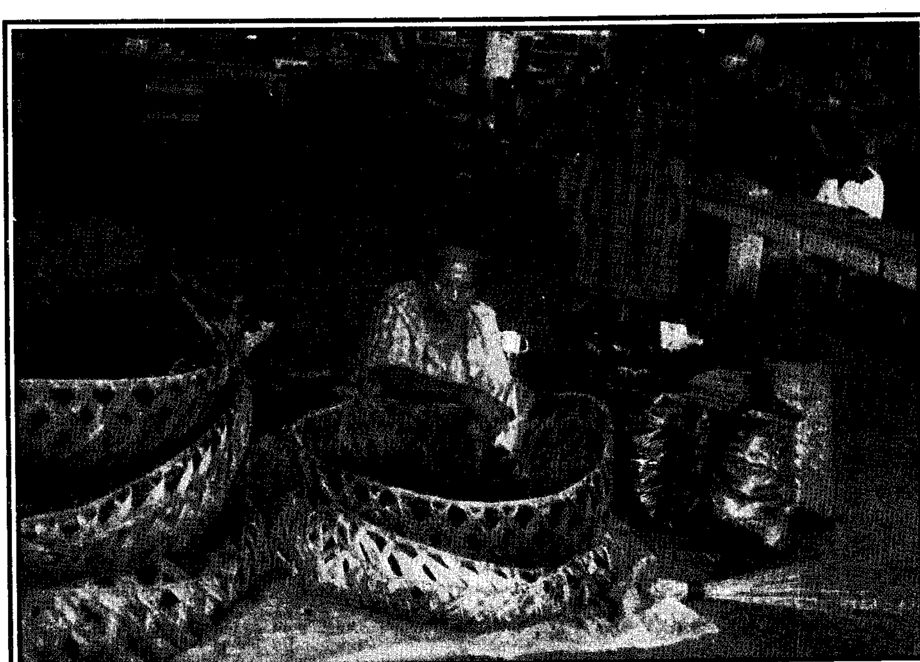
السوق في جزيرة ساموا

وقد دخلت سوق الجزيرة المخصص للخضرات والفواكه وبعض البضائع الأخرى غير المصنوعة، من ذلك فحم من فحم النارجيل، رأيته عند امرأة مسنة ليس عندها بضاعة غيره وقد وضعته في أكياس يستطيع الرجل أن يحمل منها اثنين بيده، ثمن الواحد (تسالان) وهما اثنان من عملتهم، ولا أدري لم يستعملونه، لأنني لا أظن أنه للطبخ؛ إذْ هو أغلى من أنواع الوقود الأخرى إلا إذا كان يطبخ به أشياء خاصة.

وأكثر المعروضات من الموز، فهو فيه أكوام مكومة في أنواع منوعة

من الأصفر الصغير الرقيق اللذيذ الطعم الذي لا يصلح إلا بأن يؤكل فاكهة، ويضرّ به النقل، لذلك لا يصدر إلى خارج موطنه، إلى الأصفر الكبير المعتاد الذي نعرفه في بلادنا، إلى الأخضر الكبير الذي هو الأكثر مقداراً، وهو الذي يستعمل للطبخ هنا، ويؤكل وجبة رئيسية بديلة عن الأرز أو الخبز كما يفعل به الأفارقة وغيرهم من سكان المناطق الاستوائية، فكان هذا السوق لكثرة الموز فيه يصح أن يسمى بسوق الموز، ومنه أيضاً رفيق الموز في المناطق الاستوائية، وهو الباباي إلى جانب ثمار العمية (المانجو) المتعددة الأحجام والألوان.

وكل المعروضات في هذا السوق تدل على الفقر وضعف الدخول إلى جانب ملابس الباعة والبائعات اللاتي يوجدن بكثرة هنا، ولكنهن لسن أكثر من الرجال كما هي العادة في مثل هذه الأسواق في المناطق الاستوائية من إفريقية وآسيا.



بائعة الفحم في سوق ساموا

وجوز الهند وهو ثمار النارجيل سلعة رئيسية في هذا السوق يستوي في ذلك أخضره الذي يتخذ لشرب الماء الذي فيه ويابسه الذي يستخرج منه الزيت الذي يؤتدم به الطعام.

العذاب في الحجز:

مساكين مواطنو الدول المتخلفة في الإدارة، لأن الشيء الذي يمكن أن يقضى للمرء في البلدان المتقدمة في الإدارة في مدة يسيرة يحتاج منهم إلى مدة طويلة وجهد عظيم.

والذين يمرون بهم أو يوجدون معهم هم كذلك مساكين لأنه يصيبهم ما أصابهم، فقد استأنفت هذا اليوم أيضاً السعي لإنهاء الحجز والسفر، ولكن الموظفة اعتذرت عن وجود الحجز لي قبل أن تغير تذكرتي كما وعدتني بالأمس، ونصحتني بالذهاب إلى شركة (أير نارو) ونارو جزيرة في المحيط الهادئ إلى الشمال من منطقة ساموا فيها شركة طيران ذات رحلات واسعة في المنطقة، فذهبت إليها ولكنها لم تفعل لي شيئاً بل قالت موظفة فيها: إننا لا نستطيع حتى أن نغير تذكرتك، لأن شركتنا ليست عضواً في منظمة الطيران الدولية (إياتا)، ولذلك ليس لنا تعامل مع الشركة السعودية.

وأخيراً وبعد لأي وجدت عندها خطاً مناسباً من (آبيا) عاصمة ساموا الغربية إلى (باقو باقو) عاصمة ساموا الأمريكية، ومن هناك إلى (رارو تونغا) عاصمة جزر كوك، ثم إلى بابيتي عاصمة تاهيتي، وكانت تذكرتي التي قطعتها من الرياض هي من آبيا إلى رارو تونغا إلا أن الرحلة بين هاتين البلدتين هي مرة واحدة في الأسبوع وفي يوم السبت، وهو موعد غير مناسب لي.

وذكرت الموظفة أن الصعوبة هي في تغيير تذكرتي من جهتهم لأنهم كما قالت ليس لهم تعامل مع السعودية، ولكنها كتبت لي مذكرة إلى مديرة شركة بولينيزا تطلب منها تغيير تذكرتي وفقاً لهذا الخط لأنها عضو

في (إياتا).

وقد قبلت الشركة تغيير تذكرتي بشرط أن أسافر معها من آبيا إلى (باقو باقو)، ومع شركة (أير نارو) من (باقو باقو) إلى (رارو تونغا).

وهكذا كان بعد تعب وتردد متكرر على مكاتب الشركات.

ومن اللطيف في الأمر الذي لا لطيف غيره هنا أن مديرة مكتب الشركة (البولينيزية) عندما أتمت تغيير التذكرة إلى تذكرتين، ووضعت الحجز عليهما ناولتني إياهما وهي تقول: السلام عليكم، ولم أكن سمعت بهذه التحية، بل لم أكن سمعت من قبل أن هناك من يحيي بها في هذه البلدة لأنه لا يعرف وجود مسلمين في هذه الجزيرة.

وقد سألتها عما إذا كانت مسلمة؟ فقالت: لا، ولكنني عرفت بعض المسلمين من جزر فيجي، وهذه هي تحيتهم.

والمفرح في الأمر أن سفري إلى ساموا الأمريكية سيكون في وقت مبكر من صباح غد الثلاثاء.

وكنت مللت المقام في هذه الجزيرة على قصره، لأنني شعرت أنني عرفت ما أريد معرفته منها، ولذلك استثقلت حتى إنفاق هذه الليلة فيها، ولم تنشرح نفسي للكتابة عن حفلة أقامها الفندق في مطعمه للرقص الساموي، فحضرت بعضها ثم غادرتها قبل أن تتم، وذلك أنها تعتمد على رقص محلي رمزي يرمز لحكايات، ويشير إلى أشياء لا أفهمها، وهم يشرحون ذلك بلغتهم، ولا يترجمونه إلى الإنكليزية، وهي قريبة مما كنت رأيته في تونغا قبل يومين، ويعتمد في الزينة على زهور محلية يقطفونها من أشجار للزهور كبيرة وعلى مشتقات من شجر النارجيل الأخضر.

يوم الثلاثاء ٣/١٢/١٩٨٥هـ

مغادرة ساموا الغربية:

استيقظت قبل الفجر، وكنت طلبت من الفندق أن يهيئ لي سيارة أجرة تنقلني إلى المطار في وقت مبكر، ودفعت لفندق تستالا أجرته لليلتين ١٩٠ تسالا، ويساوي ذلك ٩٣ دولاراً أمريكياً، ويدخل في هذا المبلغ عشاء واحد وفطور واحد، وهي أجرة رخيصة إذا ما قورنت بنيوزلندا مثلاً وبخاصة إذا ما نظرنا إلى المستوى الجيد للفندق الذي هو في مستوى فنادق الدرجة الأولى ذات النجوم الخمس، إلا أنهم يحرصون في هذه الجزر الصغيرة وما يماثلها من البلدان ذات الدخول المحدودة على تشجيع السياحة بتخفيض أجور الفنادق وأماكن الإقامة.



المؤلف في الطريق بين المدينة والمطار في ساموا

وغادرت الفندق على حافلة صغيرة فيها عدد من الركاب غيري في

الساعة الخامسة والنصف رغم كون موعد مغادرة الطائرة هو الثامنة، ولكن موظفي الفندق كانوا قد أخبروني أنه لا بد من الوصول إلى المطار قبل موعد المغادرة، وإن هذه هي العادة عندهم، مع أن الطائرة ليست من الطائرات الكبيرة، وأن مدة الطيران عشرون دقيقة كما أخبروني، وأجرة الحافلة للشخص الواحد إلى المطار خمسة تسالات، وهو مبلغ زهيد إذا قيس بالمسافة الطويلة بين الفندق والمطار.

وأشرقت الشمس في الطريق، ورأيت أفراداً من الأهالي جالسين وهم قلة خلاف من رأيتهم في القدوم، فكانوا قد مدوا أرجلهم وهم جالسون فوق الأعشاب أمام منازلهم، وذلك للرطوبة والندى في هذا الصباح.

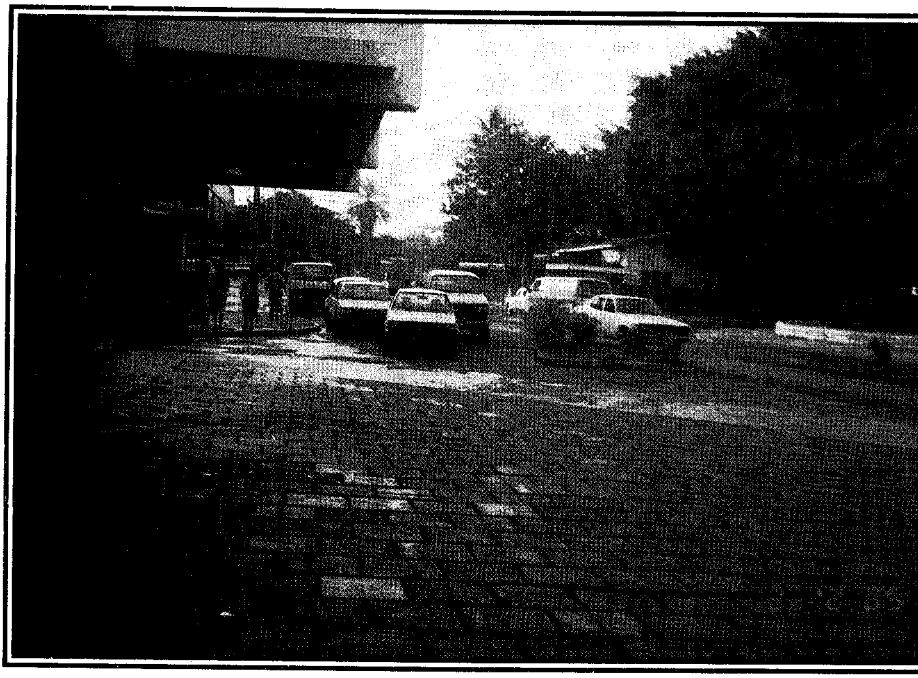
ومررنا بنار موقدة داخل الغابة، وقد تكاثف دخانها وارتفع دون أن يتبدد، وذلك دليل على شدة الرطوبة في الغابة كما هو معروف، لأن الدخان ينتشر في الأماكن الجافة أكثر مما ينتشر في الأماكن الرطبة.

ووصلنا المطار بسرعة لخلو الطريق من السيارات، وانتهزت الفرصة للتمشي فيما حول المطار الذي يقع على شاطئ البحر كما قدمت، واسمه مطار فاليلوا (فاليوا أيربورت)، ولكنه في منطقة كثيفة من الغابات مثل سائر الجزيرة إلا أنهم نسقوا أشجار الغابة التي تحف به.

وعند مكتب الترحيل أنهوا كل شيء حتى استمارة الدخول إلى ساموا الأمريكية أنهيناها مع استمارة الخروج قبل أن نغادر المطار حسب طلبهم، وذلك لأن مدة الطيران بين (السامويتين) الغربية والأمريكية قصيرة، واشتريت بما بقي بيدي من نقودهم تحفاً صغيرة من صناعة بلادهم، وذلك لكون مكتب المصرف الذي كان في المطار لم يفتح حتى الآن.

من الملاحظ أنه يوجد في المطار محلان أحدهما يبيع بضائع مستوردة أهمها الخمر والدخان يبيع بالعملة الصعبة، والثاني للمصنوعات المحلية يبيع

بعملتهم، وجلس من انتهى من الركاب مع من لم ينته على مقاعد خشبية خارج المبنى تحت مظلات من الخشب والصاج.



مدخل مطار آبيا مما يلي المدينة

والملاحظ أن لغتهم هنا لها اعتبارها، فهي مكتوبة على بعض اللافتات مع أنها محلية ضيقة، وأن عدد السكان لا يزيد على مائة وخمسين ألفاً.

ولم يأخذوا مني رسم مغادرة المطار مثلما أخذوه من غيري، وذلك من أجل جوازي (الدبلوماسي) مع أنهم ليس لهم تعامل مع المملكة العربية السعودية.

في ساموا الأمريكية

ساموا الأمريكية:

(ساموا) الأمريكية مجموعة من الجزر الصغيرة واقعة تحت الحماية الأمريكية، مساحتها ١٩٧ كيلو متراً مربعاً، وسكانها نحو ٣٩ ألف نسمة، يضاف إليهم عدد من الجنود الأمريكيين الذين يوجدون في قاعدة عسكرية بحرية دائمة، وعاصمتها (باقو باقو) التي يبلغ عدد السكان فيها تسعة آلاف نسمة.

من آبيا إلى باقو باقو:

خرجنا مباشرة من مكاتب الجمرك والجوازات إلى ساحة وقوف الطائرة لأن قاعة المغادرة صغيرة لا تتسع لركاب الطائرة كلهم.

وكانت الطائرة واقفة بعيداً عن أبنية المطار كما هي العادة في القدوم، فذهبنا سيراً على الأقدام، وفي الركاب بعض كبار السن ثقال الأجسام من منطقتهم.

وهي من طراز بوينغ ٧٣٧ الذي يعتبر صغيراً؛ بل هو أصغر الطائرات المستعملة على الخطوط العالمية التي تنتجها شركة بوينغ.

واللافت للنظر أن الطائرة مكتوب عليها (بولينيزيا وانا واتو للتعاون)، وبولينيزا: اسم الشركة التي تعمل في هذه الجزر من جنوب المحيط الهادئ الشرقي التي ينتمي سكانها إلى جنس البولينيز، وأما (وانا واتو) فهي جمهورية صغيرة في بعض الجزر التي تقع إلى الشمال من ساموا، وكانت تسمى قبل الاستقلال (نيو هبريدز)، وتخضع لإدارة مشتركة بين فرنسا وبريطانيا، وعندما استقلت غيرت من اسمها إلى هذا الاسم الذي يدل على لفظ أهل المنطقة، ويشبه الأسماء الإفريقية العريقة، وهو (وانا واتو) تماماً مثلما أن اسم المدينة التي نحن ذاهبون إليها الآن هي (باقو باقو) يشبه الأسماء

الإفريقية.

وقرب الشبه في (وانا واتو) بإفريقية والإفريقيين لا يقتصر على اللغة، بل يشمل اللون أيضاً، فالسكان الأصلاء الذين هم الأغلبية فيها هم سود الألوان، يشبهون ألوان الإفريقيين في هذا الأمر، وهم من جنس يسمى (الميلانيز) بخلاف سكان هذه الجزر البولينيزية، فهم ليسوا سوداً، وإنما هم دهم الألوان، أي أن ألوانهم سمر تميل إلى الحمرة، أو حمر تميل إلى السواد.

وقد شرحت أمر جمهورية (وانا واتو) هذه وما جاورها من جزر المحيط الهادئ الجنوبي في كتاب آخر غير هذا الكتاب وهو: ((جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ)) المطبوع.

وبينما كانت الطائرة تستعد للإقلاع قدموا الضيافة، وهي لا تزال على الأرض فنجاناً من شراب البرتقال مختوماً يشبه فنجان الشاي وذلك لكون مدة الطيران قصيرة لا تسمح بتوزيعه أثناء الطيران.

وغادرت الطائرة أرض المطار قبل الموعد المحدد لقيامها بأربع دقائق، وذلك في الثامنة إلا أربع دقائق مع أن الموعد المحدد هو الثامنة.

وهذه من المرات القليلة التي تقوم فيها طائرة للركاب قبل موعدها.

وعندما نهضت كانت تطير فوق جزيرة ساموا الغربية، فبدت خضراء كثيفة الخضرة، بل بدت من الجو أشبه بالغابة الندية بحيث لا يرى المرء من الطائرة فيها إلا أشجار الغابات الملتفة، وقد غابت البيوت التي هي غير متراصة فيها تحت الأشجار.

ثم حالت دونها سحب بيض بل ناصعة البياض لأن أشعة الشمس انعكست عليها فبدت كذوب الفضة، ولم نعد نرى شيئاً تحتنا، وكنت حجزت مقعدي بجوار النافذة.

وجميع مقاعد الطائرة مليئة بالركاب الغلاظ الذين يبدون كالسمان المفرطي السمنة، مع أن بعضهم كما قدمت هو غليظ الجسم طبيعة وليس لفرط السمن.

ما عدا شاباً منهم كان مفرطاً في السمن، غليظ الجسم، يشبه بعض السمان الغلاظ من الأمريكيين الشماليين، لم يجدوا له مقعداً يسعه فأبعدوا الحاجز الذي بينه وبين جاره في المقعد فلما جلس صاح جاره قائلاً: أبعدوه عني إنه يكاد يقتلني، وبعد لأي واستهزاء به، وجدوا كرسياً خالياً فرفعوا الحاجز بينهما، وأجلسوه في الكرسيين الاثنين معاً.

وفوق البحر بين الجزيرتين الساموتين، وهما الغربية التي غادرناها والأمريكية التي نحن مقبلون عليها صحا الجو، وبدأت الطائرة بالتدني بعد قيامها بأربع عشرة دقيقة حيث استقبلتنا قرب الساحل سحب كانت متراكمة على جبال (ساموا الأمريكية).

في باقو باقو:

أقبلنا على (باقو باقو) عاصمة (ساموا الأمريكية)، فبدت على البعد كشقيقتها في (الساموية) خضراء كثيفة الأخضرار إلا أنها أعلى جبالاً وأنضر أشجاراً، بل لنقل إنها أنضر غابات.

وبعض سواحلها تغطيها رمال نظيفة جميلة صالحة للاستحمام والتشمس مع أن المنطقة كلها تعتبر منطقة مشمسة.

وبعض السواحل صخري تنهض منه التلال الجبلية الخضر واقفة وقوفاً مباشراً.

وهي مثل (ساموا الغربية) ذات منازل متفرقة غير متلاصقة، وإنما هي منثورة نثراً بين أشجار النارجيل التي بدت في الوديان، وبعض التلال الجبلية

غير العالية متشابكة الفروع كأنما يعانق بعضها بعضاً.

ثم هبطت الطائرة في المطار بعد ١٩ دقيقة من الطيران في مدرج يقع على البحر، بل هو مثل مطار ساموا الغربية بعضه مدفون في مياه البحر يحيط به البحر من اليمين واليسار.

ولكن الفرق بين الساموتين وجدناه عندما هبطنا في الإدارة، لأن إدارة ساموا هذه أمريكية، لأنها أرض أمريكية، فالمكاتب في المطار هنا جيدة، وإن لم تكن فاخرة، ووجدنا عربات اليد التي يحمل عليها المسافر أمتعته في هذا المطار، ولم تكن موجودة في مطار تونغا ولا في مطار (ساموا) الغربية.

ولم يسألونا في الجوازات عن سمة الدخول كما لم يسألوا أحداً من الركاب عنها مثلهم في هذا الأمر مثل سائر أهل الجزر لأنها جزر صغيرة هادئة خالية من المشكلات السياسية الحادة، وبعيدة عن مناطق الاحتكاك السياسي العالمي.

وقد فتش الموظف حقيبتي الكبيرة مع أن جوازي سياسي إلا انه تفتيش لتحلة القسم؛ إذ قلب ظاهرها بيده ثم تركها مع أنني رأيتهم يشددون في تفتيش حقائب الركاب، وربما كانوا يخشون من حمل مخدرات، أو نحوها في بعضها.

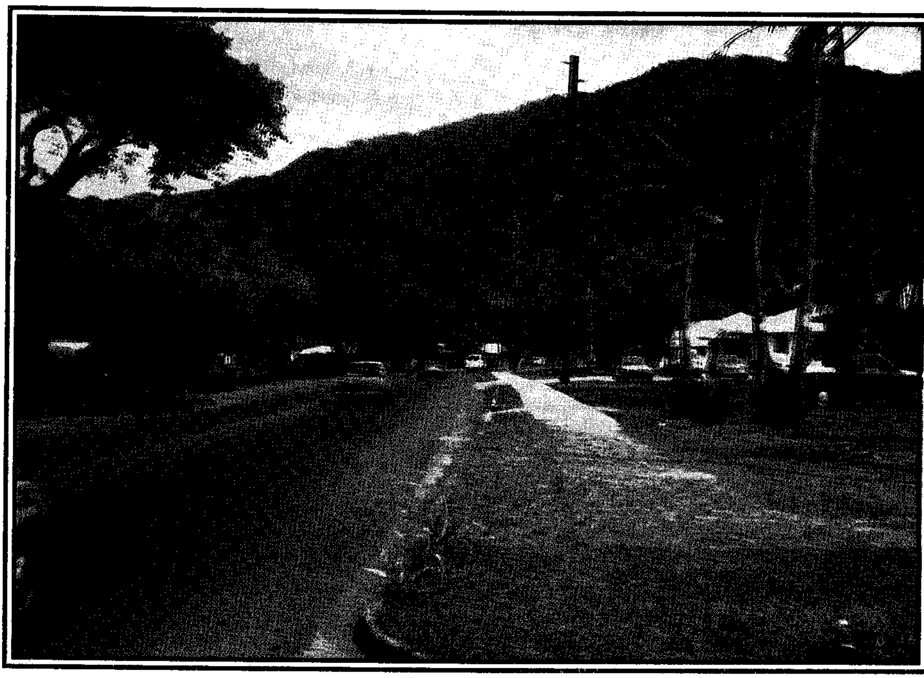
وركبنا سيارة أجرة تقاسمت أجرتها مع راكب هندي الأصل ذكر أنه من فيجي قاصدين فندقاً مشهوراً هناك يعرفه من قبل، وأشار به عليَّ أهل (آبيا).

وتبلغ مسافة الطريق من المطار إلى الفندق الذي يقع في بلدة (باقو باقو) العاصمة ثمانية عشر كيلو متراً.

ويقع معظم الطريق في لحف جبال خضر واقفة تشبه جبال (هونو لولو) في وقوفها وشدة خضرتها، إلا أنها هنا تنهض من قرب البحر مباشرة،

والأراضي المتسعة ما بين البحر والجبال قرب المدينة ليست كثيرة.

وكان سائق سيارة الأجرة ثرثاراً ظل يحدثنا عن الوضع في هذه الجزيرة، فكان مما كرره أكثر من مرة قوله: إن الناس هنا فقراء، والنقود بأيديهم قليلة رغم أن الجزيرة هي أرض أمريكية.



الطريق بين المطار والمدينة في ساموا الأمريكية

وترى النارجيل بكثرة هنا لكنها في ساموا الغربية أكثر، وإنما توجد هنا أشجار أخرى نضرة كأشجار العمبة (المانقو)، إضافة إلى كثرة الموز هنا مثلما هو موجود هناك.

وكان السائق يتمهل في سيره، وطبيعة الطريق توجب عليه ذلك لضيقه فيما بين البحر والجبال أحياناً، ولكثرة السيارات الأمريكية الصنع هنا أكثر من ساموا الغربية، وأحسن حالاً أيضاً.

وعندما وصلنا المدينة وجدنا منازلها وأبنيتها متفرقة رغم ضيق الأرض،

وذلك لقلة السكان ولحرصهم على بقاء البلدة فيما يشبه الريف.

والواقع أن ذلك أكسبها جمالاً ورونقاً، أو لنقل إنه لم يفسد جمالها الطبيعي الأخاذ.

ونزلنا في فندق (رين ميكر)، وهو من فنادق الدرجة الأولى، أمريكي في كل شيء مثلما أن البلاد أمريكية في أكثر الأشياء ما عدا السكان الأصلاء الذين هم من جنس سكان ساموا الغربية من البولينيز الأصلاء الذين يتميزون بغلظ الأجسام، وكبر التقاسيم في الوجوه.

وأجرة الغرفة الواحدة في الفندق ٤٦ دولاراً أمريكياً، والعملة هنا هي الدولار الأمريكي ليس غير.

وهذه أجرة رخيصة بالنسبة إلى هذا الفندق الذي يحاكي فنادق الدرجة الأولى إن لم يكن من أفضلها في بنائه ورياشه.

وهو من أفضلها في موقعه؛ إذ بنوه على شاطئ البحر في رأس صغير من الأرض داخل في البحر غير بعيد من الميناء الطبيعي للجزيرة، وتطل عليه جدران جبلية واقفة خضر المنظر، غاية في الجمال.

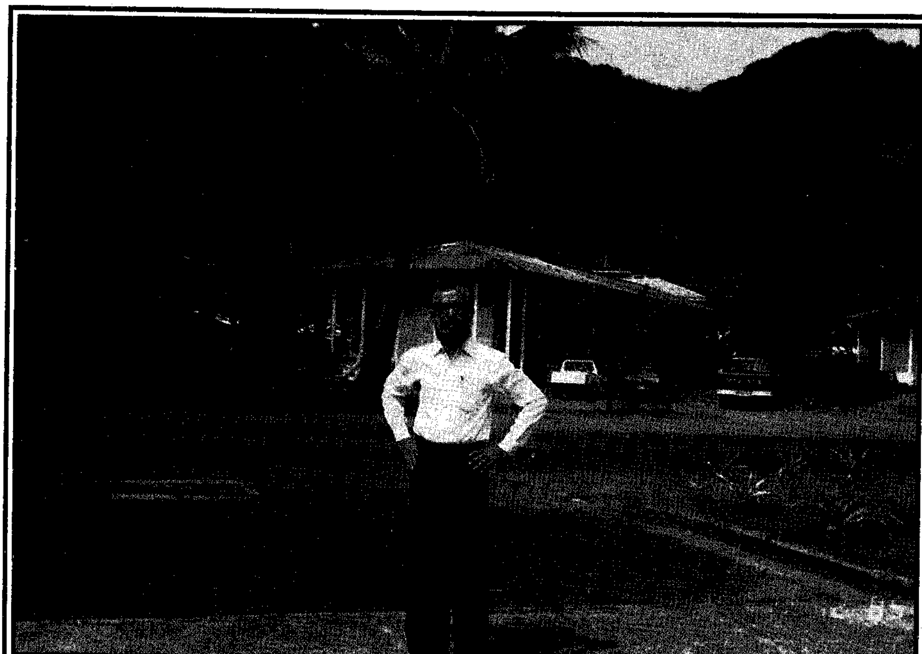
وقد تحكموا في أرضه حتى جعلوا مسبحه مع أنه على البحر مباشرة في فناء مكشوف مرفوع عن البحر من هواء طلق، وشربت الشاي فيه بخمسة وستين سنتيماً من الدولار الأمريكي، وهذا سعر رخيص غير أن ذلك هو سمة كل شيء في هذا الفندق.

تمشية في باقو باقو:

حالما اطمأننت على أمتعتي في الغرفة، وأودعت جوازي ونقودي الزائدة في خزينة الأمانات في الفندق حجزت مع جولة من الجولات السياحية في الجزيرة بعد الظهر.

ثم أطلقت لرجلي وفكري العنان في شوارع هذه الجزيرة الغربية، فرأيت من كثرة السيارات فيها ما أعجبني، وبخاصة بعد قلة السيارات في جزر المحيط الهادئ التي زرتها في هذه السفرة من قبل، وهي تونغا وساموا الغربية.

كما لاحظت أنه ليس كل السكان من الشعب البولينيزي النقي الموجود في البلدين اللذين ذكرتهما، وإنما هذا هو حال أغلب السكان، ويوجد بينهم أناس من ذوي المظهر الأوروبي أكثرهم أمريكيون جاؤوا هنا للعمل في القاعدة البحرية الأمريكية في هذه الجزيرة أو لأعمال الأخرى، وطائفة من السكان هم ممن يسميهم الأوربيون (الكريول)، وهم المختلطون ما بين الأمريكيين والوطنيين، وذلك ظاهر من شعورهم وتقاسيم وجوههم.

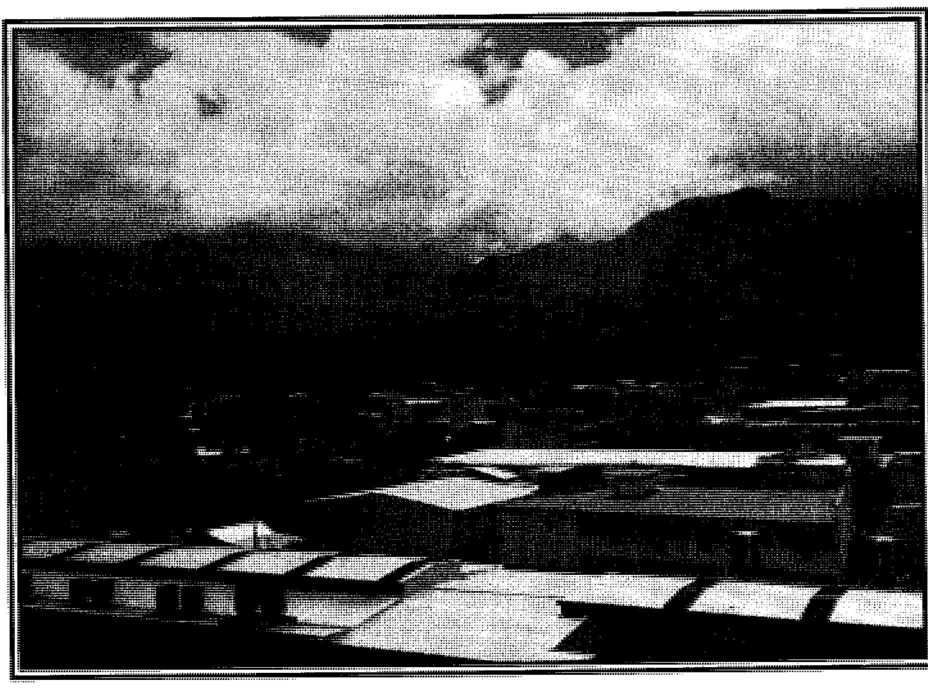


المؤلف في الشارع الرئيسي في مدينة باقو باقو

ولكن الأهم من ذلك ما لاحظته من عدم السعادة في وجوه السكان، أو هذا هو ما خيّل إليّ، فأكثرهم يبدو كأنما أرهقه العمل.

وربما كان السبب في هذا حرص الناس في هذه البلاد التي توجد فيها نقود كثيرة على جمع النقود أو الإكثار من ذلك، وعدم قدرتهم على تحقيق مطلوبهم.

وأما البلدة فإنها في أغلبها شارع واحد مستطيل عليه المتاجر، وأكثرها غير متلاصق، والدوائر الحكومية والشركات في تنظيم جيد، إلا أن مصدر الجمال فيها هو في الأصل في خضرة أشجارها، بل في تفتح أزهارها، وانتشار ظلالها.



بلدة باقو باقو عاصمة ساموا الأمريكية

ومن ألطف ما رأيته فيها صخرة طبيعية واحدة مجللة بالخضرة، حتى الأشجار الكبيرة قد اعترضت الشارع العام فجعلوها كالميدان تتفرق عنها الشوارع كالجزر المستديرة في الشوارع المعتادة، وكانت الشمس حارة رغم كوننا لم ندخل في وقت الظهيرة بعد.

ولم يكن في هذا الشارع ما يغري بالاستمرار بالسير فيه، وبخاصة أن المشاة قليل، لأن أكثر الانتقال هو بالسيارات، والمنازل متفرقة كما قلت.

وهناك حافلات تنقل المواطنين، وسيارات الأجرة موجودة بقلة.

ولم يكن مظهري يلفت نظر أحد، بل لم أر من تحدثت إليهم في الفندق أو غيرهم من يظن أنني عربي، بل كانوا كلهم يعتقدون بأنني أمريكي، مثلهم في ذلك مثل أهل ساموا الغربية، وذلك أنه يأتي إليهم بعض الأمريكيين الذين ولدوا في هذه المنطقة أو ما حولها من المحيط الهادئ، وهي منطقة حارة رطبة لا تبعد كثيراً عن المنطقة الاستوائية، فيؤثر ذلك في ألوانهم وكذلك في ألوان من يكونون قد عاشوا طويلاً هنا، فتصبح ألوانهم قريبة من ألواننا.

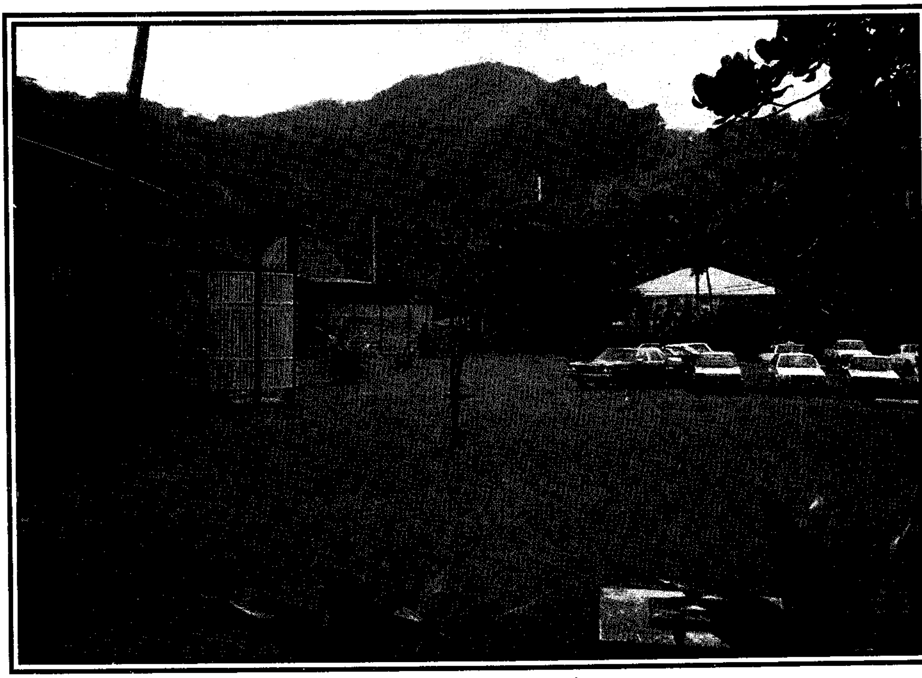
جولة في الجزيرة:

وهذه هي الجولة السياحية التي حجزت معها من مكتب للجولات السياحية في الفندق بثمانية عشر دولاراً أمريكياً لمدة ثلاث ساعات، بدأت في الساعة الثانية عشرة ظهراً على سيارة صغيرة ذات ثلاث مراتب، ولم يكن فيها سوى السائق الذي هو السائق والدليل غيري، إلا امرأة أسترالية قالت إنها كانت قادمة من الولايات المتحدة الأمريكية، وانتهزت الفرصة لزيارة هذه الجزر في طريق عودتها إلى وطنها أستراليا.

بدأها السائق بالمرور على الشارع الرئيسي الذي فيه السوق التجارية، وكنت رأيت بعضه مشياً على قدميّ قبل قليل.

ويقع بين جبلين جميلين أخضرين، وحوانيته متفرقة وقليلة، ولكنها كبيرة على نظام الحوانيت الأمريكية في البلدان الصغيرة، وأشار إلى الميناء البحري القديم وقال: كان هذا الميناء ذا أهمية بالغة في القديم قبل وصول الطائرات إلى هنا.

وحتى المطاعم كان يشير إليها ويذكر أسماءها مما أوجد في ذهني انطباعاً بأن المنطقة ليس فيها أماكن سياحية مهمة، وإلا لكان وفّر شرحه لها.



ضاحية في باقو باقو عاصمة ساموا الغربية

ورأى في ميناء صغير آخر سفناً لصيد السمك وقطاراً قائلاً: إنه تابع للبحرية الأمريكية.

ثم بدأ في الخروج من البلدة، والخروج إلى الريف الذي هو جميل حقاً، فكان أول ما رأيناه من الطريق نهراً صغيراً يأتي من الجبال قاصداً البحر، لم أرهم يستفيدون من مائه لوفرة المياه عندهم من الأمطار التي تهطل بغزارة على هذه الجزيرة ذات الجبال العالية التي تمسك بالأبخرة الكثيفة المتصاعدة من مياه المحيط الهادئ العظيم عندما تسقط عليها أشعة الشمس الحارة.

وقد تناثرت المنازل والبيوت في هذا الريف على سفوح الجبال، ويقع كل بيت وسط مساحة خضراء منسقة، توشحها أو تتناثر فيها أشجار ضخمة من

الأشجار اليانعة المورقة، أو من أشجار الظل أو أشجار الزهور، ولا يحتاج صاحب البيت إلى تعهدها بالسقي مثلاً لأنها تشرب من مياه الأمطار.

ولغلبة الرطوبة وكثرة الأنداء في أرض الجزيرة رأيناهم يرفعون أكثر البيوت بأخشاب عن سطح الأرض حتى لا تتآكل من الرطوبة، وبخاصة منها البيوت الخشبية التي هي أكثر أنواع البيوت القديمة هنا.

وبعض البيوت يبدو كالأكواخ الواسعة، وذلك لكثرة الأخشاب التي تؤخذ من أشجار الغابات الملتفة في الجزيرة، أو تجلب من الجزر الأخرى المجاورة.

قرية فال:

مررنا بقرية صغيرة ذات بيوت أكثرها خشبية متفرقة قال السائق الدليل عندما سألته عن عدد سكانها: إنه يبلغ خمسمائة نسمة فقط، وكنا رأينا قبل الوصول إليها بقليل كنيسة تقام للكاثوليكيين فسألته بهذه المناسبة عن عدد الكنائس فيها؟

فأجاب: إن عددها ست لأنها لمذاهب مسيحية مختلفة.

فقلت في نفسي: اللهم هيئ من يبني في هذه الجزيرة مسجداً تعبد فيه.

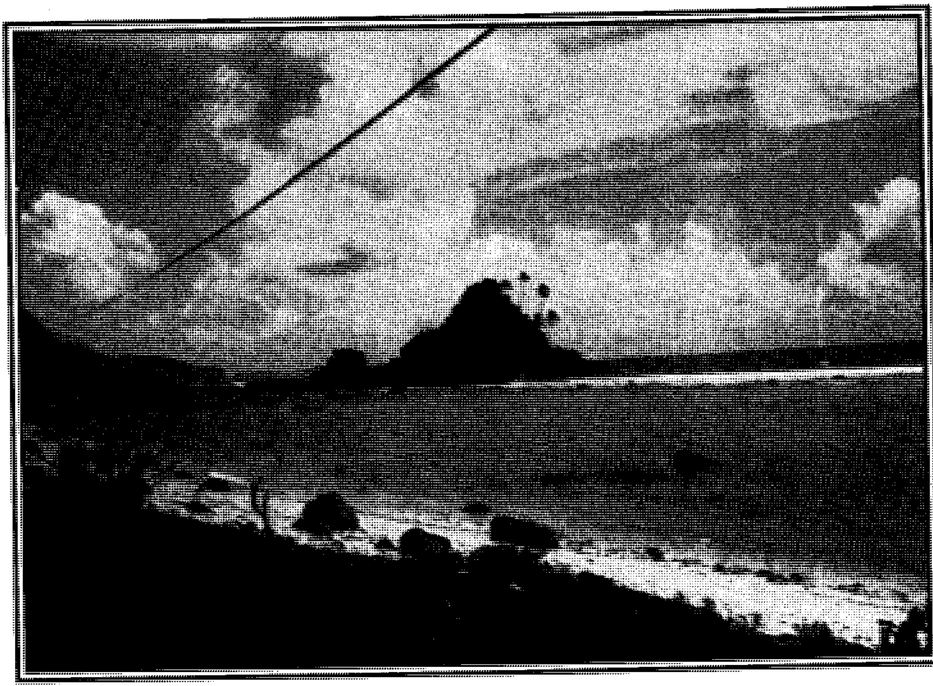
وقلت للسائق: ماذا عن المسلمين هنا؟

فأجاب: ليس عندنا مسلمون.

وبطريق الأولى في النفي أنه ليس عندهم مسجد، وسألت السائحة الأسترالية بهذه المناسبة عن دينها؟

فقالت: لقد ولدت مسيحية، ولكنني لا أؤمن بالدين المسيحي كلية، ولا أذهب إلى الكنيسة إطلاقاً.

صخرة الجمل:



صخرة الجمل

كنت قرأت في منشور كانوا قد أعطونا إياه يتحدث عن الأشياء التي يراها من يذهب في هذه الجولة، وفيه الحديث عن صخرة الجمل الذي يريدون به البعير، فكلمة جمل التي تدل في العربية على الذكر من الإبل أصبحت في الإنكليزية علماً على البعير سواءً أكان جملاً أم ناقة.

فقلت في نفسي: ما للبعير سواء منه جمله أو ناقته، وهذه الجزر التي لو كانت للعرب لما استطاع الجمل أن يعيش فيها، فكيف وهي خالية من العرب؟.

وجاءت المناسبة عندما اقبلنا على جزيرة صغيرة في البحر غير بعيدة من الشاطئ، وكان الطريق يسير قرب الشاطئ، فقال السائق: سوف نقف قليلاً لتأمل صخرة الجمل وليصورها من يريد منكم التصوير، واسمها بالإنكليزية

(كامل رك).

النارجيل على ظهر الجمل:

وأوقف سيارته على الشاطئ، فرأيت صخرة الجمل وهي صخرة كبيرة على هيئة جزيرة صغيرة نهضت من البحر تجاه الشاطئ يشبه شكلها على البعد شكل البعير، ومن هنا كانت تسميتهم لها بصخرة الجمل.

وقد لفت انتباهي أكثر من مجرد التسمية وجود أشجار من أشجار النارجيل التي يشبه مظهرها على البعد مظهر نخيل التمر عندنا، وهي نابتة نامية فوق ظهر الجمل هذا، فذكرت مثلاً عامياً لبني قومنا يقول في استحالة الشيء: ((لو ينبت براسك نخله))، وقلت: هذه هي النخلة، قد نبتت على ظهر هذا الجمل الساموي، ولكن العجب ليس في هذا وحده، وإنما في كونها ليست من النخل التي ألف الجمل رؤيتها، بل التي صارت وهو صنوين في سكنى البلدان الصحراوية والشبيهة بالصحراوية، وإنما هي نخلة أخرى من نوع آخر لا ينمو حتى في البلاد التي يوجد فيها البعير.

ولكن ما دام الأمر خيالاً في خيال، وجملهم هذا هو صخرة نابتة في البحر، فلتكن الشجرة التي تنبت على ظهره ما تكون.

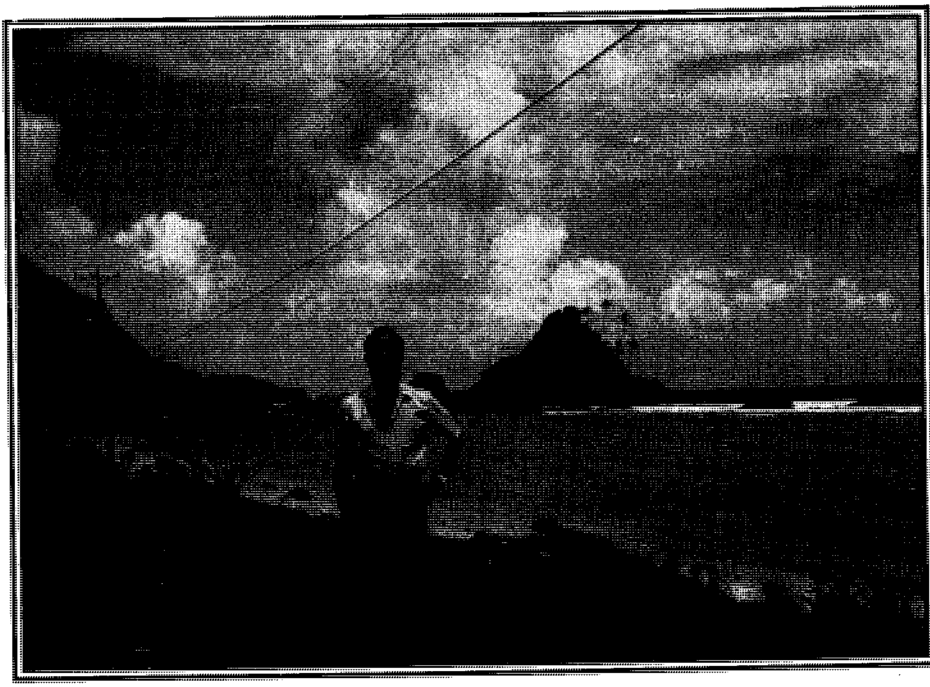
ثم استأنفت السيارة السير داخلة في الغابة تاركة ساحل البحر وسط وديان بين الجبال، وعندما رأيت بيتاً وحيداً وسط ريف أخضر ملتف الأشجار تذكرت بيتاً من الشعر في الانفراد والتوحد

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذْ عوى

وصوَّت إنسان فكدت أطير

وما أشبه غربتي هنا بغربة هذا الشاعر، وإن كنت لا أسمع عواء الذئب لأنه لا ذئب في هذه الديار كلها، ولم أفقد الناس وإن لم يكونوا في كثرة

بلاد الهند والسند فضلاً عن الصين، وإنما هي غربة الفكر والوجدان، والله المستعان.



المؤلف واقف على الشاطئ تجاه صخرة البعير

وسألت الدليل بهذه المناسبة عن الوحوش والحيوان المفترس أيوجد هنا؟ فأجاب: لا.

وعرفت السبب، وهو ضيق الأرض مما لا يدع مجالاً للوحوش أن تعيش، لأن الحيوان الذي تتغذى عليه إذا كان قليلاً لم تستطع العيش، وهو عادة لا ينمو فيكون كثيراً إلا في أرض واسعة.

ثم عاد الطريق إلى شاطئ البحر، وهو يحاذي ساحل الجزيرة الذي يضيق في بعض الأحيان ويتسع في أحيان أخرى، وقال الدليل: إننا سندور حول جبال الجزيرة، وأكثر الأمكنة ليس فيها سكان أصلاً.

ومررنا بعدة شواطئ رملية صالحة للسباحة والاستحمام، ولكن ليس

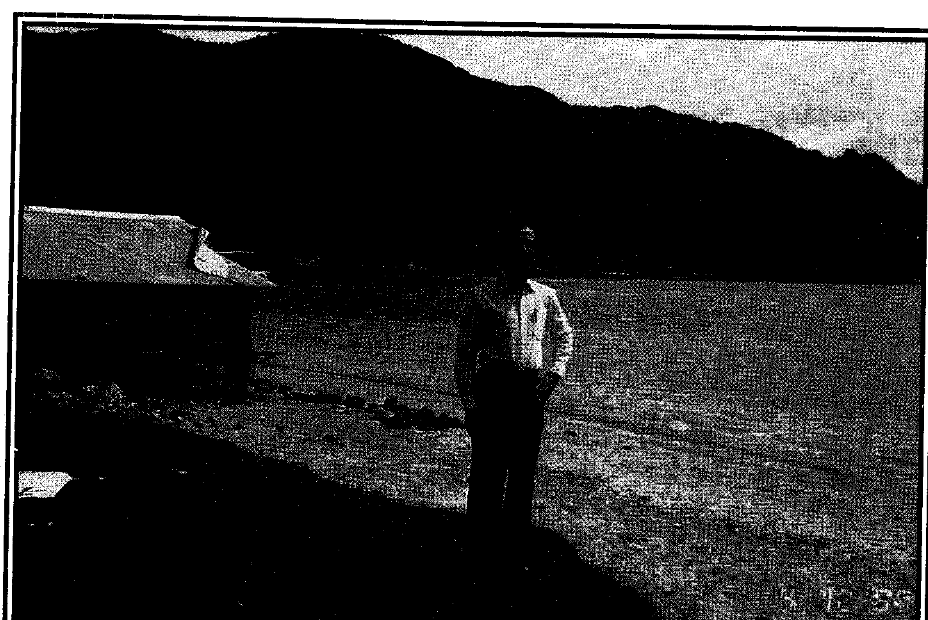
فيها أحد ربما لقلة السكان أو كثرة الشواطئ.

وأكثر الأشجار المفيدة هنا هي النارجيل في سفوح الجبال والوديان بينها والموز، ومع ذلك قال: إن النارجيل هنا أقل منه في ساموا الغربية؛ لأن الناس هنا لا يعتمدون في اقتصاد بلادهم على تصديره كما يصنع بعض أهل الجزر.

وأما الموز فإنه كثير لأنهم يطبخون الأخضر منه، ويأكلونه مطبوخاً بخلاف الأصفر الذي يؤكل فاكهة.

وعندما أمعنت السيارة الدخول في الأماكن البعيدة عن البلدة تجلت طبيعة الجزيرة التي هي جبلية ذات غابات طبيعية شاملة.

ومررنا بشاطئ جميل اسمه (ألوفاو) ثم بمرفأ آخر تنهض الجبال الخضر بعده نهوضاً مباشراً، فصعدنا الجبال مع طريق يبحث عن السهل ويتلوى فيها، وأوقف السائق سيارته في عرضها فالتقطنا صوراً للمنطقة.



المؤلف في شاطئ جميل في ساموا الأمريكية

إلى الجانب الآخر من الجزيرة:

انحدرنا من هذه الجبال الخضر إلى ما أسماه بالجانب الآخر من الجزيرة، لأنه الجهة التي تقابل جهة البلدة التي فيها فندقنا، ولكن تفصل بينهما الجبال الخضر العالية، فوصلنا إلى شاطئ رملي أبيض ناعم الرمل تظلله النارجيل، ولكن السكان فيه قليل، فسرنا في هذا الشاطئ قليلاً ثم صعدنا مرة ثانية إلى الجبال، وهبطنا بعد ذلك إلى منطقة أخرى ذات شاطئ رملي جيد.

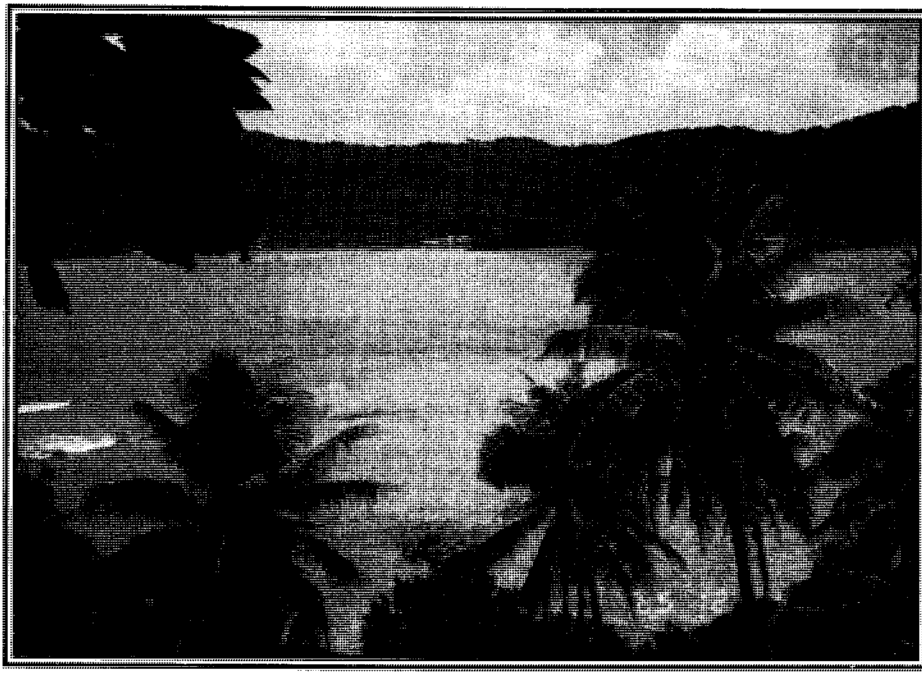
وهم يحرصون على أن يُروا السياح الشواطئ الرملية من جزيرتهم لأن الأوروبيين ومن في حكمهم يحبون التشمس والسباحة في الشواطئ الرملية هذه.

وفي هذا الشاطئ مساكن قليلة منفردة وسط غابة طبيعية غير مهذبة، وبعض المنازل كالأكواخ رأينا الأهالي فيها وقد تمددوا داخلها بكسل لأن بعضها قد جعلوا أبوابه كبيرة يفتحونها على مصراعيها من أجل الاستمتاع بالهواء البحري

وشربنا من ماء جوز الهند الأصفر الجيد أحضره أحدهم من شجره ونحن ننظر، ثم أخذ يكسر الثمرة على حديدة مثبتة في الأرض، يرفع الثمرة بين يديه ويضربها، بها والحديدة ثابتة في الأرض، وهذا خلاف ما كنا عهدناه في أماكن أخرى من العالم حيث تفلق الثمرة بسكين قوية حادة.

والغريب أن الرجل لم يأخذ شيئاً مقابل النارجيل ولا مقابل إحضاره، وقال السائق: إن الناس هنا كرماء، ويعاملون الغريب معاملة حسنة، وأظن أن القضية كلها دعاية من الشركة، لأننا شربنا ماء ثلاث ثمار لم نزد على ذلك، وقد دفعت الشركة ثمنها، ثم عدنا أدراجنا مع الطريق الذي انحدرنا فيه من الجبال فوقفنا عند كنيسة كبيرة تقام في قرية قالِ إنها كبيرة لأن

عدد سكانها ثمانمائة نسمة.



الجانب الآخر من جزيرة ساموا الأمريكية

ويذكر أنهم هنا يستعظمون الأعداد الصغيرة من الناس لقلة السكان في بلادهم، إذ يبلغ مجموع سكان جزيرة ساموا الأمريكية هذه اثنين وثلاثين ألفاً، وذكرت بهذه المناسبة القرى الهندية التي قال لي أحدهم مرة ونحن ندخل إحداها إن سكان هذه القرية يبلغون في العدد مائة ألف نسمة.

والسكان هنا من البولينيز سكان هذه الجزر الجنوبية من المحيط الهادئ غلاظ الأجسام، ضخام التقاطيع، ومع ذلك يلاحظ المرء أنهم ليسوا نشطين، وغلظ أجسامهم لم يكسبهم القوة.

ثم صعد السائق بسيارته إلى جهة أخرى من الجبال الخضر التي هي جبال واقفة مجللة بالخضرة في منظر رائع.

تطل منه على جهة من الجبال ناهضة من البحر، وأخرى على اليابسة

من أرض الجزيرة، وبين هذه الجبال وديان كثيفة الخضرة، بل لا ترى منها الأرض، وإنما هي الغابات المتشابكة، وقالت الأسترالية السائحة معلقة على هذه المناظر: إنها من أجمل ما رأيته، وإنها أجمل من هونولولو، وليس فيها من عيب إلا أنها ليست على طرق عالمية جوية فتكاد تكون منزوية.

ولاحظت أن السائق إذا مر بأحد من الناس سلم عليه مما يدل على أنه يعرفهم كلهم لقلة السكان، وكثرة تردده على هذه الأماكن.

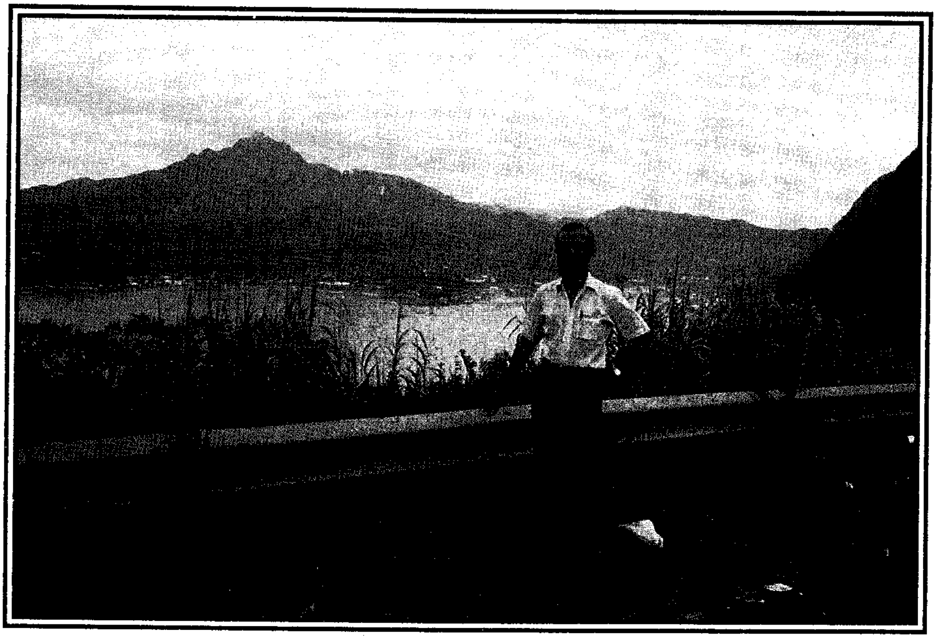
ورأينا تلميذات من تلميذات المدارس قد خرجن من المدرسة، وتغلب البدانة وغلظ الأجسام عليهن رغم صباهن، وقد أشار السائق إلى هذا في غير إعجاب، مع أنه هو نفسه ثقيل الجسم، غليظ التقاطيع.

والملاحظ أن الشعب هنا مثل الشعب في ساموا الغربية غليظ الأجسام ضخم الأبدان، وأكثر الناس منه الذين هم في منتصف العمر من الرجال والنساء لهم بطون بارزة.

وعند العودة وقف بنا السائق عند محل يبيع الجواهر والأحجار الكريمة، فرفضنا الدخول لأننا لا ننوي الشراء رغم إلحاح السائق الذي لا بد أنه قد اتفق مع أصحاب المحل التجاري على جلب الناس إليهم.

وذلك عندما عاد بنا إلى المدينة ثم خرج منها إلى جهة جبلية أخرى تقع إلى الجنوب منها، وكانت المناظر فيها كالتي قبلها غاية في الجمال والروعة، وبخاصة عندما صعد بسيارته إلى أكتاف قمة جبلية تطل من علٍ على ميناء المدينة في جو ندي رطب لاحظنا من علامات الرطوبة فيه أن عمالاً كانوا يحرقون قمامة، فكان دخانها يظل مدة وهو عالق في الفضاء لا يتبدد.

وقد غرسوا في هذا المكان المرتفع أنواعاً منوعة من الزهور التي لا يكلفهم استنباتها شيئاً غير العناية والرعاية؛ إذ تشرب من المطر الذي لا يخلف.



المؤلف على أحد الجبال في ساموا الأمريكية

ومن الأشياء الجميلة أنهم قد صنعوا محطة لعربات الحبال الكهربائية (التلفريك) التي تنقل الناس من جبل أخضر إلى جبل آخر أخضر، وتسير في هواء واد عميق هو القريب من الميناء الرئيسي في الجزيرة، فيرى راكب هذه العربات الكهربائية المعلقة الناس والسيارات تحته في بعد يشعر المرء معه بالخطر الشديد، ولكن المتعة منه تنسيه تلك المخاطر فيه.

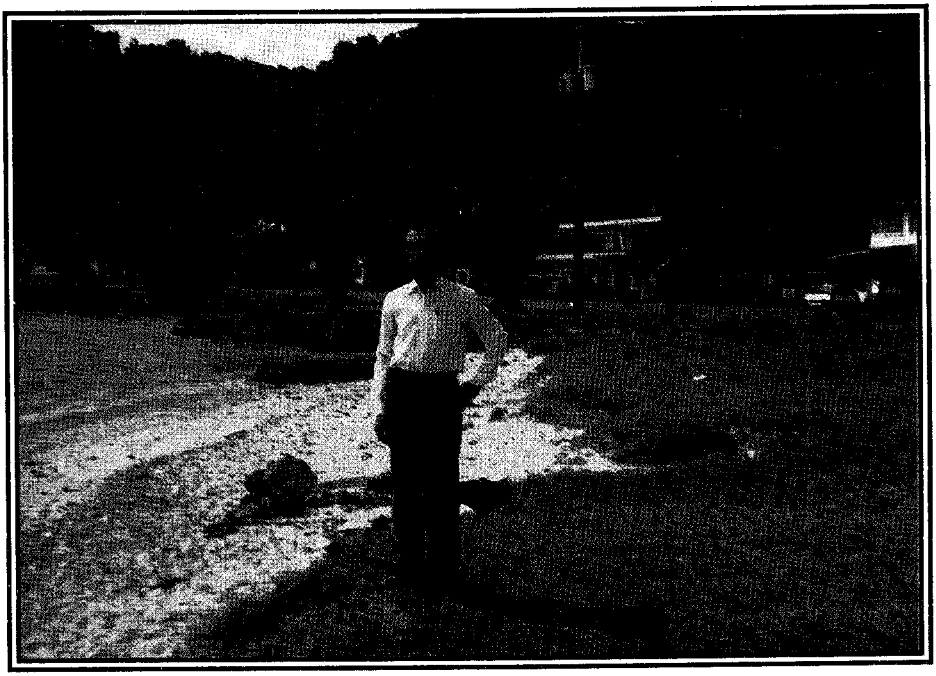
ثم كانت نهاية الجولة والعودة إلى الفندق في الثالثة عصراً.

أصيل ساموا:

ولن ننعتها بالأمريكية ونحن نتكلم على الأصيل الطبيعي الجميل، فليس لأمريكيتها دخل في جمال الأصيل أو قبحه.

ولكن الأصيل فيها كان جميلاً جمالاً طبيعياً إذ انحدرت الشمس إلى المغيب وغابت قبل أن تغيب عن المنطقة خلف جبال الجزيرة، فغابت معها

أشعتها المحرقة، واستبدل الجو بها نسمات بحرية بليلة، ومع ذلك كانت عليلة فليست بالشديدة، ولا هي بالتي تتوقف، فقضيت بعض الوقت في مقهاة بجانب البركة في فناء مكشوف تابع للفندق واقع على شاطئ البحر، وقد خلت البركة من السابحين لأن أكثر الشواطئ في الجزيرة صالح للسباحة.



على الشاطئ قرب بلدة باقو باقو

وشربت عصيراً من عصير البرتقال، وسودت أوراقي ببعض ما تقرأه الآن.

ثم تمشيت قليلاً، إلا أنني شعرت أن أكثر ما أراه الآن قد صار مألوفاً بل مكرراً على نظري لصغر البلدة، وتشابه المناظر الطبيعية الجميلة فيها.

ومن الأشياء غير السارة في هذه الجزيرة أخلاق أهلها ومعاملتهم للسائح الأجنبي، فهم أقل أدباً من أهل ساموا الغربية رغم كون الساموبين الغربيين لا يستطيعون أن يفاخروا غيرهم بحسن معاملتهم للغريب، إلا أن الساموبين الأمريكيين هنا قد دخلت عليهم المدنية الأمريكية المادية دون أن يصحبها

تعليم شامل وتربية وطنية كالموجود في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها.

فقد لاحظت أن السائقين يوقفون سيارات الأجرة يطلبون مني أن أركب، فإذا رفضت غضبوا، وقد يتفوه بعضهم بكلمات غير مناسبة.

وكان سائق سيارة السياحة الذي كان معنا ظهر هذا اليوم أيضاً كثير السخرية من الأجانب، والازدراء للسياح.

ولاحظت أنهم هنا كما في ساموا الغربية يكثرون من الكذب في الأشياء البسيطة التافهة التي كنت أتكلم بها معهم.

كما أن معاملة الموظفين في مقهاة الفندق لا تتسم بالتهذيب، فهم مثلاً يطلبون ممن يتناول الشراب أن يدفع لهم قيمته قبل أن يشربه.

وهناك شيء شبيه بما هو حاصل الآن في الولايات المتحدة الأمريكية، إذْ طلبت موظفة الاستقبال في الفندق أن أدفع أجرة الغرفة مقدمة قبل أن تعطيني مفتاحها، وهو أمر لم أر له مثيلاً في جزائر هذه المنطقة سواء منها ما زرته في رحلتي هذه، وما سبقت لي زيارته في رحلاتي السابقة التي تحدثت عنها في كتاب: ((جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ))، فلم يكن أحد منهم يطلب دفع الأجرة مقدمة على تسلم المفتاح، حتى في الجزر الفقيرة مثل نيو هبريدز التي تسمى الآن (وأنا واتو)، و(جزر سليمان) (سلمون آيلندز).

وقالت الموظفة وهي تطلب مني أن أدفع الأجرة: إن هذه العادة عندنا أن يدفع النزيل أجرة الغرفة قبل أن نسلمه مفتاحها، إلا أنها استدركت بعبارة تظن أن فيها مجاملة وهي قولها: إنك يمكنك أن تتناول ما تريده من طعام أو شراب في مطعم الفندق وتوقع بالثمن من دون أن تدفعه.

فقلت في نفسي: أنت مصدقة من دون حلف، لأن هذا أمر معتاد.

وحتى أهل فندق (تستالا) في ساموا الغربية لم يطلبوا الأجرة قبل النزول

في الفندق، وكانوا أحسن معاملة من هؤلاء الذين قد يدعون أن وقوعهم تحت إدارة الأمريكيين المتمدنين قد ألبسهم تمدناً فاقوا به الآخرين.

ليل ساموا الأمريكية:

لم أطق صبراً على اللبث في الفندق بعد غروب الشمس، وأنا أشعر أنني سأغادر هذه الجزيرة في صباح غد.

فخرجت أتمشى في شوارع المدينة التي أصبحت خالية بعد غروب الشمس، بل صارت كأنها مهجورة لولا وجود بعض السيارات المسرعة، وكنت سألت الموظفة في الفندق عن الأمن للماشي على قدميه في هذا الوقت من الليل. فأجابت بأنه لا بأس به.

وتعبت من المشي دون أن أرى في الليل جديداً عما في النهار، إلا أن السحب تكاثفت بسرعة، وأخذت السماء تجود أرض هذه الجزيرة الخضراء بوابل من المياه الغزيرة، فلم استطع السير، ورأيت بالقرب مني مكاناً فيه أضواء ظاهرة، فدخلته فوجدته مشرباً خالياً من الشاربين، وقالت موظفة فيه: إن الناس يأتون إليه بعد ذلك، لأن الوقت لا يزال مبكراً على مجيئهم، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة، وكانت موسيقاه تعزف فجلست فيه على كأس من العصير، ثم رأيت أن الجلوس فيه مضيعة للوقت، فخرجت بعد أن طلبوا لي سيارة أجرة طلب سائقها أجرة مرتفعة، فأخبرته أنني أعرف الثمن وأن ما طلبه هو مرتفع فقبل أقل منه، وهذا من فساد أخلاقهم إذ المفروض أن تكون الأجرة ثابتة لا تتغير بالماكسة، أو لشخص دون آخر.

يوم الأربعاء: ٤ ديسمبر ١٩٨٥م

مغادرة باقو باقو:

طلبت من إدارة الفندق أن يستدعوا لي سائق أجرة يوصلني إلى المطار، وذكروا أن الأجرة سبعة دولارات، فسألت سائق السيارة عند وصوله عن مقدار الأجرة فقال عشرة دولارات، فقلت: أعطيك ثمانية فوافق على ذلك، وهذا يدل على عدم الأمانة عند هؤلاء القوم إذْ لو لم أكن عرفت الأجرة قبل ذلك لأعطيته عشرة، والمقصود بالدولارات هي الأمريكية، لأنهم في أرض أمريكية كما قدمت.

وانطلق بسيارته مع طريق المطار الذي جئت معه بالأمس، وقد أعجبني أيضاً خضرته الشاملة، والجبال الخضر الواقفة التي يمر الطريق من تحتها وتكاد تكرع في مياه البحر الهادئة لولا أن الطريق يمنعها من ذلك.

وصلنا المطار فوجدت المكاتب مغلقة، ولم يحضر الموظفون المعنيون بعد.

وبعد فترة حضر الموظفون، فوزنوا الحقيبة وتسلموها، ولكنهم لم يقطعوا التذكرة وقالوا: تعود إلينا بعد قليل بعد أن تكون الطائرة قد وصلت لنقطع التذكرة ونعطيك رقم المقعد.

وكأنما كانوا غير واثقين من وصول الطائرة.

وانتهزت هذه الفرصة فتجولت في المطار الذي هو جيد، وهو وإن لم يكن كبيراً فإنه أكبر من قدر هذه الجزيرة بسكانها الذين لا يتجاوزون ثلاثين ألفاً إلا بقليل، ولكن أهميتها تنبع من وجود القاعدة الحربية الأمريكية فيها، ومن كونها أرضاً أمريكية تستمد قوتها من خارج نطاق الجزيرة.

وكنت لا أزال معجباً بمنظر الجبال الخضر التي تشبه الحيطان المجللة بالخضرة الجميلة حول حقل أخضر داكن الخضرة، وهو هذا البحر ذو المياه العميقة، فالتقطت عدة صور للمنطقة، ورآني أحد المسافرين الذين لا أعرفهم فالتقط لي صورة في المطار وأنا أنظر إلى المنطقة وهي هذه.



المؤلف في مبنى مطار باقو باقو عاصمة ساموا الأمريكية

وفي داخل أبنية المطار لم يكن يوجد حراس على البوابات التي تحرس عادة كبوابة الخروج إلى الطائرة، وباب قاعة الجمارك، والسبب في ذلك أن القوم معروفون لديهم، والبلاد صغيرة، والطائرات التي تقلع من المطار ليست كثيرة.

ورأيت بعض المواطنين الأصلاء الذين قال لي أحدهم: إنه لا يعرف الإنكليزية فعجبت من ذلك.

لأن هذه البلاد لغة الحكم فيها هي الإنكليزية.

واللافتات في المطار وبعض الأماكن في المدينة مكتوبة بالإنكليزية تحتها لغتهم التي يشترك فيها معهم أهل ساموا الغربية مكتوبة بالحروف اللاتينية.

وعندما وصلت الطائرة نادونا إلى مكتب الترحيل حيث ختم الجوازات موظف انتقلنا بعده إلى مكتب آخر عليه امرأة واحدة قطعت التذاكر وفتشت حقائب الركاب اليدوية من أجل الأمن في الطائرة.

وقد عجبت المرأة كثيراً من جوازي، وذكرت أنه أول جواز سعودي تراه، كما صارت تتأمل صورتي باللباس العربي على الجواز، مما يدل على عدم مجيء سعوديين إليهم.

وعند الخروج إلى الطائرة حصل بعض الارتباك، إذْ صادف خروجنا إلى الطائرة خروج طائرة ركاب مروحية صغيرة كانت مسافرة إلى إحدى جزر المحيط الهادئ، فاختلط الركاب عند الباب، وصار الموظف والموظفة يفصلون بينهم، ويشيرون إلى الطائرة التي تحمل كل راكب.

في جواء المحيط الهادئ:

أقلعت الطائرة في الساعة الثانية عشرة والثلث متأخرة نحو نصف ساعة عن الموعد المحدد، وهي من طراز بوينج ٧٣٧ ، وفيها عدد أكبر مما تحتاجه من المضيفات، وهن شديدات السمرة، وبعضهن ذوات ملامح هندية، لأن بعضهن من ذوات الأصول الهندية اللاتي زادهن جو المحيط الهادئ الرطب سمرة على سمرتهن كادت تصل بهن إلى حد السواد، وليس في المضيفات من الجنس البولينيزي السائد هنا أحد.

والجامع على أشكالهن عدم الوجاهة، وعلى وجوههن عدم النضارة.

وكان عدد الركاب قليلاً في الطائرة، فقد بقيت نصف مقاعدها

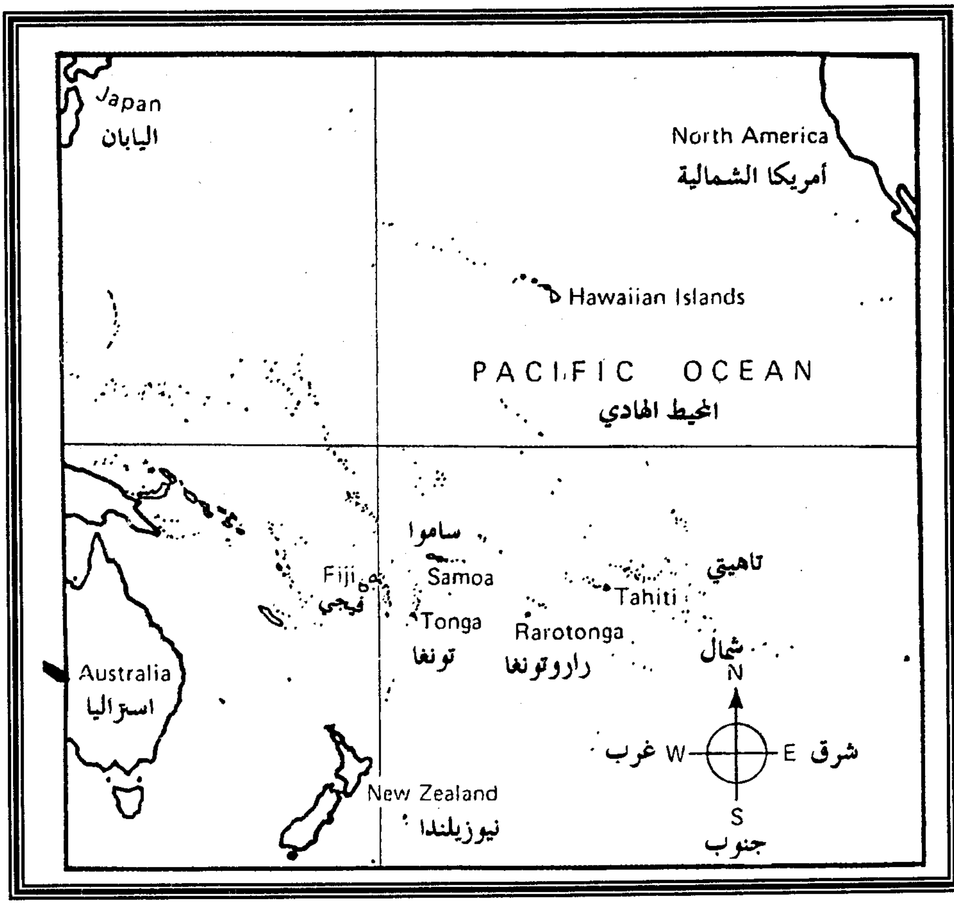
خالية.

وقد بادرت المضيفات بتقديم الشراب للركاب، وهو أنواع مختلفة، حتى الجعة كانوا يقدمونها بالمجان، مما ذكرني بطائرات البرازيل مع أن جميع مقاعد الطائرة سياحية، وليست فيها درجة أولى.

وجاؤوا بالغداء وهو لحم دجاج معه قليل من الخبز.

ولم يكونوا أعلنوا عن المسافة ما بين (باقو باقو) عاصمة ساموا الأمريكية، و (رارو تونغا) عاصمة جزر كوك، فسألت المضيفة عن ذلك، فذكرت أنها لا تعرف، ثم سألت الطيار وعادت لتقول إنها ساعتان.

جزائد كوك



المنطقة التي تقع فيها جزر كوك

جزر كوك:

مجموعة من الجزر الواقعة في جنوب المحيط الهادئ، تبلغ مساحتها ٢٢٧ كيلو متراً مربعاً وعدد سكانها ٢٨٥٠٠ نسمة.

وتضم ست جزر مرجانية، وجزيرتين بركانيتين إحداهما (رارو تونغا) العاصمة.

أضيفت إلى (كوك) الذي هو البحار الإنكليزي المشهور الكابتن جميس كوك الشهير باكتشافاته البحرية التي منها قارة أستراليا حيث طاف بساحلها الشرقي.

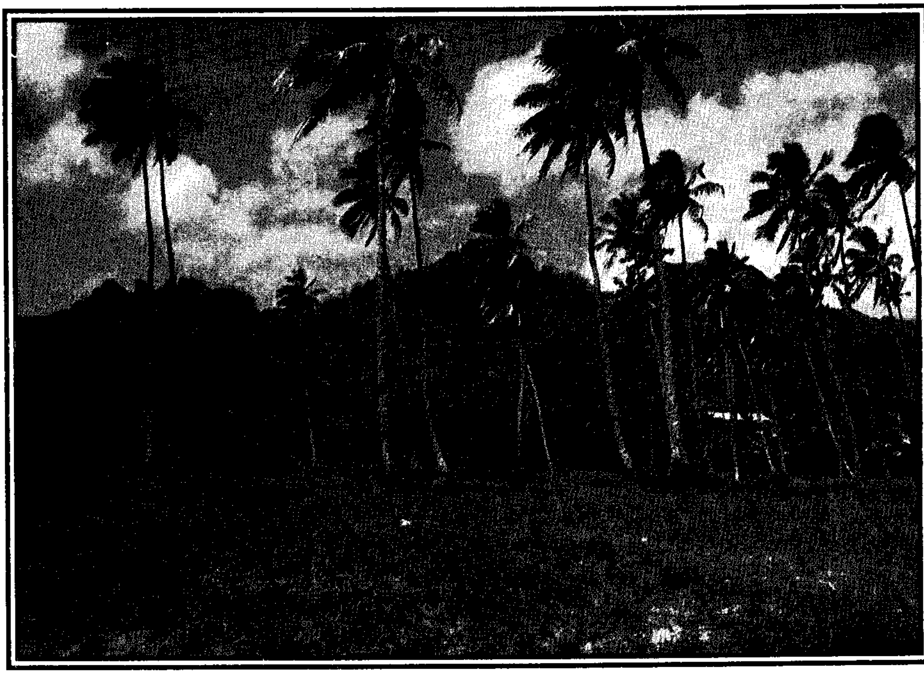
وسوف يأتي في اليوميات بيان البقعة التي نزل فيها عندما وصل إلى هذه الجزر، وكان ذلك في عام ١٧٧٣م، وقد مات الكابتن كوك في عام ١٧٧٩م في جزر هاواي حيث قتله الأهالي هناك.

أعلنت جزر كوك محمية بريطانية في عام ١٨٨٨م، ثم ألحقت ببريطانيا عام ١٩٠٠م.

وفي عام ١٩٠١م وضعت تحت إدارة حكومة نيوزلندا التي هي حكومة إنكليزية إلى أن اتخذت وضعها الحالي، وهو الاستقلال الداخلي بالتعاون مع نيوزلندا التي تتولى الشؤون الخارجية والدفاع، والشئون المتعلقة بالعملة.

والعاصمة (رارو تونغا) تقع في جزيرة مساحتها ٦٥ كيلو متراً مربعاً.

ويعتمد اقتصاد جزر كوك على الإنتاج الزراعي للاستهلاك المحلي وللتصدير، وعلى الإعانات الاقتصادية التي تأتي من نيوزلندا.



أشجار النارجيل في جزر كوك

كما أن السياحة بدأت تروج فيها بتوسع في السنين الأخيرة.

وهذه فقرات بيان سياسي للحزب الديمقراطي فيها:

قال البيان:

يعتبر جمال جزرنا كنزاً لنا، وشعبنا كنز لدولتنا، ويجب المحافظة على الكنزين وتنميتهما.

وعندما دخلت السياحة إلى دولتنا وجب أن تكون لصالحنا لا ضدنا، فالسياحة صديقة طيبة، ولكنها في نفس الوقت عدوة لدودة، ولذلك يجب التركيز على التخطيط للسياحة لكي لا تظهر مساوئ السياحة التي ظهرت في بلدان أخرى من بلادنا، فحكومتنا سوف تسعى لإيجاد سياسة سياحية شاملة للوصول إلى تنمية متوازية يمكن ضبطها.

ولكـن يجـب علـى الإنسـان دائمـاً أن ينتبـه إلى مثـل هـذه التصريحـات السياسية ، ففي الكثير من البلدان يعتبر الالتزام بمثل هـذه التصريحات حبراً على ورق خاصة البلدان الصغيرة النامية التي يمثل فيها الدولار الـذي يـأتي عـن طريق السياحة إغراء شديداً للاقتصاد.

نمو السياحة :

سجل افتتـاح مطـار راروتونجـا الـدولي في أواخـر عـام ١٩٧٣م بدايـة عـهد السياحة ، فقبل ذلك التاريخ كان على من يريد القدوم إلى راروتونقا أن يتبع إحدى طرق ثلاث:

١- يمكن بأن يأخذ الرحلة الجوية الأسبوعية من أوكلاند Aucklond إلى نادي Nadi ، ثم آبيا Apia ثم راروتونقا التي تستغرق ١٧ سـاعة طيران.

٢- أو أن يذهب عن طريق البحر؛ حيث تأتي السفن إلى راروتونقا مرة في الشهر.

٣- أن ينتظر حتى تصل إحدى سفن السياح التي تأتي في المناسبات الخاصة جداً.

أمـا اليـوم فالطـائرات مـن طـراز دي سـي ٨ ، و دي سـي ١٠ القـادمـة مـن أوكلاند ، ونـادي ، ولـوس أنجلوس ، وتـاهيتي ، وآبيـا عـن طريـق مـانو إلى رارو تونقا حيث يصل إليها سبع رحلات دولية في الأسبوع (١٩٧٩)م

ومع بداية الطيران الدولي ازداد عدد زوار الجزر من السياح، وازدادت الخدمات المقدمة لهم.

مع أن ربع إلى ثلث القادمين من نيوزلندة هم من أهالي جزر كوك الذين يعيشـون هنـاك ، إذْ يعيش الآن حوالي نصف عدد مواطني جزر كوك في

نيوزلندا، وتركيز السياحة في جزر كوك في راروتونجا حيث يوجد المطار الدولي والتسهيلات والخدمات السياحية والقوى العاملة والأراضي، وقد تركت الحكومة خيار التطوير السياحي في الجزر الأخرى لمواطني تلك الجزر، فأمر الخدمات مثل إنشاء الفنادق وغيرها يعود إلى الحكومة المحلية لإبداء الرأي قبل إعطاء القرار النهائي من قبل مصلحة سياحة جزر كوك.

وتلعب مصلحة السياحة دوراً مهماً في تحقيق التوازن التنموي، وتظهر سلطتها في إعطاء الرخص.

من باقو باقو إلى رارو تونغا:

وسوف تلاحظ غرابة الاسمين كما لاحظت أنا ذلك، والسبب أنهما من لغات الوطنيين الأصيلة التي هي لغات بدائية، ويخيل إليك إذا سمعت بعض ألفاظها أنك تسمع لغات إفريقية من لغات الأفارقة تحت خط الاستواء.

وقد يكون الجامع بين تلك اللغات هو كون السكان هناك كلهم يعيشون تحت خط الاستواء أو غير بعيدين منه، رغم بعد المسافة الشاسع بينهم الذي هو نهاية البعد، إذ تكاد الشمس إذا طلعت على هؤلاء أن تغرب عن أولئك في إفريقية.

ولكن الغريب لا يواجه مشكلة في التفاهم مع الناس، لأن اللغة الإنكليزية شائعة ورسمية في تلك المنطقة كلها التي مررت بها حتى الآن، وهي مملكة تونغا، وساموا الغربية، وساموا الأمريكية، وجزر كوك التي نحن مسافرون إليها.

بل قد ألفت التحدث باللغة الإنكليزية وحدها، حتى صرت أحدث نفسي فيما بيني وبين نفسي بالإنكليزية، وذلك لبعد عهدي بالتحدث بالعربية.

ومن الأشياء غير المألوفة في هذه الطائرة غير الكبيرة وذات الركاب غير الكثر، أن إحدى المضيفات أحضرت قائمة بركاب الطائرة معها، وأخذت تسأل كل واحد منهم عن اسمه، ثم تؤشر على كل اسم تتعرف على صاحبه، ولا تذهب عن الراكب حتى تشاهد تذكرة سفره، وتقارن بين اسمه فيها وبين اسمه المذكور في قائمة الركاب.

أما الطيران على هذا الجزء الجنوبي الشرقي من المحيط الهادئ، فإنه لا جديد فيه، لأن الطائرة كانت مرتفعة، وما ثم غير الماء إلا السماء وبعض السحب المنخفضة التي تبدو في بعض الأحيان وهي ترصع صفحة المحيط

العظيم.

إلا أن الطائرة واجهت سحاباً كثيفاً، وصارت تهتز، فأمر الطيار بربط الأحزمة لفترة قصيرة.

ثم وزعوا على الركاب استمارات الدخول إلى جزر كوك، ومن الطريف أنهم ذكروا في هذا الاستمارات أنه ممنوع على القادم إلى جزر كوك أن يعمل بأي عمل إذا كانت إقامته هذه في الجزر ستستمر أكثر من ثلاثين يوماً.

وبعد ساعة ونصف من الطيران بدأت الطائرة بالتدني فوق سحاب أعاليه بيض يكاد بياضها يخطف الأبصار لأن الشمس فوقه كانت مشرقة، بل ساطعة لا يشوبها شيء، لأن الطائرة فوق السحاب كله، ثم دخلت في لجة السحاب فانقلب بياضه إلى رماد.

وتذكرت والطائرة تتدنى للنزول في هذه الجزر المجهولة في بلادنا، بل إن منطقتها مجهولة حتى في الذكر في البلدان العربية، والدي - رحمه الله - وحبه للسفر، وكيف أنه كان يستمتع ويمتعنا إذا خرج بنا عن بلدتنا (بريدة) لبضعة كيلومترات في البر في وقت الربيع، وأنه كان يقص علينا ما سمعه من أخبار البلدان البعيدة بغاية التشويق والعجب، مع أن تلك الأخبار كانت يشوبها التحريف، إذْ كان الخيال يكمل في بعض الأحيان ما تسهو عنه ذاكرة الرجال.

وتمنيت - لو ينفع التمني - أنه كان حياً حتى أقص عليه قصص أسفاري في بلاد الله البعيدة، التي لا يعرف الناس في بلادنا - حتى في الوقت الحاضر - أسماءها، فضلاً عن أن يعرفوا أنباءها، ولأخبرته أين أنا الآن، وذكرت له المسافة التي تفصل بين بلادنا وهذه الجزر، ولكان ذلك كافياً في إثارة عجبه، إن لم يكن موجباً لاضطرابه لخوفه على ابنه من مخاطر

العودة من هذه الرحلة الطويلة.

وتذكرت أنني العربي الوحيد في هذه الطائرة، وربما كنت العربي الوحيد الذي يسافر في هذه الأيام بين هذه الجزر الهادئة - نسبة إلى المحيط الهادئ - إلا أن تفكيري ذلك زايلني بسرعة عندما تذكرت قصص المكتشفين الأوائل الذين اكتشفوا هذه الجزر بالذات، ومنهم الكابتن كوك، وكان اكتشافه إياها على سفن شراعية، ووسط مخاطر عظيمة وأنواء مختلفة منها العواصف التي تشكل الخطر على الملاحة، ثم الأهم من ذلك وهو الإقدام على المجهول الذي قد يكون فيه ما لا تتخيله العقول.

وصغرت نفسي في عيني، وتبخرت من ذهني الأهمية التي كانت في نفسي لزيارة هذه الجزر.

ولم يوقظني من أحلامي هذه التي احتقرت لها أيامي هنا إلا صوت المضيفة تقول ونحن فوق صفحة المحيط الزرقاء الداكنة قولتها المعتادة: إننا نقترب الآن من مطار (رارو تونغا)، وعلى الركاب الامتناع عن التدخين.

فوق رارو تونغا:

لمحنا جزيرة (رارو تونغا) على البعد خضراء كثيفة الخضرة ذات شاطئ رملي جميل المنظر، وتلال جبلية يتفرق السحاب عن هاماتها.

وأجمل ما فيها عند رؤيتها أنها تسبح في ألوان متعددة أهمها خضرة أرضها، وزرقة المحيط الذي يحيط بها، وبين هذين شاطئ رملي أبيض، ثم مياه ضحلة لازوردية، ثم مياه زرق أكثر عمقاً، ولكنها أقل عمقاً من مياه المحيط الداكنة.

وعند الاقتراب منها تبين أن أكثر أشجارها المثمرة من النارجيل الذي بدا ملتفاً في الوديان وسفوح الجبال، وقليلاً أو لا يكاد يوجد في قمم التلال.

في مطار رارو تونغا:

هبطت الطائرة هبوطاً سيئاً في المطار، ربما كان ذلك لكون قائدها لم يقدر المسافة حق قدرها، أو لكون المطار غير طويل المدرج.

وعند وقوفها دخل إليها شخص وأغلق بابها خلفه، وأخذ يرشها بمبيد الحشرات مثلما فعلوا في جميع المطارات التي نزلت فيها في هذه السفرة ابتداء من مطار ملبورن في أستراليا ما عدا ساموا الأمريكية.

وبعد ذلك دخلنا إلى قاعة الوصول، وهي صغيرة جداً على مدخلها ضابط الجوازات الذي سارع إلى وضع خاتم الدخول على جوازي، مع أنني لا أحمل سمة دخول إلى(جزر كوك)، وكنت متخوفاً من ذلك لأنني لم أجد ممثلية لهذه البلاد يمكن أن أحصل منها على سمة الدخول.

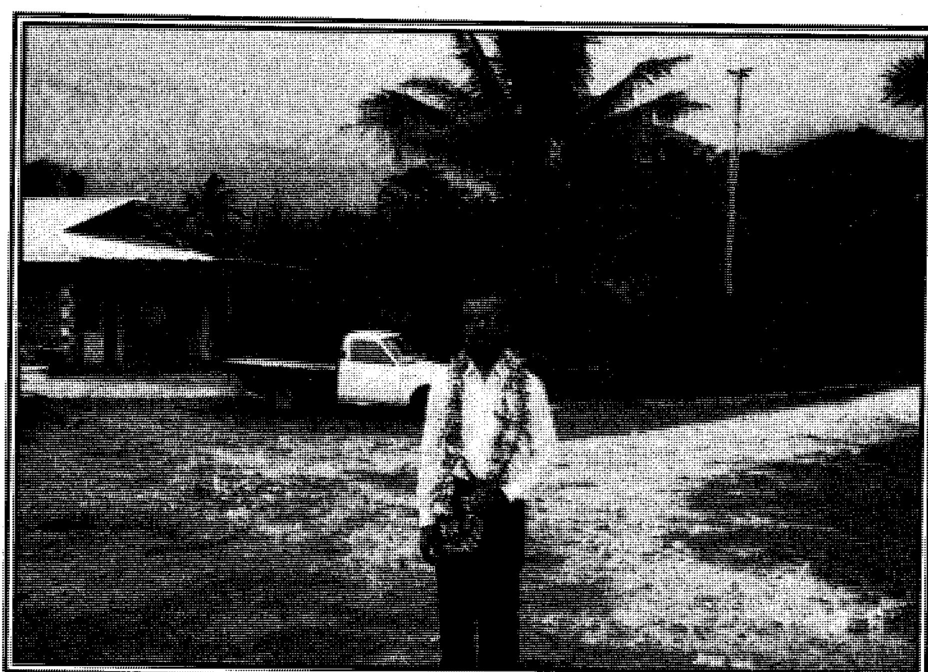
وبالقرب من قاعة الوصول ساحة مكشوفة قد أقاموا فيها ما يشبه الأكواخ من القش إلا أنها ليست لها حيطان، وإنما تشبه المظلات، وقد استوحوها من طراز البيوت القديمة لسكان هذه الجزر، وهي لا تختلف كثيراً عن الأكواخ الإفريقية، إلا أنهم هنا راعوا فيها أن تكون جميلة المنظر، فجعلوا زواياها مستقيمة ابتغاء لجمال المنظر.

وكان عجب ضابط الجوازات من جوازي كثيراً لأنه أخذ يقلب صفحاته ويعيد النظر فيها ويبديه، وقد عجب خاصة من كون صفحاته تبدأ من اليمين إلى اليسار، وأخذه وقام من مكانه يريه موظفاً في مكان آخر من المكان أظنه رئيساً له، إلا أنه أعاده إليّ وهو يبتسم، ثم انتقلت من عنده إلى ركن آخر من هذه القاعة فيها الجمرك، وفيه ضابطة وهي فتاة من أهل البلاد، فلما لمحت جوازي وهو في يدي مكتوباً على ظهره أنه جواز (دبلوماسي)، قالت وهي تشير إلى طريق الخروج: دبيلو ماتك!

وخرجت من قاعة القدوم بسرعة إلى مكان صغير جداً، وكنت أتوقع

أن أجد في المطار مكتباً للحجز في الفنادق لأنني لم أعرف اسم أي فندق هنا، فلم أجد فيه شيئاً، ورأيته يفضي إلى رصيف الشارع، ولا أدري أين أذهب، فعدت إلى قاعة الوصول التي جئت منها رغم كونها في العادة لا يدخل إليها إلا بإذن، ولم يكن فيها إلا ضابط الجوازات فقلت له: إنني أبحث عن مكتب للفنادق فقال: انتظر السيدة هنا وستأتي.

وتأملت أبنية المطار التي هي كلها من الخشب، ولكنه مبنى بطريقة جيدة، وبجانبها أبنية إسمنتية لم تنته بعد.



المؤلف عليه طوق الزهور قرب مطار رارو تونغا

ولم أر أحداً، وإنما حضر إلى المطار مستقبلون لمن قدموا في طائرتنا، وكل من استقبل مسافراً قلده طوقاً من الزهور في عنقه إلا أنا وأحد الأوروبيين، أو من هم في مظهر أوروبي، وقد يكون من أهل نيوزلندا أو أستراليا، فسارعت امرأة قادمة معنا كانت تجلس في مقعد غير بعيد مني في

الطائرة ومعها أطفالها فاتجهت نحوي، وخلعت طوقاً من أطواق ثلاثة من أطواق الزهور كان مستقبلوها قد قلدوها إياها، وكانت تنظر إليَّ في الطائرة ولم ألق لها بالاً، وقالت وهي تقلدني ذلك الطوق: إنني من أهل هذه الجزيرة أعمل في جزيرة (نارو)، وجئت مع أولادي لقضاء الإجازة هنا.

فشكرتها على طوق الزهور الذي كان له معنى عندي لأنني كنت الوحيد مع ذلك الأوروبي الذي لم يستقبله أحد يضع حول رقبته طوقاً من الزهور.

وأخيراً جاءت السيدة التي ذكرها ضابط الجوازات ومعها أطواق من الزهور سارعت فوضعت في عنقي طوقاً منها، فصار عليَّ اثنان، وأمرت عاملات ثلاثاً كن معها في سيارة تتسع لعشرة ركاب أن يحملن أمتعتي.

وهي امرأة مسنة اسمها (مارتا) في حدود الستين من عمرها، كما أركبت ذلك الأوروبي معنا في السيارة.

في راروتونغا :

رارو تونغا هو اسم العاصمة لأن الجزيرة هي عاصمة (جزر كوك).

سارت السيارة مع طريق ريفي أخضر يشبه المناطق الاستوائية فيه منازل قليلة من الخشب ذي المظهر الجيد، مسنمة السقوف.

وصلنا إلى مكان فيه غرف من طابق واحد كما هو طابع المنازل والأبنية التي مررنا بها.

وقلت لصاحبة السيارة: إنني أريد غرفة لشخص واحد (سنقل روم) فقالت: ليس عندنا غرف من هذا النوع، وإنما كل الغرف من طراز واحد وهي مؤلفة من غرفة وقاعة استقبال ومطبخ وحمام، ولكن سعرها هو سعر الغرفة الواحدة.

وقالت: انظر إلى اللافتة التي على المدخل، ولم أكن ألقيت لها بالاً لكوني داخل السيارة، وإذا بها مكتوب عليها: (كي كي موتيل) وقالت: معظم الأنزال في هذه الجزر هي موتيلات، وهي التي يرغب فها الناس لأنهم يأتون مع أسرهم، والبلدة صغيرة ومتفرقة، ولا توجد مطاعم متوفرة في أكثر الأماكن، لذا يفضلون أن يطبخوا بأنفسهم.

ونزلت في هذه الغرفة التي هي أشبه بالشقة الكاملة، فرأيتهم جهزوا مطبخها بكل ما يحتاج إليه النزيل من أوان وسكاكين وصحون وقدور، وحتى القهوة والشاي والحليب أحضروا مقادير منها أسوة بسائر الفنادق في هذه المنطقة، وفيها موقد غاز متعدد الأغراض.

وقالت لي المديرة (مارتا) وهي تريني الغرفة: إنك تستطيع أن تطبخ طعامك لنفسك، فقلت لها: إنني لم أتعود على ذلك، كما أنني أضنّ بوقتي على الطبخ.

فقالت: يمكنني أن آخذك للمطعم في السوق بسيارتي، فقلت لها: إنني تعب الآن، وأفضل أن أؤجل الخروج:

ثم وصفت لي مكان السوق، وقالت: إنه يبعد ما بين ثلاثة كيلومترات إلى أربعة، ويمكنك أن تطلب سيارة أجرة بالهاتف.

وكانت المشكلة أنني لم أجد في المطار مصرفاً أغير فيه النقود، فقالت لي مارتا: إن (البنك) مغلق الآن، وسوف أقرضك نقوداً من عندي تكفيك حتى يفتح (البنك)، ثم أعطتني مائة وخمسين دولاراً نيوزلندياً، وهي العملة الرسمية في هذه البلاد، لأن جزر كوك داخلة في اتحاد مع نيوزلندا، ورفضت (مارتا) أن تأخذ دولارات أمريكية عوضاً عن نقودها ولا حتى مقابلها صرفاً.

وهذه ثقة عجيبة، وبخاصة عندما قارنته في ذهني بما عمله الفندق الذي

سكنت فيه في (ساموا الأمريكية) الذي طلب مني الأجرة قبل أن يعطيني مفتاح الفندق، وهذه المرأة لم تطلب الأجرة.

مع العلم بأنها لم تعرف عني شيئاً إلا ما ذكرته من أنني عربي، وقد تعجبت من وجود عربي في هذه الجزر، وقالت: إنها أول مرة تستضيف فيها نزيلاً عربياً عندها، وبدا من حالها أنها اكتفت بكلمة (عربي) وحدها لتعرفني بها، وكنت كتبت اسمي في سجلات الفندق: محمد العبودي، ورقم الجواز دون ذكر الجنسية، فكانت تدعوني دائماً بمستر محمد.

واسترحت قليلاً في هذه (الشقة) التي هي كلها بتسعة وعشرين دولاراً نيوزلندياً أي حوالي ١٨ دولاراً أمريكياً.

ولو كان هذا السعر لغرفة النوم التي بداخلها، وفيها سريران مزدوجان وسرير لطفل لكان سعراً متدنياً.

ثم خرجت أتمشى في هذا (الموتيل) الذي اختاروا له موقعاً جميلاً من شاطئ البحر المحيط مفتوحاً عليه وبابه من جهة الشارع الذي تبين أنه الشارع الرئيسي العام في البلدة، وقد بنوا غرفه على هيئة صفين بينهما فناء واسع مكشوف تتوسطه بركة سباحة مليئة بالماء العذب رغم وقوع النزل (الموتيل) عل البحر، وصلاح شاطئه للسباحة.

ورأيت بعض النزلاء من ذوي الأصل الأوروبي يدخلون إلى النزل بسياراتهم ومعهم أسرهم، وأهم شيء فيه مظاهر الأمان، فلا تحذير من السراق رغم كون النزل مفتوحاً على البحر يستطيع أي شخص أن يدخل إلى فنائه من جهة البحر، كما أن بابه على الشارع العام من جهة المدينة مفتوح أيضاً، ومع ذلك لا توجد تحذيرات من السرقة ولا نصائح عن السراق.

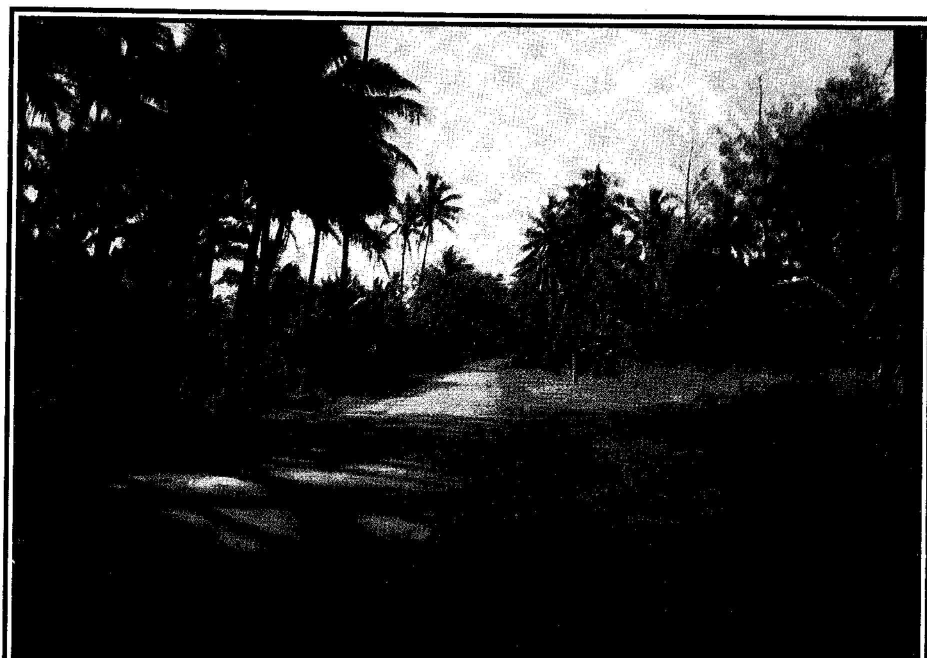
وصنعت (فنجاناً) من الشاي، وجلست على مائدة صغيرة في رواق الغرفة الذي هو جزء من الرواق العام للنزل، ولكن كل جزء مقابل لغرفة من الغرف

مفصول بفاصل، فأقبل المطر غزيراً يضرب بسياطه سقف الرواق الذي هو من الصفيح، فيزيد الشعور بكثرته، وكانت بي رغبة شديدة للخروج إلا أن المطر منعني من ذلك.

وجاءت الخادمة المناوبة قائلة: إن العمل في النزل ينتهي في الرابعة، ولا يبقى إلا واحدة إلى الساعة الثامنة، ثم تترك النزل في الثامنة، ويخلو النزل من أي موظف إداري لذلك على النزلاء أن يتدبروا أمرهم بأنفسهم.

قالت الخادمة وهي فتاة شابة مثل كل العاملات في هذا النزل الذي لم أر فيه رجلاً واحداً إلا سائق السيارة قالت: إنها من جزيرة أخرى من (جزر كوك) غير العاصمة (رارو تونغا)، وإن سكان تلك الجزيرة عددهم ستمائة نسمة فقط، وإنها لم تشاهد عربياً في حياتها قبلي.

مشكلة العشاء:



الطريق العام في رارو تونغا

كنت بحاجة إلى العشاء لأنني لم أتغد في الطائرة، وقالت الخادمة: إن بقربنا نزلاً (موتيلاً) فيه مطعم، ووصفته لي، فخرجت تحت المطر ومعي مظلتي، وجلست في مقهاته التي هي مطعمه، وسألت الخدم عن وجود العشاء فيه، فبعضهم قال نعم، وانتظرت، وانتظرت حتى جاءت خادمة وقالت: لا يوجد عشاء الآن، وإنما هو بعد الثامنة، فخرجت وعدت في الثامنة، فوجدت غيرها فقالت لي: إنه لا يوجد عشاء ألبتة، ونحن لا نطبخ العشاء، لأن معظم النزلاء يطبخون لأنفسهم، والغريب في الأمر أن أقوالهم متناقضة من دون هدف لهم في ذلك، فهم في هذا الأمر مثل أهل ساموا يستسهلون الكذب، بل إنه هو القاعدة عندهم، وبخاصة أهل (ساموا الأمريكية).

وقد رجوت موظفاً في الاستقبال في النزل وهو يبيع المشروبات أن يطلب لي سيارة أجرة توصلني إلى مطعم أتعشى فيه.

وقد حملتني سيارة الأجرة إلى مطعم صيني في السوق كما يدعونه، وهو جزء من الشارع الرئيسي بل الشارع الوحيد الممتد في هذه الجزيرة يماشي البحر، لولا أنه يكون بينه وبين البحر صف واحد من الأبنية.

ولم أرتح للمطعم الصيني لما أعرفه عن الصينيين الكفار من كونهم أكثر الناس أكلاً للخنزير واستعمالاً له في طعامهم، فقلت لامرأة استقبلتني: إنني مسلم، ولا آكل شيئاً مسه لحم الخنزير أو دهنه، وأريد سمكاً لا يقربه ذلك حتى ولا السكين فضحكت وقالت: نستطيع أن نصنع لك سمكاً مشوياً، ومعه سلطة خضراء وخبز.

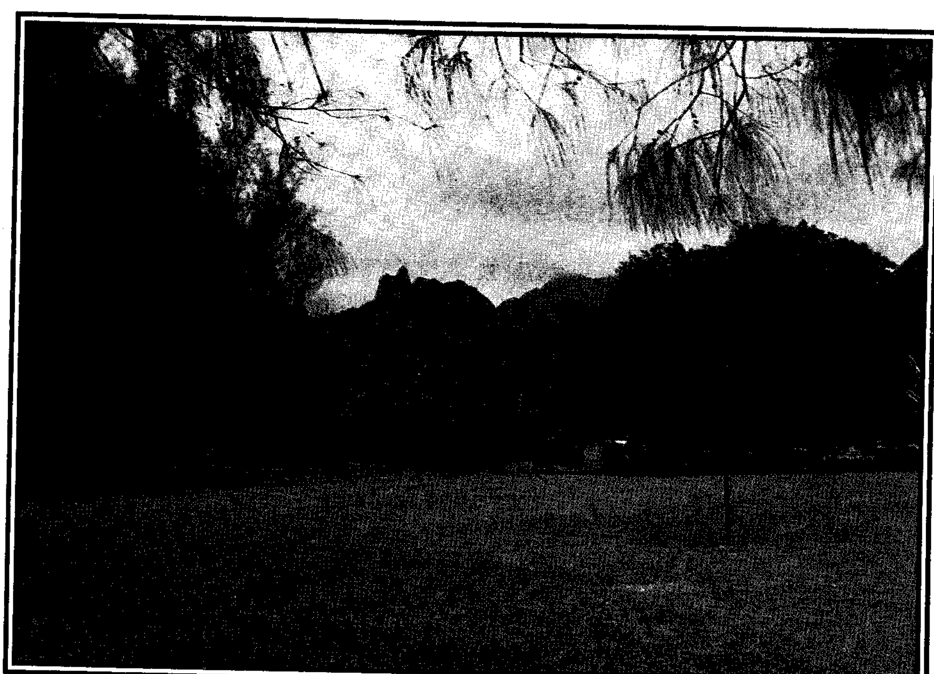
ونقدت الثمن غالياً مع أن الوجبة قليلة، والسمك عندهم رخيص إذ طلبت مني أربعة عشر دولاراً نيوزلندياً.

وكانت في الوقت بقية رأيت أن أقضيها في مكان عام، فمررت بمقصف كتب عليه اسمه (بانانا كوك)، وبانانا هو الموز، وكوك ربما كان

الكابتن كوك الذي سميت هذه الجزر باسمه (جزر كوك)، فوجدته مشرباً ومرقصاً ليس فيه خدمة، بل من أراد الشراب ذهب إلى موظف فيه ودفع الثمن وأخذ ما أراد بيده، وأما الرقص فإنني توقعت أن أجد فيه رقصاً وطنياً تقليدياً يعبر عن بعض الفنون الشعبية عندهم، فلم أر فيه إلا قلة من الحضور يرقصون الرقص المعتاد، فلم يطب لي المقام فيه، وطلبت منهم أن يطلبوا لي بالهاتف سيارة أجرة توصلني إلى نزلي أو منزلي.

وعدت إلى النزل في الحادية عشرة والمطر يهطل، والهواء بارد من أثر المطر والرطوبة، ولا أحد يسير في الشارع الرئيسي الوحيد الذي سلكته سيارة الأجرة، بل لا تكاد تسمع حركة لأي شيء لأن المنازل متباعدة، والسكان قليل، وهم ينامون مبكرين فيما عرفته من أمرهم.

يوم الخميس ١٩٨٥/١٢/٥م



ضاحية في رارو تونغا

سارعت بالذهاب إلى مصرف حكومي، فصرفت مائتي دولار أمريكي بثلثمائة وثمانية وأربعين دولاراً نيوزلندياً، وهذا أمر سار، وكانت الدولارات التي معي على هيئة صكات (شيكات سياحية)، فلم يطلب الموظف في المصرف أن يرى جوازي، وإنما اكتفى بجعلي أكتب اسمي، وهذا هو الذي حصل لي في النزل كما قدمت.

الباب المصكوك، في جزائر كوك:

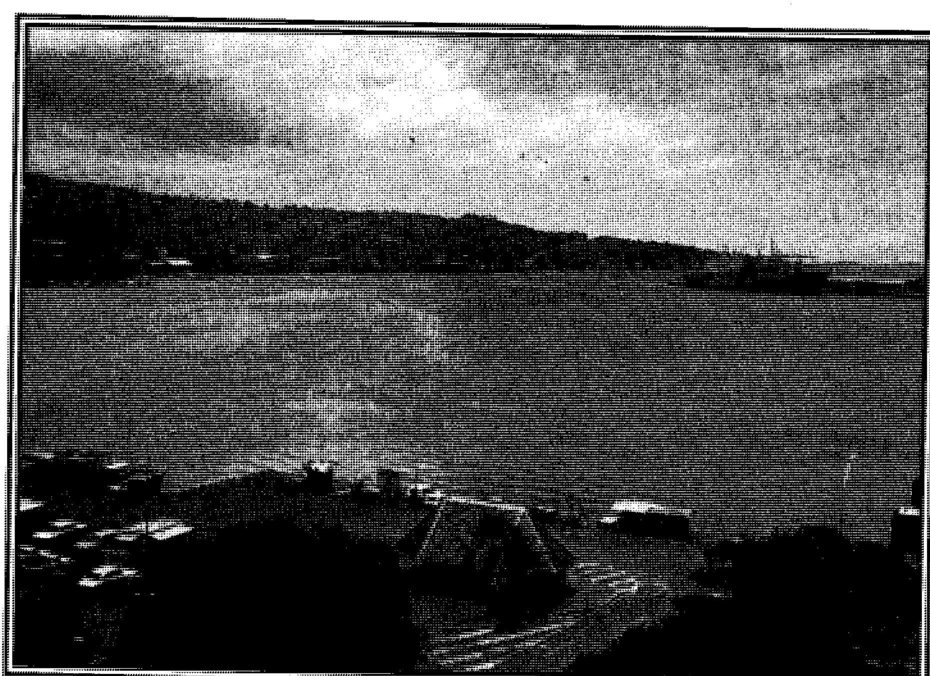
لا أدري لم اخترت هذه الكلمة المصكوك للتعبير عن الباب المغلق مع أنني لست ممن يحبون السجع من أجل السجع، ولكن الواقع الذي شعرت به هو الذي أملى عليَّ ذلك، فقد ذهبت بسيارة الفندق إلى شركة الطيران الرئيسية هنا، وهي (بولينيزيا) أسأل عن السفر إلى جزر (تاهيتي) التي قررت أن أزورها ما دمت قد وصلت إلى منطقتها، وكانت شركة للسياحة في ساموا الأمريكية أخبرتني أن هناك رحلة من (رارو تونغا) إلى تاهيتي في يوم الجمعة، غير أن الشركة هنا أفهمتني اليوم أن تلك الرحلة قد ألغيت، وأن أول رحلة إلى تاهيتي تقوم بعد منتصف ليلة السبت قبل الفجر من صباح الأحد، وحاولت أن آخذ طريقاً إلى تاهيتي أسرع من هذه كالسفر إلى مدينة أو كلاند في نيوزلندا، وهي مركز مهم للطيران في المنطقة، ومن هناك إلى تاهيتي فلم أجد قبل يوم الأحد، فحزنت لذلك لأنه سوف يفقدني يومين من الجولة في هذه الجزر، لأن (رارو تونغا) هذه صغيرة يكفي لرؤيتها يوم واحد، ولكن ما العمل؟.

وقالت لي نفسي: لتكن هذه إجازة مناسبة لم تسع إليها، ولكنني لا أريد الإجازة في هذا المكان البعيد، وما كنت بحاجة إلى إجازة أصلاً.

والرحلة الوحيدة المتيسرة إلى أوكلاند، ومن هناك إلى أستراليا ثم العودة إلى بلادنا، معناها ألا أزور (تاهيتي).

وحجزت مع الشركة إلى (بابيتي) عاصمة جزر تاهيتي في هذه الرحلة التي تسافر قبل فجر الأحد، فلم أستسغ أن أعود من المنطقة دون زيارة تاهيتي.

ورجعت إلى النزل (الموتيل) كاسف البال، وكتبت في مذكراتي، وكتبت حتى مللت الكتابة، وعندما حان وقت الغداء تجددت المشكلة أيضاً فقالوا إلى (تاموري)، وهو النزل الذي بحثت فيه البارحة عن العشاء، ولم أجد فيه غداء أيضاً.



ميناء رارو تونغا

تركت نزل تاموري، وذهبت أمشي في الشارع الرئيسي من البلدة وهو الوحيد، وتقع عليه منازل متفرقة، ولكنها تكون داخلة عن الشارع في وسط البساتين التي تشمل جميع أنحاء الجزيرة، فهي كلها أشبه ببستان واحد.

ويرى المرء بين الفينة والأخرى حانوتاً صغيراً، ورأيت من بساطة أخلاق القوم وعدم تكلفهم الشيء الكثير، فالذي يقابلك في الشارع وأنت تمشي

يحييك بقوله: هالو، حتى الأطفال يقولونها دون تكلف.

وهذا ما خفف عني الشعور بسوء ما لمسته فيهم من الكذب الذي تبين لي بعد ذلك أنه موجود بكثرة عند سكان هذه الجزر من البولينيزيين خاصة، وقد سألت نفسي عن هذا الكذب الظاهر فيهم أهو بسبب المكان، أم هو بسبب عنصر السكان؟

ومع أن الحكم على هذا الشيء يحتاج إلى وقت طويل، ودراسة عميقة، فإن الذي لاحظته أن سكان جزر المحيط الهادئ من غير البولينيزيين لا يظهر فيهم الكذب كما يظهر في أولئك، فمثلاً سكان جزر فيجي، وهم من جنسين: أحدهما الجنس الهندي المعروف الذي هاجر إلى فيجي في زمن الاستعمار البريطاني واستقر هناك، ويؤلف أفراد هذا الجنس نصف مجموع عدد السكان، والثاني الجنس الفيجي الأصيل الذي يشبه الصوماليين لولا ضخامة في أجسام أهله، ويقال: إن أصوله جاءت من إفريقية عبر آسيا أو المحيط الهندي، وكلا الفريقين لا يظهر عليه الكذب الذي يوجد في كثرة عند سكان هذه الجزر البولينيزيين، كما أن سكان (جزر سليمان) التي تقع إلى الشمال من المنطقة، وهم من جنس آخر يسمى المالينيز لا يظهر عليهم الكذب أيضاً.

وكنت لاحظت من بساطة أخلاق هؤلاء القوم، أو لنقل من عدم تمسكهم بالآداب المعترف بها أن خادمات مطعم تاموري أو مقصفه كن يجلسن مع النزلاء على الموائد ويضاحكنهم.

كما لاحظت من أخلاق القوم ابتداء من أهل ساموا الغربية أنهم يهزؤون من جهل الغريب بأمور جزرهم، ويضحكون عليه إذا سألهم عن شيء مألوف لهم لكنه مجهول عنده.

كما لاحظت أن السياح الذين لهم مظهر الأوروبيين وأكثرهم من

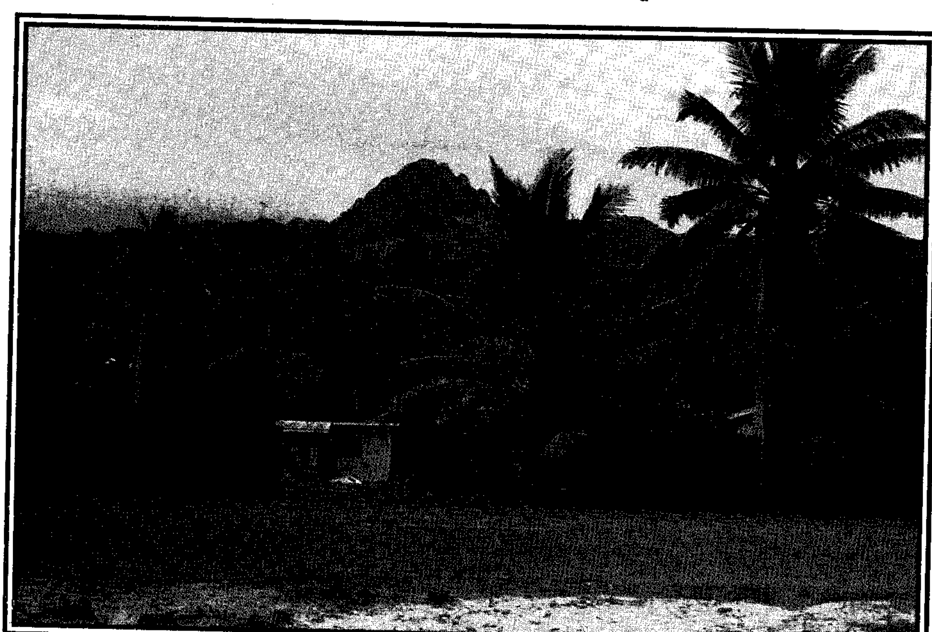
نيوزلندا أو أستراليا هم أيضاً زايلهم التزمت، فأصبحوا يحيونك، ويسارعون في الحديث إليك، وكذلك يمازحون أهل البلاد، ويتبسطون بالحديث معهم، وربما كان هذا بسبب قلة عدد السكان وقلة الاختلاط فيهم.

هذا وقد تعبت من المشي، ومن حرارة الشمس بعد الشعور بالبرد البارحة بسبب كثرة المطر، ولم أجد مطعماً واحداً مفتوحاً ولا حتى في السوق الذي هو في جزء من هذا الشارع العام، لكن يبعد عن النزل الذي أسكن فيه بنحو أربعة كيلومترات.

ودلوني بعد السؤال على فرن يبيع الخبز ومعه قليل من الجبن، فاشتريت منه قليلاً تبلّغت به بعد أن قيل لي: إن المطاعم على قلتها تفتح في الليل.

ومن الغريب أن حوانيت السوق أغلقت أبوابها في الساعة الرابعة عصراً.

وذكروا أن هذه هي العادة عندهم.



الشارع العام الذي عليه نزل (كي كي موتيل) في رارو تونغا

وقد فرغت من النظر إلى السوق الذي هو قصير، وحوانيته ليست متلاصقة، والسلع فيه قليلة لقلة السكان الذين ذكر لي أن الأصلاء منهم لا يزيدون في الجزيرة على عشرين ألف نسمة، وأن هناك بعض السياح والنيوزلنديين لم يشملهم هذا العدد.

ثم رأيت سيارة أجرة جاءت خالية مصادفة، وإلا فإنها لا ترى في الشارع في العادة، ولا بد من طلبها بالهاتف، فركبت معها إلى نزلي (كي كي موتيل) الذي أسكن فيه، وسألت سائقها عن الأجرة، فقال: أربعة دولارات فقلت له: لقد ركبت البارحة المسافة نفسها بثلاثة فقال: لا مانع، وأنا جئت إلى هنا لأن أحدهم طلبني بالهاتف ولم أجده، واكتفى بثلاثة.

أصيل جزر كوك:

كانت الشمس مشرقة أصيل هذا اليوم بخلاف الأمس، لذلك كنت وأنا في رواق غرفتي أستمتع بأصيل جميل، بل غاية في الجمال، فأمواج المحيط تداعب الشاطئ الأخضر فتسمع له أولها قهقهات منتظمة كأنها الموسيقى التي لا تفتر حتى إنها تشنف سمعك وأنت مستلق على فراشك، ولها في بعض الأحيان وبخاصة إذا أغلقت النافذة حفيف كأنه رفيف.

والزهور في حديقة النزل ومنها ما هو على أشجار كبيرة يبتسم لك ابتسامة البراءة والحنان، وهي كما أنها موجودة في حديقة هذا النزل فإنها موجودة في كل مكان من هذه الجزر الهادئة.

وإذا كانت قهقهات الأمواج لا تعجب أذنيك، فإنك تستطيع أن تنصت إلى قهقهات العاملات في الفندق، وهن خمس فتيات من المواطنات لم أسمع منهن أكثر من القهقهة في غير أدب ولا احتشام، حتى إنهن يصرفن أكثر أوقاتهن في الضحك بأصوات عالية تتنافى والذوق السليم، وبخاصة إذا رأى المرء أنه لا حاجة إلى هذا العدد منهن للفندق أو النزل الذي يتألف من صفين

من الغرف في طابقين، وليس مطلوباً من العاملات منهن إلا تنظيف الغرف وترتيبها في الصباح، أما ما عدا ذلك فإنه من مسؤولية نزلائها.

وأما ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر عدم الاحتشام، وهو السؤال عن ابتغاء الآثام عندهن، فإن الحق يقال إنه لا يبدو منهن أي شيء في هذا المجال.

ولا شك في أن الجزر الصغيرة المحدودة السكان كالقرى الصغيرة التي لا يسمح وضعها بأن تحوم شبهات كبيرة حول السكان، وإلا كان معنى ذلك البوار والبقاء بدون زواج.

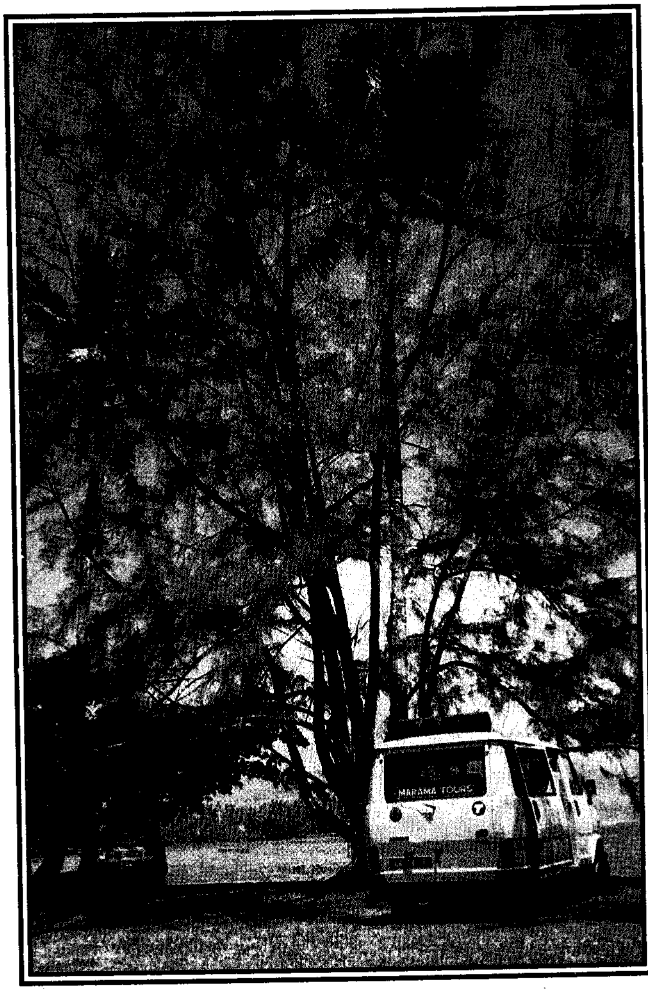
وإذا نقلت بصرك وفكرك في شاطئ المحيط بأمواجه وأثباجه، وهو عنك جهة المشرق، فنظرت إلى جهة الغرب رأيت التلال الخضر تغطيها غابات النارجيل، وهي برشاقتها المعهودة كأنما تتحدى غانيات البلاد بأجسامهن الغليظة المشهودة، ورأيت النارجيل ليست وحيدة في هذا المعرض الأخضر، وإنما هناك أشجار العمبة (المانجو)، وهي غليظة عريضة كأنها من طينة أهل البلاد، وهي نامية في طينتهم بالفعل.

وأغراني الأصيل ذو النسيم العليل، والهواء البليل، فخرجت أسير من النزل الذي لا باب له يغلق، ولا بوّاب يسأل الداخلين أو الخارجين، فكانت الجزيرة تبدو وكأنما هي كلها بستان واحد، وحتى البيوت قد اختفت داخل الأشجار، وهي منها في ظلال ووقاء، فالأشجار الباسقة تحتها أشجار أقصر منها، والتي هي أقصر منها تحتها أشجار أقصر أيضاً، إلى أن يصل النظر وهو نازل من فروع الأشجار الباسقة إلى الأرض التي هي بساط سندسي رائع، توشحه زهور بدائع، مختلفة الألوان، متناسبة في المكان.

الأثلة العربية:

مع ذلك وجدت هنا كما في مملكة تونغا شيئاً ذكرني بصحرائنا العربية، ليس من الأرض ولا من الأناسي، ولكن من الأشجار، فهذه هي

أثلتنا العربية الأصيلة بأغصانها وأهدابها وجذعها الثخين الذي يحكي أجذاع كثيرين من أهل هذه الجزر البولينيزيين.



شجرة الأثل في رارو تونغا

والعجيب أنها تبدو لي أكثر شهابة - من اللون الأشهب - وهو الرمادي مما هي عليه في بلادنا، وكأنما كانت بالفعل هي أثلتنا العربية الصحراوية هاجرت إلى هذه الجزر الهادية المطيرة، فلم يكسيها ذلك خضرة الأشجار الأصيلة فيها، وإنما بقيت عليها المسحة الغبراء، مسحة الصحراء.

وهذا ما جعلني أبادر فأقول: إنها أثلتنا العربية مع أن البحث افترض فرضاً آخر، وهو ما إذا كان الأثل العربي الصحراوي أصله من أحد البلدان المطيرة، فلما نقل إلى الصحراء القتيرة حال لونه، واستبدل بخضرته غبرة، إلا أن بقاءه هنا في هذه الجزر على هذه الحالة يؤكد أنه غريب فيها ربما غربة أحد بنيها، وهو كاتب هذه السطور، غير أن الأثل لا يستطيع الترحال لأنه مشدود إلى أرضها بحبال وأي حبال؟

وقد لاحظت أن أثلتنا أرشق من أثل هذه الجزر الخضر، وربما كان سبب ذلك غير طبيعة السكان غير الرشيقة أنهم لا يلحون على الأثل بالقطع لكثرة الأخشاب ووفرة الأشجار، لذلك يتركون الشجرة تنمو وسوقها - جمع ساق - على ما هي عليه من عدم الاتساق.

المساء الكوكي:

وهو منسوب إلى كوك الذي نسبت إليه هذه الجزر، ونسبته إليه هي لكون الجزر لا ينسب إليها، وإنما ينسب إلى أسمائها، وهذه ليست لها اسم إلا هذا المنسوب إلى القائد كوك.

وفي هذا المساء حيث هجر موظفو النزل نزلهم كالعادة في الثامنة، وليس هناك مكان يذهب إليه جلست في غرفتي، فرأيت كلباً أليفاً يقترب من غرفتي، وكان ينظر إليّ نظرات ودية، وقبل ذلك سألت عنه أحد العاملين في النزل قبل أن يغادروه فلم يعرفوه، وذكروا أنهم لا يدرون لمن هو، ولكن بعض النزلاء الذين يأتون مع أسرهم يأتون بكلابهم معهم.

ولم أبال بعدم المعرفة بأصله وفصله، وإنما الذي باليت به هو ما رأيته من فعله، فكان أن حضر هذا الكلب الأليف اللطيف إلى رواق غرفتي، وكنت جالساً فيها لا يؤنس وحدتي إلا قلمي وأوراقي وما تقرؤه الآن من كلماتي، فأخذ يبصبص بذنبه، ويشمشم الأرض، ثم يشمشم رجلي، وقد

طأطأ رأسه ومد عنقه علامة الخضوع والإذعان، وربما كان هذا عنده علامة الاحترام.

وكأن هذا الكلب وحيداً مثلي في هذه الجزيرة، وليس لنا مثل السوء بالمقارنة بالكلب - ولكن الشعور بالوحدة هو الذي أملى ذلك، وجعل هذا الشيء التافه يتحول إلى شيء يذكر، ولا أقول: إنه يستحق أن يؤثر.

وقد أنست به، وخيل إليّ أنه أنس بي، إلا أنني لم أتبسط معه رغم أنه تبسط معي خوفاً من أن يكون لأحد النزلاء الزملاء ممن لا أعرفهم، وربما لا يعجبهم أن يستأثر غيرهم بكلبهم.

وبعد أن مللت في البقاء في الشرفة، أغلقت الغرفة، وودعني الكلب الأليف إلى ما بعد باب النزل، فسرت في الطريق المعهود من ذلك الشارع الوحيد في بلدة (رارو تونغا) وسط ظلام يكاد يكون دامساً إذْ لا يرى المرء إلاّ ضوء مصابيح خافتة تنبعث من بعض البيوت المنزوية في أحضان هذه الأشجار الملتفة.

ولا ماشي هنا على قدميه إلا أنا، لأن الطريق طويل، والسكان قليل، ولم أكن أحس بشيء يعيرني اهتماماً إلا شيئان: أحدهما بعوض متطفل يلسع ذراعيّ العاريتين لأنني كنت ألبس قميصاً قصير الأكمام ابتغاء للتخفيف ولعدم التعريف عندما أدخل محلاً لتناول طعام خفيف، والثاني: كلاب الحراسة من بعض البيوت التي كانت تنبح من يمر بها من الشارع، وإن كانت لا تقترب منه مادام لا يقترب من البيوت التي تحرسها.

وقد ذهبت إلى المكان الذي كنت فيه البارحة، فأكلت فطيرة بالجبن وقضيت بعض الوقت الذي لا إمتاع فيه إلا كونه انتشلني من فراغ الغرفة، ثم عدت في الحادية عشرة أسير على قدمي أيضاً في جنح الظلام، إلى نزلي الذي يبعد ثلاثة كيلومترات.

ولم أشعر بخوف هنا ، فالأمن كما شاهدته من حال البلاد هو مستتب، والناس بطبيعتهم ليسوا ذوي ميل إلى العدوان، أو هذا هو ما انطبع في ذهني من حالهم.

وعندما وصلت النزل وجدت ذلك الكلب الأليف عند بابه الخارجي وقد خضع وطأطأ عنقه، وبصبص بذنبه، وهو يصحبني إلى باب غرفتي. وأدرك شهر زاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

ولما كان في يوم الجمعة ١٩٨٥/١٢/٦م أفطرت في مقصف (تاموري)، وهو نزل مجاور لنُزُلِنا ، وكان إفطاراً نزراً مع خدمه سيئة.

جولة في راروتونغا :

راروتونغا هي جزيرة مثل سائر جزر كوك كما قدمت، ولذلك كان لا بد لي من التجول فيها وبخاصة أنها متفرقة المنازل لأن أكثر منازلها واقع في أحضان أراض لأهل تلك المنازل.

وسألت مديرة النزل العجوز (مارتا) عن الشركة التي يمكن أن تأخذني في جولة على هذه الجزيرة هذا اليوم فكان أن قالت: إنني سآخذك بنفسي، وسأكون خيراً لك من الشركة ، فأنا من أهل البلاد ، وأستطيع أن أشرح لك كل ما تريد معرفته، وكانت لاحظت فضولي وكثرة أسئلتي.

ومعنى اسمها : (رارو تونغا): خارج تونغا لأن رارو باللغة الوطنية هي خارج، هكذا سمعت من أكثر من واحد ، إلا أن أحد أهل البلاد ذكر أن معنى اسمها تحت الشمال، فقال: رارو: تحت، وتونغا : شمال.

الكنيسة هي الأولى :

لم تكن مارتا كما أخبرتني تعتقد بالطقوس المسيحية، فلم يكن الحامل لها على البداءة بالمرور بالكنيسة هو شعورها الديني، وإنما كان ذلك

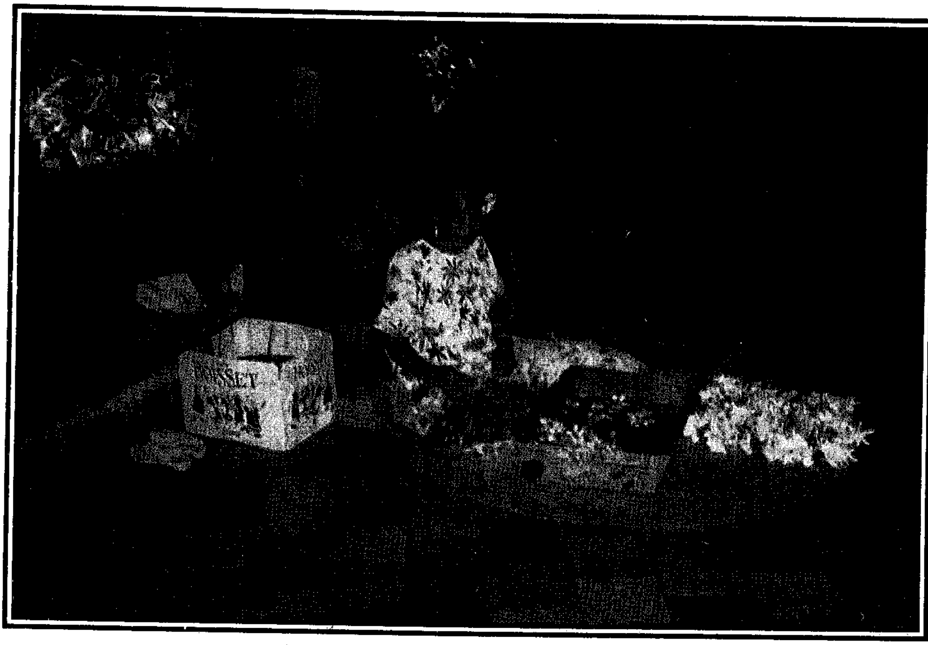
لأهميتها التاريخية ولكونها قريبة من النزل، فهي أولى النقط المهمة التي تستحق المشاهدة هنا كما قالت.

ورأينا الكنيسة من الخارج جيدة البناء في هذه الجزر التي تقل فيها الأبنية الجيدة، وقد أقاموا في فنائها صوراً وتماثيل لبعض دعاة النصرانية الذين وفدوا إلى هذه البلاد لغرض إدخال أهلها في المسيحية، وقد تم لهم ذلك بالفعل، فلا يوجد الآن فيها شخص من أهلها متدين بغير المسيحية، غير أن الاعتقاد بصحة المسيحية ليس شاملاً لهم، بل أن جزءاً كبيراً منهم لا يعتقد ذلك، ومنهم (مارتا) التي قالت لي عندما سألتها عن ديانتها قالت: إنها مؤمنة بالله، ولكنها لا تذهب إلى الكنيسة مطلقاً، لأن رجال الكنيسة يستغلون الناس، وقالت: إنني أستطيع أن أعبد الله في بيتي دون وساطتهم، فشرحت لها الدين الإسلامي الذي لا يجعل بين الإنسان وربه واسطة، ورغبتها فيه، فقالت: إنها لم تسمع قبل ذلك شيئاً عن الدين الإسلامي إلا ما قرأته مجملاً غير واضح.

وقد كتب على هذه الكنيسة تاريخ بنائها في عام ١٨٢٣م، وهي أولى الكنائس في هذه الجزيرة، ومعها أربع كنائس أخرى بنيت بعدها مع أن سكان الجزيرة من الأصلاء لا يتجاوز عددهم عشرين ألف نسمة.

وقد بنوا بجانب هذه الكنيسة بناء مهماً هو المكتبة العامة، وذكروا أنها حافلة بالكتب التي هي في غالبها باللغة الإنكليزية، لأنه وإن كان لهذه الجزر لغة خاصة بها فإنها ضعيفة، لأنها تختلف حتى عن لغات بقية الجزر البولينيزية المجاورة نسبياً لها في المنطقة، وإلا فإنها متباعدة تفصل بينها سدود من مياه المحيط الهادئ العظيم.

ثم ذهبت السيارة للسوق الذي رأيته أمس، فلم نطل فيه وقد نوهت (مارتا) بمكتب البريد الوحيد في الجزيرة.



بائعة زهور في رارو تونغا

وقربه أوقفت (مارتا) السيارة، وأنزلتني منها وهي تشير باهتمام إلى بناء وتقول لي وهي تشير بالدخول إليه: إنه مكتب ابني، إنه محام وأريد أن أعرفك به، إنه مثلي لم ير هنا عربياً قبلك.

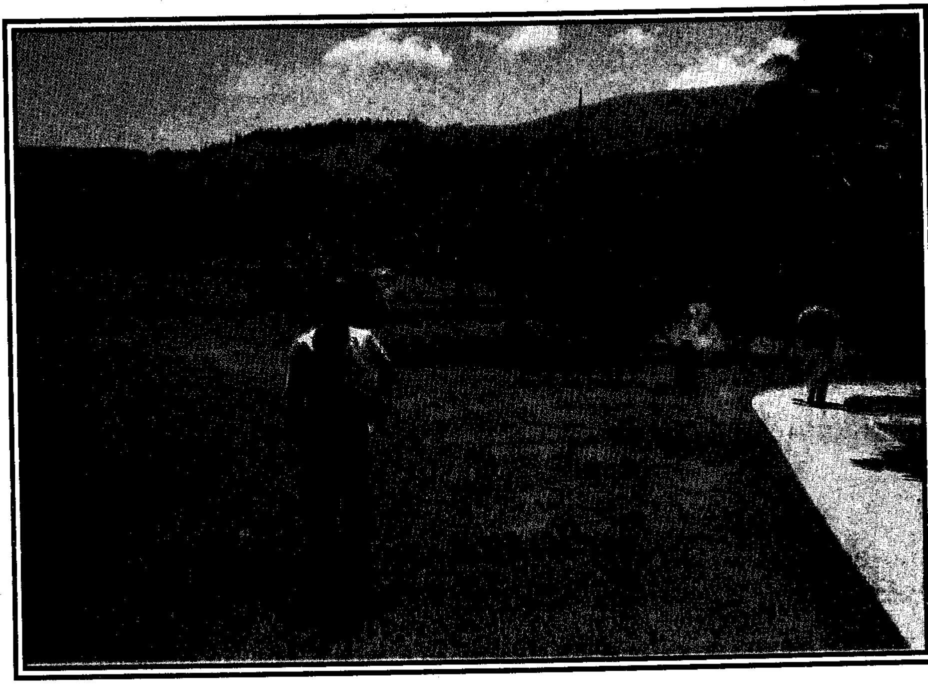
ولكنها لم تجد ابنها في المكتب وقالت موظفة في مكتبه: إنه ذهب للغداء مع زوجته وأولاده، وقالت (مارتا): إنني سوف أريك أحفادي، وكأنما كانت عندها رؤية الأحفاد، في هذه البلاد، مما يحرص عليه الرواد.

في ريف رارو تونغا:

لا يختلف الريف عن غيره كثيراً، فالجزيرة كلها تعتبر ريفاً، ولكن المقصود بالريف هنا إنما هو الخالي من البيوت والمتاجر.

وعندما خرجنا إلى الريف لم تختلف التلال الخضر التي كنا نشاهدها من البلدة عما هي عليه في الريف، فهي تلال متصلة خضر بينها وديان ذات

غابات ملتفة.



في ريف رارو تونغا

قرية أرور رانجي:

وهي قرية صغيرة بل هي أشبه بتجمعات بيوت قليلة، ولكن عندما يكون السكان قليلاً تصبح البيوت القليلة ذات بال والعكس بالعكس، وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت في ولاية بيهار بالهند، ومررنا ونحن نسير على طريق ريفي ببلدة قال المرافقون لي إنها قرية كذا، وإن عدد سكانها هو مائة ألف، أما هنا فإن مجموع السكان الأصلاء هو (٢٠) ألفاً، والمراد بالأصلاء الذين يسكنون بصفة دائمة، وليسوا من الينوزيلنديين الذين تشترك بلادهم مع (جزر كوك) بنظام اتحادي أسموه (اسوسيشن).

وصلنا إلى قرية (ارور رانجي) مع الطريق الإسفلتي الذي كان يماشي البحر جهة اليمين ويدع الغابات الريفية الطبيعية على يده اليسرى، وهذا

الطريق قد جملوه تجميلاً طبيعياً، وأهم ذلك أنهم غرسوا أشجار الزهور على جانبيه، وإن لم يكن ذلك بصفة شاملة لأن أشجار الطريق الكبيرة هي تابعة للبلدية، غير أن أهل البساتين أو لنقل الغابات التي يكون فيها بعض الأحيان منزل أو منزلان يغرسون هم أشجار الزهور، وأنواع الزهور الأخرى المختلفة الألوان، فيبدو المنظر جذاباً خلاباً.

القبور بجانب الدور:

وفي هذه القرية أوقفت (مارتا) السيارة أمام حديقة هي جزء لا يتجزأ من هذه الحديقة الواسعة التي تشمل الجزيرة، ولكن فيها بيت داخل عن الطريق بحوالي مائة متر، وقالت: هذا هو منزل عائلتي، إنه منزل والدي، ووالدتي ووالدي مدفونان في حديقة المنزل أمام البيت، ثم أرتني إياهما في قبرين متجاورين، وكنت رأيت قبوراً أخرى أمام بيوت أخرى مما ذكرني بما رأيته في بعض الأماكن في تونغا وساموا.

وقالت مارتا: إن الناس قد اعتادوا على أن يدفنوا المرء أمام بيته ليكون قبره أمامه فيتذكرونه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن كبار القوم ورجال الدين يدفنون في أفنية الكنائس، ولا يتيسر لبقية الناس ذلك كما لم تكن توجد مقابر جماعية، ولم يكن الناس في السابق يرغبون أن يدفنوا أقاربهم فيها.

ماذا رأت فيَّ مارتا؟

لاحظت أن (مارتا) تقف بسيارتها على كثير ممن تلاقيهم فتعرفهم من السيارة فتقدمني إليهم وخاصة النساء قائلة: هذا مستر محمد، بل إنها قرعت عدة أبواب وجدت بعض أهلها فيها من النساء، وفي كل مرة تقدمني إليهم وتقول: مستر محمد، ولم أشأ أن أمنعها من ذلك لأنني أريد على الأقل – وهذا أضعف الإيمان – أن يسمع الناس هنا باسم محمد فيرونه حياً عربياً، أو هذا

تفكيري الذي قد يكون ساذجاً ولكنه - على أية حال - لم يكلفني شيئاً، وتقدم النساء اللاتي كلهن دون استثناء من الكبيرات في السن قائلة مرة: هذه أختي، أو هذه صديقتي.

ومرت على بيت ابنها فأرتني زوجته وعرفتها بي، وأخذت منها حفيداً لها عمره ٨ سنوات، ولم يسترع انتباهي شيء في هذا الأمر.

وتناولنا الغداء في فندق قيل لي إنه الفندق الوحيد هنا، واسمه فندق رارو تونغا، وهو مزدحم بالنزلاء من السياح الذين جاء بعضهم من بلدان أوروبية وأمريكية بعيدة.

فكان غداؤه فاخراً رخيصاً كلف للشخص الواحد ١٢ دولاراً نيوزلندياً مع أنه بطريقة الاختيار من المائدة (بوفيت).

وفي نهاية الغداء قدمت فتيات جميلات عرضاً للأزياء أمام الآكلين.

شاطئ بوري بيتش:

استأنفنا الجولة بعد الغداء، فسرنا مع طريق إزفلتية جيدة امتدت معها التلال الخضر ذوات الوديان المكتظة بأشجار الغابات، وفي السهول وهي غير واسعة أشجار مثمرة، وحقول صغيرة من الذرة والخضرات.

ولفت نظري شئ طلبت إيقاف السيارة من أجل تصويره، وهو صورة أثلة في جانب نارجيلة لأن منظرهما ذكرني بمنظر الأثل إلى جانب النخيل: نخيل التمر في بلادنا.

ومررنا بحدائق ملتفة من أشجار البرتقال الذي ينمو هنا ويثمر، ولكنه أخضر اللون دون برتقال البلدان العربية المعتدلة الذي نعرفه في بلادنا كلبنان، ومصر، والمغرب.

ثم عدلت مارتا عن الطريق الإسفلتي داخلة في طريق ريفي زراعي غير

معبد، فسارت حوالي الكيلو ثم أوقفت السيارة عند مزرعة فيها عامل وامرأة من الفقراء وقالت: هذه المزرعة وأكثر ما فيها أشجار البرتقال والموز يملكها ابني، إنني أود أن يكون هنا لأعرفك عليه، هذا وقد قطعنا حتى الآن ٣٨ كيلومتراً من المناظر الجميلة.



الشاطئ الرملي خارج رارو تونغا

ثم وصلنا إلى شاطئ رملي أبيض بديع صالح للاستحمام كأكثر شواطئ الجزيرة، ولكن ليس فيه مستحمون، وذلك لكثرة شطآنها الرملية الخضر، وقلة السياح بالنسبة إليها.

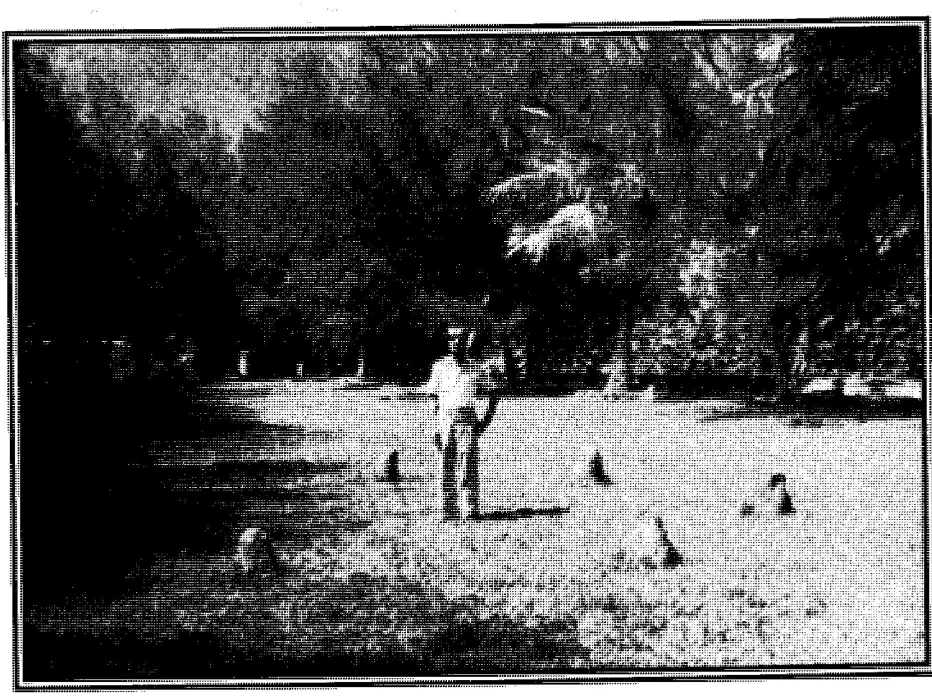
على أن الأنزال (الموتيلات) هنا كثيرة، ولكنها ليست كبيرة، وشاطئ (بوري بيتش) هذا يفصل بينه وبين الغابات الطريق الإزفلتية العامة، وأينما توجه المرء ببصره منه يرى مناظر خلابة، فمن رمل الشاطئ اللؤلؤي إلى مياه البحر الضحلة اللازوردية إلى المياه الزمردية الخضر، فمياه المحيط الهادئ

الزرقاء الداكنة على البعد ، وعلى اليابسة الغابات الملتفة بأشجارها التي أكثرها ظهوراً أشجار النارجيل النحيلة الفارعة القوام.

وغير بعيد من شاطئ بوري بيتش مكان يسمى (تي تي كابكا) قالت مارتا إنه قرية مع أن بيوته قليلة لا تصل إلى أن تستحق أن تسمى قرية ، فيه قصر منسق الحدائق والأفنية معتنى به عناية ظاهرة ، وهو قصر ممثل ملكة بريطانيا في هذه الجزر.

ويذكر أن (جزر كوك) كما قلنا داخلة في اتحاد حر مع (نيوزلندا) التي لا يزال يحكمها حاكم يمثل ملكة بريطانيا ، وإن كانت قد استقلت عن بريطانيا منذ سنين.

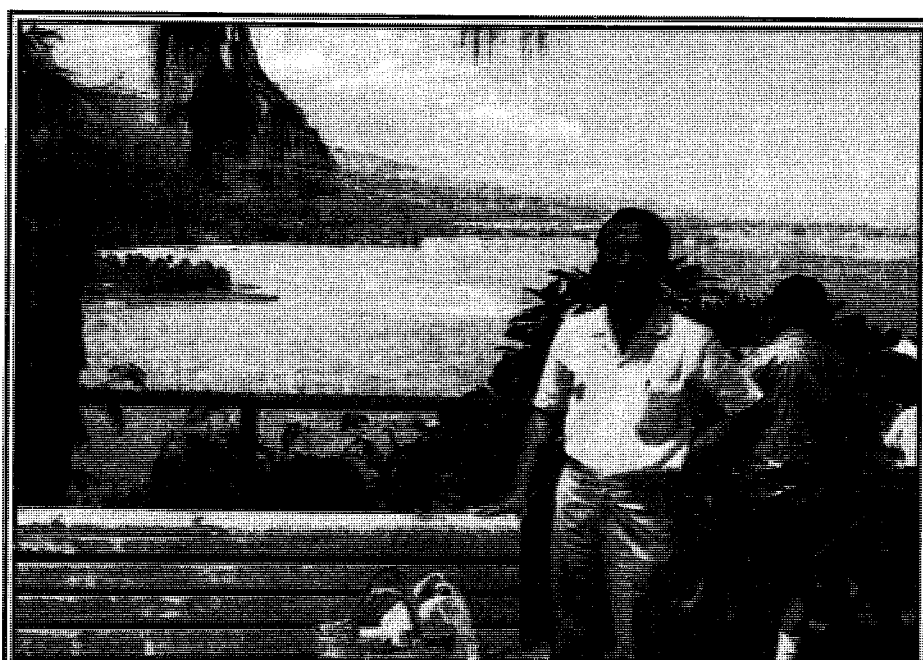
موطئ قدم كوك:



المؤلف واقف في النقطة التي نزل فيها الكابتن كوك لأول مرة في هذه الجزيرة

وصلنا قرية صغيرة اسمها مكافيرا ، فيها بيوت قليلة متفرقة ليست مهمة ، ولكن الأهمية كانت لموضع غير بعيد منها ، إنه الموضع الذي نزل فيه الكابتن كوك الإنكليزي مكتشف أستراليا ، ومكتشف جزر أخرى في منطقة المحيط الهادئ الجنوبي منها هذه الجزر التي سميت باسمه جزر كوك أو (كوكس أيلاندز) بالإنكليزية.

والنقطة تقع في مرفأ طبيعي صغير له مدخل واحد من جهة البحر سمته العجوز قناة وهو أوسع من ذلك ، ولكن السفن القديمة تحتاج إلى مرفأ طبيعي يقيها امتداد الأمواج الصاخبة القادمة من المحيط كما يقيها الزوابع والأعاصير.



منطقة سياحية على شاطئ الجزيرة خارج رارو تونغا

وقد احتفلوا بالمكان الذي نزل فيه مكتشفهم الأول - وحق لهم ذلك - فهو فخر لهم بلا شك ، وفيه تخليد لأولئك المغامرين المكتشفين الذين أفادوا

بلادهم وأفادوا الإنسانية كلها بما قدموه من معارف ومعلومات عن هذه الأماكن المجهولة، بغض النظر عما قد يكون وراء الحملات الاستكشافية من أغراض استعمارية لدولها، فذلك قد يكون أثره مؤقتاً، وقد أحاطوا هذا الموقع الذي نزل فيه الكابتن كوك بحجارة حتى صار أشبه بدائرة من حجارة منقولة، وذكروا أنه وصل إلى هذه الجزر قادماً من نيوزلندا ومعه ستة قوارب صغيرة إلى جانب القارب الذي هو فيه.

ثم وقفت بي على نزل مهجور بجانب بيت ذي مظهر جيد وقالت: هذا هو بيتي، وهذا النزل بجانبه كنت أديره ولكنه مهجور الآن، والسبب في ذلك أن زوجي عشق امرأة فلبينية فهجرني وسافر معها إلى الفليبين.

وكانت تتحدث بذلك بمرارة وحنق على زوجها، وأنا أقول في نفسي: إن زوجها معذور في الهروب منها، وقالت: إن زوجي يبلغ الرابعة والخمسين من العمر وعشيقته الفلبينية تبلغ الخامسة والثلاثين، وقالت: إنني كنت أدير هذا النزل مع زوجي، ولكنه عندما هجرني وسافر للفليبين مع المرأة أصبت بحالة نفسية تركت معها النزل مهجوراً، وقبلت أن أعمل مديرة لنزل (كي كي موتيل) الذي تنزل فيه لمدة مؤقتة لأن صاحبه مسافر عن البلاد.

ولم أسألها عن عمرها هي، ولكن يظهر من حالها أنها في حدود الستين، وظني أنها لم يكن فيها جاذبية وهي في الثلاثين فضلاً عن هذا الوقت، وقلت في نفسي: إنهما لو كانا مسلمين لما كانت بالزوج حاجة إلى أن يهرب مع المرأة ليعيش معها خارج بلاده، فكان تزوجها، وربما رضيت زوجته الأولى بذلك لكونها تعرف أن الدين الإسلامي يسمح له بذلك، وإذا لم ترضَ ولم يجد وسيلة إلا الفراق فإنه يستطيع أن يستعمل حقه في طلاقها، من دون أن ينكر عليه منكر.

أما الآن فإنه لم يستطع طلاق هذه المرأة الكبيرة، واضطر إلى أن يعيش

عيشاً محرماً مع تلك الفلبينية كما أفهمتني ذلك امرأته، وهي تكرر قولها إنها - أي الفلبينية - في الخامسة والثلاثين تعني أنها تجاوزت مرحلة الإغراء، ولكن مارتا نفسها تجاوزت مرحلة العشرة الزوجية فضلاً عن الإغراء.

وخُيِّل إليّ أنني عرفت السبب في كونها تقدمني إلى من تراه من أصدقائها وأقاربها وبخاصة من النساء قائلة: هذا مستر محمد، فكأنما هي تفتخر بمجرد أن يكون معها غريب سائح ولو لمدة يوم واحد، وكأنما هذا أمر يرد لها اعتبارها !.

وعلى ذكر أعمار النساء في هذه البلاد أقول: إن العجوز كانت تغرق وجهها بالمساحيق كما رأيت النساء المسنات يفعلن في هذه الجزر، بخلاف الشابات فإن استعمالهن للمساحيق وأدوات الزينة قليل.

ثم عدت إلى النزل في حدود الساعة الخامسة عصراً بعد جولة جيدة في هذه الجزيرة التي هي أشبه بجنة أرضية وإذا أضيف إلى ذلك رخص أسعارها ووفرة الأنزال فيها كان ذلك مغرياً بتكرار السفر إليها.

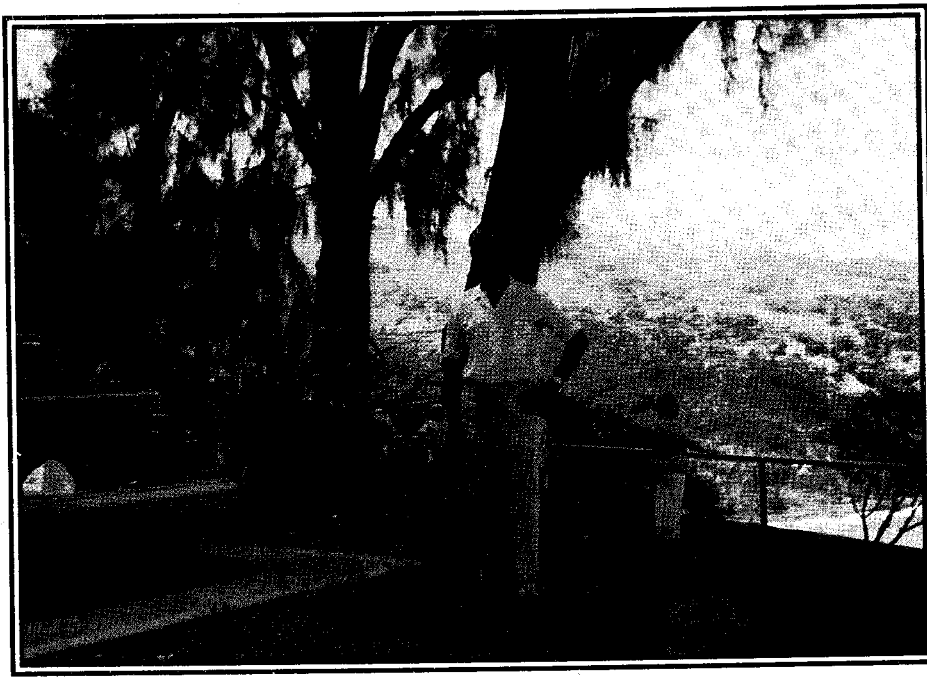
إضافة إلى أن أخلاق أهلها ومعاملتهم للغريب أرقى من معاملة أهل ساموا الغربية، أما أهالي ساموا الأمريكية فإنهم في هذا الأمر في الحضيض.

غضب المحيط:

وفي هذا المساء غضبت مياه المحيط، فأخذت تصفع بأمواجها المتلاحقة المتلاصقة شاطئ هذه الجزيرة المسالمة، فتكون لذلك زمجرة أشبه بزمجرة الرعود البعيدة المتواصلة حتى إنها كدرت الهدوء المعهود في ليل هذا النزل الجميل.

وكان منظرها أعظم وهي تتصارع فيما بينها على هذا الشاطئ الذي يصدها بارتفاعه، وقبل ذلك على حاجز صخري بعيد داخل البحر يرد مردتها

من الاقتراب من الشاطئ، فكنت لا أمل النظر إليها وبخاصة أنني ليس لدي ما أفعله إذا فرغت من الكتابة.



المؤلف عند البحر الهائج في شاطئ رارو تونغا

ونمت وصراع الأمواج يزداد، ولكن صوتها رتيب يبعث النعاس أكثر مما يبعده الرقاد.

يوم السبت ٧ ديسمبر ١٩٨٥م

جولة وداعية:

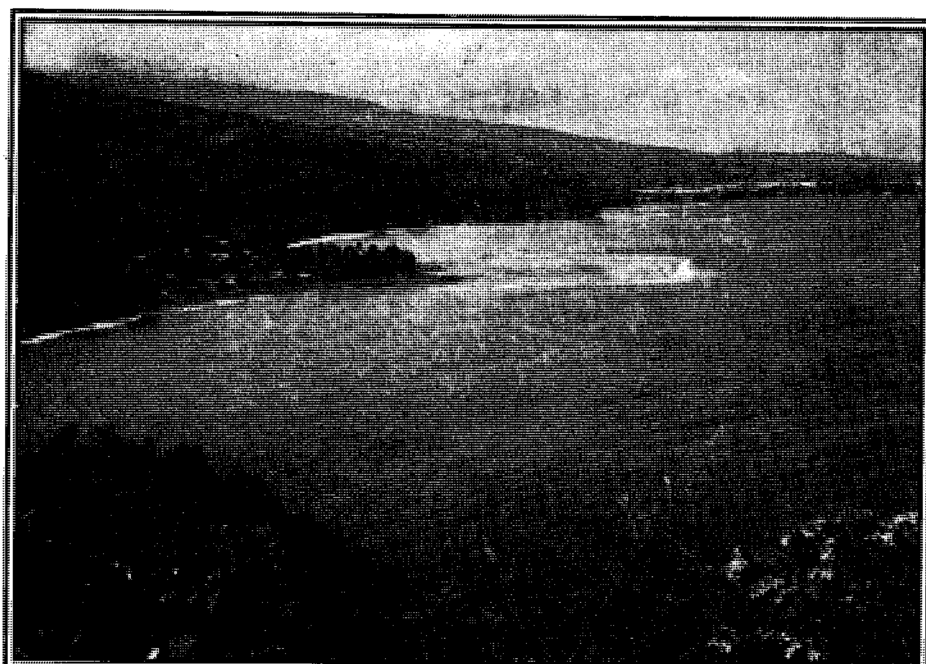
هذا اليوم هو آخر أيام البقاء في هذه الجزر، وقد صمتت الأمواج هذا الصباح، غير أن الرعود في السماء استأنفت ما كانت الأمواج قد بدأته.

فقد أصبحت ولا عمل لي اليوم، فكتبت ما أردت أن أكتبه في أول الصباح، ثم غامت السماء وأمطرت بعد ذلك بسرعة، والسماء إذا غامت هنا

فما أسرع أن تمطر.

وقد نزل المطر مدراراً فبرد الجو، وطاب السير.

وخرجت ضحى أتمشى ومعي شمسيتي وهي من سلاحي الذي لا يكاد يفارقني في هذه الجزر المطيرة وأمثالها، وكانت جولة وداعية وصلت فيها السوق الرئيسية ولم أر جديداً في هذا اليوم، وقد شعرت بطول المدة مع أنني أعرف أن سفري منها في هذه الليلة إن شاء الله، ولكنني مللت البقاء في هذا النزل والفراغ الممل.



ساحل الجزيرة التي عاصمتها (رارو تونغا)

مغادرة جزر كوك:

كانت (مارتا) قد أمرت سائق النزل أن يحضر إليّ بسيارته في الثالثة والنصف بعد منتصف الليل من مساء هذا اليوم السبت، وقالت: إنها لا تعتمد

على سيارة أجرة قد يخلف سائقها الموعد في هذا الوقت المتأخر من الليل الذي لا يجد المرء فيه سيارة.

وجاء السائق مع زوجته في المساء، ومعهما طفلهما الرضيع فناما في الفندق حذراً من أن ينام السائق في بيته فلا يستطيع أن ينتبه.

ونمت مبكراً، وفي الثالثة والنصف كان السائق يطرق باب غرفتي ومعه في السيارة زوجته وطفلهما، ولم يكن في وداعي إلا ذلك الكلب الأليف، ووصلنا إلى المطار في الرابعة إلا ربعاً، والمقرر أن تقوم طائرتنا إلى تاهيتي في الخامسة إلا ربعاً فجراً.

وقد غادرت جزر كوك بالفعل في الموعد المذكور إلى تاهيتي، وللحديث عن تاهيتي كتاب آخر عنوانه: ((تائه في تاهيتي)).

قبل اختتام الحديث عن الجزر البعيدة

قبل اختتام الحديث عن هذه الجزر البعيدة يجدر بنا أن ننقل كلمة موجزة عن وضع الإسلام فيها.

وقد قدمنا كلاماً كثيراً عن الإسلام في تونغا من خلال اليوميات والمشاهدات، ومن قبل أن نصل إلى تونغا.

لأن (تونغا) هي الوحيدة التي كان فيها وجود منظم للمسلمين بين الجزر المذكورة.

فعندما كنا هناك لم يكن في ساموا الغربية وساموا الأمريكية، وكذلك في جزر كوك أي وجود إسلامي منظم، فلم تكن في أي منها جمعية إسلامية، ولا كان هناك أشخاص مسلمون معروفون يمكن الاتصال بهم.

ولا يقال: إنه من الجائز أن يكونوا موجودين وأنا لم أتصل بهم، فإن الواقع أن الاتحاد الإسلامي النيوزلندي المؤلف من ست جمعيات مسلمة نيوزيلندية هو مهتم بالمسلمين في هذه المنطقة بحكم اهتمامه بالإسلام، ولكونه جاراً لها، بل إنه يكاد يعتبر جزءاً من المنطقة.

وبيننا - في رابطة العالم الإسلامي - وبين هذا الاتحاد صلات وثيقة مستمرة، ولي علاقة صداقة وثيقة برئيسه العام الذي استمر في رئاسته سنوات عديدة، كان يجدد فيها انتخابه رئيساً للاتحاد المذكور سنوات عديدة، وهو الأخ المحامي عبد الرحيم رشيد، وقد طلبت من الإخوة الذين شاركوا في الاحتفال الذي أقامته الجمعية الإسلامية في كنتربري لافتتاح أول مسجد في مدينة كرايست تشيرتش أن يدلوني على أي مسلم في الجزر المذكورة بأن يعطوني عنوانه إن وجد لديهم، أو أن يخبروني باسمه، والبلدة التي يقيم فيها، وأنا أبحث عنه فلم يعطوني إلا عنوان الأخ فياض مانو في تونغا الذي قابلته ووصفت ذلك بالتفصيل في اليوميات.

وقد تابع الإخوة في الاتحاد الإسلامي النيوزيلندي الأمر، وسافر رئيس الاتحاد الأخ عبد الرحيم رشيد حتى بعد أن ترك رئاسة الاتحاد لفترة، فزار تلك الجزر، وبحث عن المسلمين وساعد على وجود إسلامي رسمي فيها عن طريق تأليف جمعية إسلامية في كل جزيرة.

وكان يبعث إلينا بنتائج جولته في كل مرة، وكانت حصيلة ذلك إنشاء جمعيتين إسلاميتين إحداهما في جزيرة ساموا الغربية والأخرى في ساموا الأمريكية، كما شمل ذلك متابعة الوضع الإسلامي في مملكة (تونغا).

أما (جزر كوك) فإنه لم يتم فيها أي عمل إسلامي رسمي حتى الآن.

وهذه خلاصة ما أرسله لنا الاتحاد الإسلامي النيوزيلندي عن هذا الموضوع:

عاد السيد/ عبد الرحيم رشيد تواً من زيارة قام بها إلى الجزر الواقعة جنوبي المحيط الهادئ لإنجاز غرضين هما:

- تنظيم حفل افتتاح المركز الإسلامي في كل من تونغا وساموا واستئجار مقر المركز الإسلامي في مدينة باقو باقو في ساموا الأمريكية.

- توزيع كتب بعثتها الندوة العالمية للشباب المسلم لنشر الدعوة الإسلامية.

أولاً: في باقو باقو ساموا الأمريكية.

وصل السيد/ رشيد إلى هذه المدينة في ١٩٩٠/٦/٣٠م لتنظيم الإخوة المسلمين المقيمين هناك ضمن إطار جمعية إسلامية، واستئجار مقر لأداء صلوات الجمعة، وممارسة أنشطة الجمعية، وقد تم استئجار المقر بقيمة شهرية مقدارها ٢٥٠ دولاراً أمريكياً، ويجري تحرير العقد بين المؤجر وبين

رابطة مسلمي ساموا، وقد ترك قيمة إيجار شهر يوليو عند الأخ .S . H شاه رئيس الرابطة الساموية.

إجراء انتخابات وتكوين جمعية:

في اجتماع عقد في فندق ((رين ميكر)) بساموا الأمريكية وحضر الإخوة والأخوات في ١٩٩٠/٦/٣٠م تم انتخاب الأشخاص التالية أسماؤهم .S.H شاه رئيساً، وسكرتيراً، وخازناً، كما تم تشكيل لجنة مكونة من خمسة أشخاص لنشر الدعوة الإسلامية بين المسلمين وغيرهم، وقد قضى السيد/ رشيد ليلتين في ساموا الأمريكية.

منطقة آبيا بساموا الغربية

أمضى السيد/ رشيد خمسة أيام بلياليها في ساموا الغربية حيث التقى مع الأخ محمد إياس ومحمد دانيال ستانلي وغيرهما من المسلمين المقيمين هناك، وتم دعوة الجميع إلى حفل افتتاح المركز الإسلامي لساموا الغربية، وقبل بضعة أيام من حفل الافتتاح تم تسريح السيد/ محمد ستانلي من وظيفته كمدير لهيئة مطار الجزيرة دون إبداء أي سبب، وكان واضحاً أن السبب الحقيقي هو اعتناق السيد/ محمد ستانلي للدين الإسلامي في شهر مايو ١٩٩٠م على يد الشيخ الإمام جوهر سرحان، ولم يرق ذلك لوزير الطيران المدني، ومع ذلك فقد تم تنظيم الحفل دون إشهار.

هذا ويقطن في ساموا الغربية خمسة وعشرين (٢٥) مسلماً، وقد تم إجراء الانتخابات في ١٩٩٠/٦/٢٩م كالتالي: محمد داياس قول رئيساً، وأحمد شوستر سكرتيراً، ومحمد دانيال ستانلي أميناً للصندوق، ويعد هذا الأخير ثروة حقيقية للإسلام والمسلمين في المنطقة نظراً لمكانته الاجتماعية في البلاد، وقد ترك السيد/رشيد كتباً إسلامية من الكتب التي بعثتها الندوة، وبدأ الإخوة في ترجمتها إلى اللغة الساموية، على أن المسلمين هناك في حاجة

ماسة إلى خدمات إمام يؤمهم في الصلوات ويدرسهم العلوم الدينية، وكان الأخ جوهر سرحان قد عمل إماماً مؤقتاً إلا أنه عاد إلى فيجي.

تونغا:

شارك في حفل افتتاح المركز الإسلامي هنا ما بين ٦٠ -٧٠ شخصاً منهم موظفو الحكومة وزعماء الكنيسة، وقد تحدث إلى المجتمعين كل من السيد/ رشيد والأخ مانو.

الإمام رضوان لوبيس:

رجع الأخ لوبيس إلى فيجي بعد أن أمضى بضعة أيام في تونغا لغرض العودة إليها مرة أخرى ومعه زوجته وابنه إلا أنه لم يستطع العودة، إذ يبدو أن خدماته هناك ما زالت مطلوبة من قبل رابطة مسلمي فيجي، على أن الحاجة إلى وجود إمام في تونغا ما زالت قائمة، وقد تمكن السيد/ رشيد من إقناع أخ مسلم من غانا تخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة بالعمل في تونغا إماماً ولو بشكل مؤقت.

نقاط عامة وهامة - الأئمة:

تم إبلاغ الأخ عبد الرحيم رشيد أن ترتيبات تجري لإرسال اثنين من الأئمة من إندونيسيا للعمل في منطقة جنوبي المحيط الهادئ، ويقوم بالترتيب أخ من سنغافورة.

الإستراتيجية المستقبلية في جزر جنوب المحيط الهادي:

تقوم سياسة الاتحاد على تنظيم مسلمي المنطقة تنظيماً إسلامياً قوياً واستئجار مقار لمختلف المجموعات إن لزم الأمر تتخذها منطلقاً لنشر الدعوة الإسلامية.

الرحلة القادمة إلى الجزر التي يوجد فيها مسلمون:

يعمل السيد/رشيد على زيارة كل من واناواتو، وجزيرة سلولومون وجزر كوك وكريباتي: وذلك في شهر أغسطس القادم ١٩٩٠م لتنظيم المسلمين في مجموعات تقوم بالدعوة.

النتائج التي حققها الاتحاد في مجال الدعوة.

لقد تحققت إنجازات كبيرة من أجل نشر الدعوة الإسلامية في منطقة جنوبي المحيط الهادئ، فجميع الكتب الإسلامية الموزعة في المنطقة هي إما من مقر الاتحاد، وإما مطبوعة محلياً على نفقة الندوة العالمية للشباب المسلم، وتعتزم الندوة في هذا المضمار إقامة معسكر للتدريب في مدنية كرايست تشيرتش من ١٩٩٠/٨/٣١م إلى ١٩٩٠/٩/٢م، وسيشارك في المعسكر حوالي تسعين مسلماً ومسلمة، وهناك اتجاه لم يتم البت فيه بعد لإقامة معسكر لشباب منطقة جنوبي المحيط الهادئ كلهم بالتعاون مع حركة الشباب المسلم في فيجي.

أعاننا الله وحفظنا ووفقنا لخدمة دينه الحنيف.

خاتمة:

لا شك في أنه توجد فرصة كبيرة سانحة للدعوة الإسلامية في هذه الجزر، وأن من المحتمل كثيراً أن يستجيب للدعوة الإسلامية عدد كبير من أهلها، لأنهم ليست لديهم عقد تاريخية من التعصب الديني المسيحي، إذْ كانوا عندما وصل المستعمرون الأوربيون إلى بلادهم على ديانات بدائية وثنية، فأدخلهم الأوربيون في المسيحية التي بات كثير منهم يشعرون اليوم بأنها دين جاء مع الاستعمار الأوروبي، وأنها لولا ذلك لما انتشرت في هذه البلاد.

على أن الداعية إلى الله يجب عليه القيام بواجب الدعوة بقدر طاقته حتى ولو لم يغلب على ظنه أنه سيستجاب له كما جاء في الآية الكريمة: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ والآية الأخرى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

والغالب على الظن أن تكون الاستجابة لداعي الإيمان في هذه المنطقة كبيرة، إلا أن الشأن أيضاً فيما بعد الاستجابة الأولية، وهي تثبيت الإيمان في قلوب المستجيبين، بتثقيفهم ثقافة إسلامية مناسبة لمداركهم الدينية وتعهدهم بالعناية والرعاية الاجتماعية لفترة يرسخ الإيمان خلالها في قلوبهم، وتطمئن إليه نفوسهم.

وذلك أمر على ذوي العزم من الدعاة ليس بكبير، ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾.

المحتويات

مطابع التقنية للأوفست
ت : ٤٨٢٣٧٣٤ فاكس ٤٨١١٩٨٨